معالم

فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي
تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

في هذا العدد:

- الثقافة و الترجمة
- المكونات الدينامية للتبليغ
- علم النفس اللغوي و لغة الإشارات
- الرأي العام غير موجود
- العلوم في بلاد الإسلام بين إرث الأولين و التلقي الأوروبي

العدد الأول
خريف 2009

المجلس الاعلى للغة العربية

معالم

مجلة فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي

تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

العدد الأول خريف 2009

معالم

مجلة فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي

تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

المدير المسؤول

محمد العربي ولد خليفة رئيس المجلس

☑ - **مديـــر التحـــرير**: *مرزاق بقطاش*

☑ - ***رئـــيس التحـــرير***: عبد العزيز بوباكير

☑ - ***مستشار التحـــرير***: أزراج عمر

☑ - ***أمـــانـــة التحـــرير***: حسن بهلول

منى بدري

سمية كوبة

الهـــيئة الاستشـــارية

- ☑ ــ خولة طالب الإبراهيمي
- ☑ ــ محمد بن عمرو الزرهوني
- ☑ ــ عبد القادر بوزيدة
- ☑ ــ محمد هناد
- ☑ ــ رشيد بن مالك
- ☑ ــ أحمد برغدة
- ☑ ــ بوزيد بومدين
- ☑ ــ إنعام بيوض
- ☑ ــ السعيد بوطاجين
- ☑ ــ مختار نويوات
- ☑ ــ محمد يحياتن

مـــجلة مـــعالم

مجلة فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي

تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

معايير الـــنشر

- ☑ التقيد بالضوابط العلمية والأكاديمية المتعارف عليها
- ☑ أن تكون الأعمال غير منشورة من قبل
- ☑ ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو مدير التحرير على العنوان المذكور أدناه
- ☑ أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة
- ☑ المقالات التي ترد إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

التحرير والمراسلة

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت الجزائر

الهاتف: 24/25 07 23 21 (00213) الناسوخ: 07 07 23 21 (00213)

ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر

البريد الإلكتروني: **maalem.csla@gmail.com**

الترقيم الدولي الموحد للمجلات (ر.د.م.م) : 2170-0052

محـــتـــويـــــات الـــعـــــدد

1 - **افتتاحية العدد** 9

محمد العربي ولد خليفة

2- الثقافة والترجمة 13

سوزان باسنت، ترجمة: مرزاق بقطاش

3- المصطلح الفكري والأدبي...29

ترجمة: أزراج عمر

4- هل اللسانيات ضرورية في الترجمة ؟...43

كريستوف هورشمان، ترجمة: إيمان بقطاش

5-مدخل إلى الشفوية الشعرية 55

بول زومتور ،ترجمة: حميد بوحبيب

6-المكونات الدينامية للتبليغ...77

بيرنار بوتي، ترجمة: رشيد بن مالك

7-علم النفس اللغوي ولغة الإشارات 85

فرانسوا جروسجين، ترجمة: السعيد بوطاجين.

8- حركة الترجمة بين اللغة الفرنسية واللغة العربية، منذ الثمانينيات من القرن الماضي: انعكاس للعلاقات الثقافية...93

ريتشارد جاكوموند، ترجمة: محمد يحياتن

9- تجربتي في ترجمة رواية "ليل الأصول" لنور الدين سعدي...115

أحمد منور

10- الرأي العام غير موجود 123

بيار بورديو، ترجمة: رضوان بوجمعة

11- العلوم في بلاد الإسلام من إرث الأولين والتلقي الأوروبي......................... ... 137

أحمد جبار، ترجمة: ابراهيم سعدي

12- النخبة والعقيدة الاندماجية،" دراسة تقويمية في المراجع والأدبيات"..............163

نيكولاي دياكوف، ترجمة: عبد العزيز بوباكير

افتتاحية العدد

محمد العربي ولد خليفة

هناك مشروعان على درجة كبيرة من الأهمية سعت نخبة من أهل الفكر والذكر لإنجازهما في جزائر ما بعد التحرير، أولهما إنشاء مؤسسة موسوعة الجزائر في كل العصور تكون مستقلة، وتساهم في تحريرها كفاءات من أعلى مستوى، تصدر مجلداتها دوريا بالعربيّة، ومن الممكن أن تترجم إلى لغات أخرى.

أما المشروع الثاني فيتمثل في بناء مؤسسة وطنية للترجمة مستقلة أيضا مثل سابقتها، تتخصص في نقل التراكم العلمي والإبداعي من مختلف اللغات، وتكون أشبه ببنك يتزوّد برصيد متنوع ومتجدد، يجد فيه الكتاب والباحثون نوافذ مفتوحة على ثقافات العالم بلغة الضاد.

حاولنا في بداية هذا العقد (2001-2002) بعث المشروعين المذكورين، ولكن بعد سلسلة من جلسات العمل والتشاور مع أهل الخبرة والاختصاص، حتى من خارج الجزائر، تبيّن لنا في المجلس أننا في الحقيقة ضحيّة أسطورة سيزيف وصخرته الملعونة، وبقيت خلاصات تلك الجلسات ومقترح تنظيمهما في خزانة الأرشيف.

قد لا نكون أول من فكّر وسعى لإنجاز المشروعين السابقين ولا آخر من يشغله تفعيلهما، لما لهما من أهمية إستراتيجية في جزائر، تعود إلى الجغرافيا والتاريخ بعد غياب طويل ومحن قاسية تركت جروحا عميقة في الذاكرة الجماعية لأجيال متعاقبة، من مضاعفاتها الباقية إلى اليوم الانشطار اللساني والاختلاف حول مراجع الهويّة والانتماء إلى وطن واحد وهبه الله موقعا جيو-ثقافيا متعدد الأبعاد، من تراثه الأمازيغي إلى عمقه العربي الإسلامي والإفريقي، إلى مجاورته للقوس اللاتيني (l'arc latin) في حوض المتوسط.

خفّف من وطأة ذلك التأجيل، وخاصة بالنسبة لمجال الترجمة أُطلاعنا على ما تتوفر عليه بلادنا من علماء ومختصين في علوم اللسانيات والترجمة، وذلك عندما شاءت الأقدار أن نفتتح الندوة الوطنية للترجمة بعد حوالي أسبوع من تكليفنا بالإشراف على المجلس.

وقد حرصنا على نشر وقائع تلك الندوة تحت عنوان: **أهميّة الترجمة وشروط إحيائها** سنة 2001، وقد أعيد طبعها بمبادرة من وزارة الثقافة سنة 2007 في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

ومن بين المشاهد المؤثرة في اختتام تلك الندوة، تكريم شخصيتين من رواد الترجمة في الجزائر، بل المبدعين فيها، وهما د. حنفي بن عيسى الراهب في محراب الجامعة لأكثر من ثلث قرن، ألّف خلالها وترجم تراثا من عيون الإبداع الجزائري في الفكر والأدب ونقله إلى عربية تمتاز بالدقة وجمالية الترجمة، وكأنه ابن المقفع في ترجمته الخالدة لكليلة ودمنة.

أما الشخصية الثانية فهي أ.د أبو العيد دودو الذي قضى حياته في الترجمة والتأليف والتكوين، فقد كان من عمداء الأدب الجزائري، ومن رواد الترجمة من لغة غوته وخاصة في الأدبيات الجزائرية القديمة والألمانية التي تتعلق بماضي الجزائر، وقد كان رحمه الله من أعضاء هيئة التحرير في مجلة المجلس، وقد اعتذر تواضعا عن رئاسة تحريرها.

لقد خدم الرجلان العربية والثقافة الوطنية ولم يقبلا أبدا الدخول في بورصة المزايدات وحلبة الصراعات الإيديولوجية، ولكن ما علاقة هذا الاستحضار بمجلتنا الوليدة "**معالم**" وهي تبدأ خطواتها الأولى في خضم أقيانوس الترجمة؟ الجواب أن للأفكار تاريخ ومسار، حتى ليمكن القول بأنه لا شيء في تراث الإنسانية ينشأ من عدم (Ex – nihilo nihil).

لقد راودنا المشروع قبل حوالي ربع قرن، فإذا استعصى على هيئاتنا المعنية بعث مؤسسة للترجمة، فبالإمكان إذا توفرت الإرادات واتضحت الأهداف والغايات، أن تكون **معالم** مجلة دورية للمترجمين من كل اللغات، وخاصة تلك الحاملة لمستجدات المعرفة والإبداع، فما لا يدرك كله لا يترك بعضه.

لسنا في حاجة للتأكيد على أهمية الترجمة وجرد مئات الندوات والملتقيات على الساحة العربية، وما أسفرت عنه من توصيات، فقد كان معظمها تشخيصا لوضعية التخلف في هـذا الميدان، وضربا من البكاء على حائط الأحزان، وخطابا مكررا لا يعقبه فعل مؤسسي ضمن مشروع حضاري تكون الترجمة من مفاتيحه الأساسية، كما كان الحال في عصر الإسلام الزاهر، وكما فعلت أوروبا في بداية عصر النهضة والأنوار.

يصدر العدد الاستهلالي من مجلة **معالم** وفيه نداء لكل المبدعين في ابستمولوجيا علـم الترجمة epistémologie de la traductologie واللسانيات والسـيميائيات والدراسـات الحديثـة في فروع المعرفة العلمية والاجتماعية وفنون الإبداع والجماليات، لتكون جسرا متينا لحـوار الثقافات، ومعلما على طريق التثاقف المتبادل مع العالم كما يرمز إليه اسمها، ورسم حروفها "**مـــ ع الم**" نأمل أن تشارك فيها أقلام جزائرية، ومن المشرق، والمغرب، ومن المبدعين في فنون الترجمة من شتى أنحاء العالم.

تنطلق باخرة **معالم** من مينائها الأول في الجزائر لتجوب السواحل، وتتنقّل بين البحـار والمحيطات العلمية والثقافية لتحمل في صفحاتها ما دّل وٱستجد في مختلف الألسنة، بقيـادة ربابنة من أعلى طراز، هم هيئة تحريرها الموقرة، وهدفها وغاية مسعاها هو خدمـة لغتنـا العربية الواحدة والجامعة لكل الجزائريين وللناطقين بها في المنطقة العربيّة وفي العالم.

إنّ العربيّة هيّ لسان الذكر الحكيم، ولكي تكون لغة حيّة ينبغي أن تكون لغـة الحيـاة، وتتغذّى بأكسجين الترجمة التي تساعد على إثرائها معنى ومبنى، وتحديث أسـاليبها وإثـراء معجمها، وذلك من أفضل السبل لتطويرها وارتقائها إلى العالمية بخصوصية أقوامها، ولكـي لا تذوب في طوفان عولمة هجوميّة تستهدف التنميط والنمذجة، وتلغي التنوّع والاخـتلاف، وهما مصدر الثراء والتقدّم في الحضارة الإنسانيّة.

إليك أيها القارئ الكريم

باكورة **معالم** في عددها الاستهلالي ونحن في انتظار ما يبديه القراء

والمختصون من ملاحظات وٱقتراحات.

الثـــقافة والتـــرجمة

لـــ سوزان باسنت*
ترجمة: مرزاق بقطاش

لماذا تتخذ الدراسات المتعلقة بالترجمة منحنى ثقافيا؟

قبل فترة، وفي عام 1990 على وجه التحديد، قمت بمعية الأستاذ أندري لوفيفر بكتابة فصل تمهيدي لمجموعة من الأبحاث تحمل العنوان التالي: (الترجمة والتاريخ والثقافة). أردنا يومها أن نلفت الانتباه إلى التغيرات التي رأينا أنها تطرأ على البحث في الدراسات المتعلقة بالترجمة وتعززها بشكل مطرد، وهي التغيرات التي كشفت عن حدوث نقلة من مقاربة أكثر شكلية للترجمة، إلى تلك التي أدت إلى تركيز أكبر على عوامل نصية خارجية. وتذرعنا حينئذ بأن الدراسات التي تتناول ممارسة الترجمة قد تطورت، ومن ثم، فإن بؤرة الاهتمام ينبغي أن تنصب على معالجة مواضيع أوسع عن السياق والتاريخ والاصطلاح، وليس على مناقشة معنى الوفاء في الترجمة فحسب، أو ما قد تعنيه كلمة (المقابلة). وكانت نوعية الأسئلة التي تطرح حول الترجمة في تغير متواصل.

***سوزان باسنت** Susan Bassnett, university of Warwick أستاذة في مركز الترجمة والدراسات الثقافية المقارنة بجامعة (ورك) في إنجلترا، ومؤلفة أكثر من عشرين كتابا في حقل الدراسات المتعلقة بالترجمة والأدب المقارن ونقد الشعر. والبحث التالي مأخوذ من كتاب ألفته بالاشتراك مع عدد من الباحثين العاملين في نفس المجال.

فيما مضى، كان السؤالان المطروحان دائما وأبدا هما التاليان: (كيف يمكن تعليم الترجمة؟) و(كيف يمكن دراسة الترجمة؟). وكثيرا ما وقف أولئك الذين اعتبروا أنفسهم مترجمين وقفة الازدراء حيال كل محاولة من المحاولات التي ترمي إلى تدريس الترجمة، في حين أن الذين نادوا بتعليمها لم يترجموا شيئا في غالب الأحيان، ومن ثم لجأوا إلى الأخذ بأسباب المنهج التقويمي القديم، أي وضع نص مترجم مقابل نص مترجم آخر، بغاية بحثهما ضمن منظور من الفراغ الشكلي، غير أن هذين السؤالين تغيرا في أيامنا هذه.

لقد أعيد تحديد موضوع الدراسة في هذا الشأن، فما يدرس اليوم إنما هو النص المدرج ضمن سياقه من مصدر ومن دلالات ثقافية في لغة الهدف. عندما كتبنا ذلك، كنا على وعي بأن هناك شرخا بين المقاربات اللسانية في مضمار الترجمة والمقاربات الأدبية، وحاولنا أن نتحدى تلك المقاربات كلها على اعتبار أنها ضيقة ووصفية. ومنذ ذلك الحين، جعلت الدراسات التي تتناول الترجمة تتطور كشعبة متميزة عبر الثمانينات، مستخدمة منهجيات مستمدة من البحوث في اللسانيات والأدب المقارن. وشعرنا حينها مع عدد كبير من الذين يعملون في حقل الترجمة، أن الوقت قد حان من أجل استخدام مكثف لأدوات التاريخ الثقافي والدراسات التاريخية.

إذا ما نظرنا إلى الوراء، بدت لنا مقدمتنا في غاية السذاجة والسطحية في نفس الوقت، ذلك لأن الدراسات التي تعالج موضوع الترجمة تطورت بسرعة في بحر التسعينات، وهي تحتل اليوم مكانة راسخة في الجامعات، حتى إنه ما عادت الحاجة ماسة إلى مرافعة خاصة في هذا الشأن. والحجج التي سعينا إلى تقديمها – وهي أن الترجمة تلعب دورا أساسيا في تشكيل الأنساق الأدبية، ولا تتموقع ضمن خط أفقي، وأن المترجم يخوض على قدم وساق مجالات معقدة (من مثل الوساطة بين الثقافات)، وأن الترجمة هي دائما وأبدا إعادة كتابة لنص أصلي –، هذه الحجج كلها عمل على النهوض بها دارسون على غرار مايكل كرونين (1996،2000)، وإدوين جنتزلر (1993-2001)، ولورنا هاردويك (2000)، وثيو هرمانس (1996-2006)، وتيجاسويني نيرانجانا (1992)، ودوجلاس روبنسون (2002)، وشيري سايمون (1996)، وهاريش تريفدي (1993)، وإلزا فييرا (1999)، ولورانس بينوتي (1995-1998)، وآخرون كثيرون. لقد صارت الدراسات الدائرة في حقل الترجمة موضوعا

أكاديميا مقبولا، بل إن هناك كتبا ومطبوعات وبحوثا لنيل شهادات الدكتوراه تظهر بوتيرة متسارعة، بحيث إنه يتعذر على الإنسان أن يقرأها جميعا. وهناك في صلب أغلبية الأبحاث الأكثر، جدة قضايا أكبر، تتناول الإيديولوجيا والأخلاق والثقافة.

وحتى في عام 1990، ما كنا الباحثين الوحيدين في مضمار الترجمة على الإطلاق بين أولئك الذين يجتهدون من أجل إعطاء هذه القضية طابعا ثقافيا. إذ قبل ذلك بكثير انطلق السعي في سبيل توسيع موضوع الدراسات إلى ما أبعد من حدود الإطار المباشر، وذلك في نطاق العمل الذي اضطلعت به مجموعة (الأنساق المتعددة) التي كان وراءها إيتامار إيفن زوهار (1978)، وجيديون توري (1978)، وجيمس هولمز (1978). ففي ألمانيا وكندا والبرازيل وفرنسا والهند قدمت حجج مماثلة لما قدمناه نحن، على الرغم من أنها جاءت من منظورات مختلفة، بينما شرع المترجمون والباحثون في مجالات الترجمة في إعادة تحديد مهمة الترجمة في تاريخ الأدب، متعقبين أصول الترجمة ضمن سياقاتهم الثقافية الفردية، ومتعمقين بصورة أشمل في المتطلبات الإيديولوجية للترجمة، وقوة العلاقات التي تنشأ عندما يتم نقل نص من سياق إلى سياق آخر.

عنيت نظرية الأنساق المتعددة بالترجمة الأدبية في المقام الأول، غير أن باحثين آخرين في مجال الترجمة من بين أولئك الذين ضمت أعمالهم أمورا غير أدبية، ساروا في دروب موازية. فعلى سبيل المثال، تفترض نظرية سكوبوس التي قولبها هانس فرمير وكاتارينا ريف (Rein& Vermeer, 1984) وآخرون؛ أن موضوع أو وظيفة ترجمة من الترجمات هي التي تحدد استراتيجيات الترجمة التي ينبغي استخدامها. ومن ثم، فإن شخصية المترجم تحتل مكانة الصدارة، وأن القصد من وظيفة الترجمة التي يراد بلوغها في الثقافة الهدف يسمح للمترجم القيام ببعض الخيارات. وتلك التفاتة هي أبعد ما تكون عن نظريات الترجمة التي تركز على المصدر، ويمكن أن توصف بأنها تعكس منحنى ثقافيا.

أوجز الأستاذ جنتزلر حصيلة الدراسات التي تناولت الترجمة في الثمانينات والتسعينات، فكتب يقول: إن أهم نقلتين تحققتا على صعيد التطور التنظيري في مجال الترجمة خلال العقدين الماضيين تمثلتا في:

- الإنتقال من النظريات المركزة على النظريات القائمة أساسا على النص الهدف.

- الإنتقال إلى إدراج العناصر الثقافية، وكذلك عناصر علوم اللسانيات في نماذج تدريس الترجمة. وجميع المقاربات الوظيفية المرفوعة في هذا الشأن كانت لها الريادة في كلا المجالين، (جنتزلر، 2001).

والأمر البديهي الآن، ولو ببعض التأخر، هو أن المنحنى الثقافي كان ظاهرة ثقافية هائلة، ولم يحدث إلا في مجال الدراسات المتعلقة بالترجمة لا غير. وراحت العلوم الإنسانية عامة تحظى بالأهمية. وهكذا تأثرت اللسانيات بهذا المنحنى الثقافي، بفعل نشأة تحليل الخطاب، والانتقال من حال الملاحظة والتسجيل إلى اللسانيات الفاعلة، وفقا لما قال به دوجلاس روبنسون (2002).

إن تزايد الاهتمام بمتون اللسانيات الذي مهدت له (منى بيكر) يعد ظاهرة أخرى لنقلة ثقافية في علوم اللسانيات دون شك. ففي الدراسات الأدبية، انتقلت المسائل الثقافية من المقاربات الشكلية إلى دراسة النص منذ وقت طويل. ومن مرحلة ما بعد البنيوية إلى موجة المقاربات الأدبية الجديدة العارمة التي طغت عبر العقود الأخيرة للقرن العشرين، اتخذ كل شيء بعدا ثقافيا تراوح ما بين مواضيع المساواة بين الرجل، والمرأة، والجنس، والنقد، والتفكيكية، وما بعد الكولونيالية، ونظرية تداخل الأجناس الأدبية.

تبنت الدراسات الأدبية مناهج مأخوذة من الدراسات الثقافية، فخلخلت المعالم بين ما كان في يوم من الأيام حقولا واضحة في مجال البحث والاستقصاء. وعرف التاريخ بدوره نقلة مماثلة بتركيز أكبر على التاريخ الثقافي والاجتماعي، واتساع رقعة ما كان هامشيا فيما مضى، على غرار تاريخ الطب، وتاريخ العائلة، وتاريخ العلم. وأدت الجغرافيا الثقافية إلى إعادة انبعاث العلم الجغرافي من حيث هو موضوع قائم بذاته. وعندما ازدادت مجالات الدراسات أهمية، أعادت أقسام اللغات الحديثة تسمية أنفسها، من أجل الإلحاح على المقاربة الثقافية. وأدت دراسة الآداب الكلاسيكية إلى الكشف عن جيل جديد من الطلبة الذين كان اهتمامهم بهذا الموضوع، وليد دراستهم للعلاقة القائمة بين الثقافات القديمة، والثقافات المعاصرة.

ترى لورنا هاردويك، الباحثة في اللغة اليونانية القديمة ومؤلفة كتاب حول التفاعل الثقافي في الترجمة، أن عملية ترجمة الكلمات أيضا (تتضمن ترجمة أو إعادة نقل البنية

الثقافية لنص من النصوص القديمة إلى الثقافة المتلقية). (هاردويك، 2000). وتلح بصوت واضح على أن الترجمة أداة في سبيل التغيير، وهي إذ تفعل ذلك؛ إنما تغير بؤرة الاهتمام لدى طالب اللغات الكلاسيكية في زمننا هذا. وتزعم أن المهمة التي تجابه مترجم النصوص القديمة تتمثل في إنجاز ترجمات تتجاوز الطابع الفوري للنص، وفي البحث بطريقة من الطرق عن استخدام عضوي للبنية الثقافية التي يتضمنها هذا النص، مستخدمة في ذلك الصورة العضوية لكلمة (إعادة الزرع)، المأخوذة عن الشاعر شيلي. وعلاوة على ذلك، فإن العملية الحقيقية للترجمة هي تلك التي تمكن القراء المعاصرين من بناء الحضارات الضائعة. إذ أنها هي البوابة التي يمكن الدخول منها إلى الماضي.

وعليه، فإن المنحنى الثقافي في الدراسات المتعلقة بالترجمة يمكن اعتباره جزءا من المنحنى الثقافي الذي كان يحتل مكانته في العلوم الإنسانية عامة في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات، وقد أدى إلى تغيير شكل العديد من المواضيع التقليدية. ففي الدراسات التي عالجت موضوع الترجمة، قامت نظرية الأنساق المتعددة بإعداد الأرضية في سبيل تكريس منحنى ثقافي منذ ذلك الحين، وعلى الرغم من أصولها الشكلية؛ فإن نتائجها جاءت لتحتل موقع الصدارة، بعد أن ارتبطت أساسا بمسائل التاريخ الأدبي، وبالمكانة التي حظيت بها النصوص المترجمة في الثقافة المتلقية. وكمثال على النزعات الموازية في دراسة الترجمة ودراسة الأدب معا، لا نكاد نحتاج إلا إلى التفكير في الطريقة التي يمكن أن تتغير بها دراسة الأدب، عندما يجري النظر إلى مرحلة ما من زاوية مرجعية بديلة. لقد بحث النقد النسوي مسألة سيطرة الكتاب الذكور على المعيار الأدبي، وأدى إلى إعادة تقويم الطريقة التي أسس عليها هذا المعيار. وعليه، إذا ما نظرنا إلى القرن الثامن عشر، من منظور ما بعد الحركة النسوية، فإنه لن يبدو لنا عصرا سيطر عليه الكتاب الذكور، بل كان عصرا شاركت فيه النساء مشاركة كبيرة في الحياة الفكرية. وعلى نحو مماثل، فإننا إذا ما ألقينا نظرة من زاوية الدراسات المتعلقة بالترجمة إلى القرن الخامس عشر الميلادي في إنجلترا، ذلك العصر الذي جرت العادة في النظر إليه على أنه أشبه ما يكون بأرض ضائعة، مع ضآلة ما أنتج في نفس السياق بعد وفاة الشاعر (تشوسر) في عام 1400، فإن ما يطالعنا في هذا الشأن إنما هو مرحلة من الترجمة المكثفة لكل من النصوص الدنيوية والمقدسة.

إن الحركة النسوية حين أعادت تأهيل القرن الثامن عشر وفقا لإعادة التفكير في معيار الإنتاج الأدبي وإعادة تقويمه خلال القرن الخامس عشر، أي حسب أهمية الترجمات التي أنجزت، قدمت نموذجين يوضحان كيف يستطيع الإعلام الجديد تغيير أفقنا التاريخي. وكل ما في الأمر؛ هو أن الأعمال الفكرية التي أنجزتها النساء ما عادت مرئية، على غرار ما تجوهلت أهمية الترجمة. إن التوكيد على هاتين المرحلتين في تاريخ الأدب يقتضي إعادة التفكير في مزاعمنا حول ما يشكل الأدب الحقيقي. وفي كلتا الحالتين، فإن عملية موازية لمساءلة المعايير المستقرة قد اتخذت مكانها، ويمكن اعتبار هذه العملية منحنى ثقافيا نهائيا.

وقد حدث جدل حول المعايير الأدبية التي استقر أمرها في صلب نظرية الأنساق المتعددة، وفقا لما حدده إيفن زوهار. فهو يرى أن كل نموذج من نماذج النسق الأدبي ينبغي أن ينطوي على الأدب المترجم، (بفتح الجيم)، ذلك لأن الترجمة كثيرا ما كانت المعبر الذي يمكن أن نمرر عليه التجديد والتغيير: (ليس في وسع أي ناظر في تاريخ أدب من الآداب أن يتجنب الاعتراف بأن تأثير الترجمات حقيقة بالغة الأهمية وكذلك دور هذه الترجمات في السياق التزامني والتاريخي لبعض أنواع الأدب) (إيفن زوهار، 1978).

وبعد أن عبر عن إيمانه بالأهمية الأساسية لدور الترجمات في نسق أدبي ما، اجتهد إيفن زوهار في تحديد الظروف التي يمكن أن تكتسي فيها الترجمات أهمية خاصة. وأشار إلى أن حاجة الآداب إلى الترجمات تظل متراوحة وفقا لما تقتضيه، ومن ثم، فإن نسقا أدبيا راسخا رسوخا جيدا يمكن أن يضطلع بالترجمة، بحجم أقل من نسق أدبي آخر يشهد تغيرات واضطرابات. والآداب الجديدة الناشئة، حسب نظرية إيفن زوهار، تقوم بترجمة نصوص أكثر، وهذه فرضية أثبت صحتها الباحثون في الترجمة (e.g. Macura 1990) عن آداب شمال ووسط أوربا، على سبيل المثال، أي الآداب التشيكية والفنلندية، التي تطورت خلال القرن التاسع عشر، بمساعدة الترجمة، وذلك ضمن سياق الإحياء اللغوي، والنضال السياسي من أجل الاستقلال الوطني.

وعلى النقيض الكامل من ذلك كله، هناك نموذج الصين التي لم تترجم خلال العديد من القرون سوى الشيء القليل، بحكم أن الكتاب الصينيين ما كانوا في حاجة إلى تأثيرات خارجية. لكن، هناك اليوم انفجار في الترجمة في الصين، مرتبط بالتحديث والتغريب

ودخول الصين حلبة الاقتصاد الدولي. ويعرض الأدب الإنجليزي علينا نموذجا آخر، فقد بدأ نشاط الترجمة ينخفض خلال القرن الثامن عشر، بعد بضعة قرون شهدت بروز أشكال شعرية جديدة (سونيتات أوتافا ريما Ottava rima على سبيل المثال)، وأفكار جديدة (نظرية السياسة والإجتماع، على سبيل المثال)، وتحولات ثورية في الدين، بقدوم حركة الإصلاح والمناقشات الكبرى حول ترجمة الإنجيل. وفي أواخر القرن الثامن عشر، تناقصت الحاجة إلى الخارج في سبيل إحداث التجديد، وأدى ازدياد عدد الكتاب الذين ينتجون النصوص باللغة الإنجليزية إلى تدني وضعية الترجمة. ونتج عن ذلك تدهور في وضعيتها، حتى إنه يمكن القول؛ إن الترجمة إلى الإنجليزية في أثناء ذلك هبطت إلى الحدود الدنيا، ولما كانت الإنجليزية تواصل تطورها كلغة عالمية، فإنه لم توجد إشارات إلى أن الترجمة تستعيد الأهمية التي كانت لها في عصر شكسبير، أو في عصر درايدن.

إن رأي إيفن زوهار (1978) القائل بأن الثقافات تترجم وفقا لما هي في حاجة إليه، يبدو اليوم أمرا بديهيا، لكن، في الفترة التي قيل فيها، كان رأيه هذا بالغ الأهمية، وذلك لأن مقتضيات نظريته في التغير الثقافي كانت هائلة جدا.

وحسب ما رآه، فإن الوضعية التاريخية هي التي تحدد حجم ونموذج الترجمات التي يمكن الاضطلاع بها، كما أن وضعية تلك الترجمات ستكون أكبر أو أقل حسب حال الثقافة المتلقية. وعليه، فإن هناك من الأعمال ما يمكن أن يكون ذا أهمية أساسية في الثقافة المصدر، ويمكن أن تترجم دون أن يكون لها تأثير في الثقافة المتلقية أو، على العكس من ذلك، يمكن أن تحدث تغييرا في شكل النسق الأدبي المتلقي. ووضعية (جاك لندن)، الذي هو روائي أمريكي صغير نسبيا يتمتع بمكانة هامة في روسيا، وفي غيرها من الجمهوريات السوفياتية الأخرى، هي أبرز مثال على أن الترجمة يمكن أن تغير حظوظ كاتب فردي تغييرا جذريا.

وهناك حالة مشابهة لدى (كلاريس ليسنكتور)، الروائية البرازيلية التي ترجمت إلى اللغتين الفرنسية والإنجليزية في بحر الثمانينات من قبل مترجمين مقتدرين. جاءت تلك الترجمات في وقت كانت فيه قارة أمريكا الجنوبية موضوع افتتان في دوائر الأدب الأوربية، وكان كتاب مثل بورخيس، وجارسيا ماركيز، وفارجاس يوسا، ينالون حصة الأسد. ليسكتور

هذه استجابت لحاجة خاصة: كانت امرأة، وبرازيلية، وترجمت رواياتها ترجمة أنيقة، وكان من بين مترجميها جيوفاني بونتييرو. ونتيجة لذلك فإن أعمالها قرئت بشكل واسع، وصارت تحتل موقعا متقدما في الآداب البرازيلية خارج وطنها أكبر مما تتمتع به في البرازيل (انظر ليسنكتور، 1992 ب، 1992 ب). وهناك مثل أكبر عن المنحنى الثقافي في الدراسات التي تتناول الترجمة، يتلخص في توسيع البحث داخل المعايير التي تتحكم في استراتيجيات الترجمة وتقنياتها. فلقد بحث كل من جيبديون توري (1978، 1995)، وأندرو شسترمان (1993)، وثيو هرمانس (1999 ب) بوجه خاص من أجل اكتشاف معايير بين الترجمات، لا بموجب اصطلاحات نصية فحسب، بل وفقا لاستشرافات ثقافية أيضا.

(توري) واضح غاية الوضوح في ما يتعلق بأهمية المعايير الثقافية في مضمار الترجمة، فهو يؤكد أنه ينبغي النظر إلى أنشطة الترجمة على أنها تنطوي على مغزى ثقافي. وبالتالي، فإن (صناعة الترجمة) تتمثل أولا وأخيرا في أن تكون قادرة على أن تلعب دورا اجتماعيا، أي أن تضطلع بوظيفة تحددها مجموعة من المجموعات لهذه الصناعة ولممارسيها ولما ينتجونه، وذلك بطريقة محكوم عليها بأن تكون مطابقة لمرجعيتها الخاصة بها.

وعليه، فإن امتلاك مجموعة من المعايير لتحديد مدى ملاءمة هذا النوع من السلوك وللتحرك بين جميع العناصر التي يمكن أن تضغط عليها، هو شرط لا بد منه لكي يصير الإنسان مترجما ضمن محيط ثقافي. (توري 1978:83). ومنذ فترة، كان هناك اهتمام متزايد ببحث معايير المسؤولية ذات الفاعلية ضمن سياق خاص، ذلك لأن التركيز انتقل مرة أخرى في الدراسات المتعلقة بالترجمة إلى الإلحاح بصورة أكبر على النتائج الأخلاقية في الترجمة.

وفي الوقت الذي وضعت فيه كتابي (بناء الثقافات) بمعية لوفيفر (باسني ولوفيفر 1998)، شعرنا معا أننا قادران على أن نقول إن بيت الترجمة يضم الآن عددا من الغرف. وأدركنا الحجم الكبير للعمل الذي تم الاضطلاع به في جميع جوانب الترجمة، وفي تدريب المترجم، ونظرية الترجمة، مثلما أدركنا أشكال مختلف التركيز التي تزايدت في حقل الترجمة، بفضل تزايد عدد الباحثين في الدراسات التي تتناول الترجمة في جوانبها المختلفة.

وفي المقدمة التي وضعناها، (باسني ولوفيفر، 1998) اعتبرنا أن أعظم تغيير في حقل الترجمة لم يحدث بعد، ذلك لأن حقولا متداخلة أكثر فأكثر، أو حقولا فرعية من أدب وأنثروبولوجيا وثقافة الخ، أضيفت إلى علوم اللسانيات، وبدلا من ذلك فإن الهدف من العمل في مضمار الترجمة اتسع بنفسه تلقائيا: ففي السبعينات، كان ينظر إلى الترجمة على أنها أمر حيوي للتفاعل بين الثقافات، وتلك مسألة لا شك فيها. والعمل الذي قمنا به حينذاك هو أننا أخذنا هذه الملاحظة وأوقفناها على قدميها إن صح التعبير: إذا كانت الترجمة، بالفعل، حسب اعتقاد كل إنسان عنصرا حيويا للتفاعل بين الثقافات، فلماذا لا نقدم على الخطوة التالية وندرس الترجمة، لا لكي نكتفي بتدريب المترجمين، بل لكي نبحث مسألة التفاعل الثقافي على وجه التحديد. (باسني ولوفيفر، 1998:6).

رأينا أن الترجمة تضع بين أيدينا نموذجا مثاليا (لوضعية المختبر) من أجل دراسة التفاعل الثقافي، ما دام أن المقارنة بين النص الأصلي والنص المترجم لن تعرض الإستراتيجيات المتبعة من قبل المترجمين في بعض الأحيان فحسب، بل وستكشف أيضا عن الحالات المختلفة للنصين كليهما في أنساقهما الأدبية العديدة. كما أنها ستعرض العلاقة بين النسقين الثقافيين الاثنين اللذين اندرج فيهما هذان النصان بصورة أكثر تفصيلا.

الثقافة الواسعة والنسيج النصي:

وحرصا منا على استخدام أدوات منهجية للخوض في هذه العملية، اقترحنا أداتين نقديتين أساسيتين مستوحاتين من عمل بيير بورديو (1994): فكرة الثقافة الواسعة ومفهوم النسيج النصي. يمكن تحديد فكرة الثقافة الواسعة من كونها ضرورية لفرد من الأفراد، حتى ينظر إليه على أنه ينتمي إلى (دوائر اليمين) في المجتمع. عندما اقترح كمال أتاتورك عملية إرساء دولة مستوحاة من العالم الغربي من أجل تقريب تركيا من الغرب، كان هناك برنامج كامل لترجمة كبريات الآثار الأدبية الأوربية، يضمن للقراء الأتراك الدخول إلى الثقافة الواسعة في الغرب. في كتاب(بناء الثقافات) (باسني ولوفيفر، 1998) يناقش لوفيفر الحالة المتغيرة لملحمة (الإنيادة) لفرجيل، من حيث هي مندرجة ضمن ثقافة واسعة، مشيرا إلى أن الأنساق التربوية هي الوسائط الأولى لمراقبة الإبداع، وانتقال الثقافة الواسعة. غير أن التدهور في دراسة لغة من اللغات، مثل اللاتينية على سبيل المثال، قد تكون له تأثيرات

كبيرة في القيمة الممنوحة للأدب اللاتيني، بمثل ما تكون هناك انعكاسات واسعة النطاق على دور الترجمة، بحكم أن هذا الأدب لا يمكن أن تطلع عليه إلا القلة القليلة من القراء. ومن المعلوم أن قيمة الكلاسيكيات من حيث هي ثقافة واسعة تغيرت بصورة مثيرة في بضعة عقود من الزمن.

وقد تكون أهمية النسيج النصي في دراسة وإنتاج الترجمات هي هي، أو لعلها أن تكون ذات مغزى أكبر شأنا. عندما قولبنا مفهومنا عن الأنسجة النصية، أشرنا (باسني ولوفيفر، ذ998:5) إلى بعض الثقافات (مثل الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية، أي تلك التي تتقاسم نسيجا نصيا مستمدا من التقاليد المسيحية، واليونانية، والرومانية). وقلنا إن بعض الثقافات الأخرى (مثل الصينية، واليابانية) تتقاسم أنسجة نصية أقل مع ثقافات أخرى. لكن يبدو أن الأنسجة النصية موجودة في جميع الثقافات، لكأنما هي سابقة لوجود اللغة. هذه الأنسجة عبارة عن أبنية، وهي تعكس نماذج من تطلعات استبطنها أصحاب ثقافة من الثقافات. اقترحنا (أن يسعى طلبة الترجمة إلى أن يعتنوا بها عناية أكبر مما فعلوه في الماضي، سواء أرادوا تعلم تقنيات الترجمة أم أرادوا تحليل الترجمات والدور الذي تضطلع به في تطور الثقافات) (باسني ولوفيفر، 1998:5).

إن فكرة الأنسجة النصية هي خير عون في تحليل الترجمة. وقد أكد أندري لوفيفر في آخر بحث عالج فيه فكرته حول الأنسجة النصية ومفاهيمها، أن المشاكل في الترجمة يتسبب فيها على حد سواء (التعارض في الأنسجة النصية بقدر ما يتسبب فيها التعارض بين اللغات). وصارت المشاكل أظهر ما تكون عليه عندما تتخذ الترجمة مكانة لها بين الثقافات الغربية والثقافات الأخرى. ويزعم لوفيفر أن الثقافات الغربية قد بنت ثقافات غير غربية، وذلك بتحويلها إلى مقولات غربية، وهي عملية تشوه وتزور: وذلك يقودنا رأسا بطبيعة الحال إلى أهم مشكلة في مضمار الترجمة، وفي جميع المحاولات الرامية إلى فهم الثقافات المتقاطعة: هل تستطيع الثقافة (أ) أن تفهم الثقافة (ب) بالإستناد إلى اصطلاحاتها الثقافية الخاصة بها؟ أو، هل تحدد الأنسجة النصية دائما وأبدا الطرق التي تكون فيها الثقافات قادرة على أن تفهم بعضها البعض؟ وهل الأنسجة النصية هي المطلب الذي لا بد منه لفهم كل شيء أم لا، هذا إذا ما استخدمنا عبارات قد تكون قوية جدا؟ (لوفيفر، 1999، 77). وتعد

نظرية الترجمة لما بعد المرحلة الكولونيالية مثالا آخر للتدليل على أن البحث في حقل الترجمة تطور بالتوازي مع البحث في الأدب، وفي الدراسات التاريخية على العموم. وفي الهند وكندا والبرازيل، على سبيل المثال لا الحصر، طرحت في هذه المراكز الثلاثة لنشاط الترجمة بعد المرحلة الكولونيالية، أسئلة حول القوة اللامتكافئة في العلاقات التي تبرز عندما يترجم نص، على سبيل المثال، من التاميل إلى اللغة الإنجليزية، أي، لغة القوة المستعمرة (بكسر الميم الثانية). ورأى البعض، ومن بينهم تيجاسويني نيرانجانا بوجه أخص، أن فعل الترجمة في حد ذاته ، (1992) هو فعل استحواذ وتملك.

ويقول نيرانجانا أيضا إن الترجمة أشبه ما تكون بنشاط متواطىء يشارك في ترسيخ الثقافات المستعمرة (بفتح الميم الثانية)، ضمن قالب تقوم القوة الأعلى بسبكه. وبالمثل، فإن إيريك شيفيتز (1991) يؤكد أن الترجمة كانت مقوما حاسما للاستعمار الأوربي في القارة الأمريكية.

ويركز كل من (شيفيتز) و(نيرانجانا) عنايتهما على اللاتكافؤ الموجود بين النسقين الأدبي، والثقافي، اللذين يؤثران في نشاط الترجمة والأنساق الثقافية، فيتحول نشاط الترجمة بدوره إلى فعل عدواني حسب رأيهما. وموقفهما هذا موقف متطرف، طالما أن النتيجة المنطقية لمثل هذه الحجة ستكون الإخلاد إلى الصمت، ذلك لأنه إذا كان يستحيل على الترجمة التي تقوم بها ثقافة مسيطرة؛ أن تكون شرعية أبدا، فإن الترجمة ستصير عندها شكلا من أشكال السرقة الثقافية، أي، فعلا غير شريف لا ينبغي أن يوجد أصلا.

والسبيل الوحيد لكي تكون الترجمة مشروعة؛ هي أن تتخذ مكانا لنفسها انطلاقا من اللغة المسيطرة إلى اللغة الأقل قوة، ومن ثم فإن الترجمة من الإنجليزية إلى الكيبيكية؛ أو من الألمانية إلى السكتلندية؛ تصير حالة سياسية تشهد على بروز مكانة اللغة المهمشة سابقا. ذلكم هو رأي كل من (نيرانجانا) و(شيفتز) في مطالع التسعينات، في وقت تركز فيه الإهتمام على ما بعد المرحلة الكولونيالية للترجمة، وفقا لما جاء به إدوارد سعيد (1978)، أي حول اللاتكافؤ في علاقات القوة، ومن ثم فإن أغلبية المترجمين الأوائل للنصوص الغير الغربية وصفوا بالكلاب المستأنسة. ومثل هذا الوضع جرى الطعن فيه؛ كلما اكتشفت أشياء أكثر تتعلق بتاريخ الترجمة. وعليه، فإن أكبر حصة في مضمار الترجمة على سبيل المثال، هي

تلك التي تتم في الهند بين لغات هندية، أو من الإنجليزية إلى اللغات الهندية، وكل تأكيد على الصورة الهندية يحتاج إلى أن يضع في الحسبان هذا الأمر الواقع. كما أنه لا يمكن أن يحكم على المترجمين المستشرقين كيفما اتفق. العديد من أولئك المستشرقين الأوائل، مثل السير ويليام جونز (1970) كان يحفزهم عشق أصيل للأعمال الأدبية التي ترجموها، غير أن الإطار العملي الذي ترجموا فيه أثبت أنه ما من أحد منهم كان مندرجا في التيار الأساسي الإنجليزي. ولكي نفهم هذا الإطار العملي لا نحتاج إلى أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل السياسية الاجتماعية فحسب، بل وكذلك العناصر الجمالية، والأسلوبية، والأخلاقية، والعوامل اللغوية. إن وقوف الأدب الإنجليزي في وجه أشكال أدبية جديدة في القرن التاسع عشر يعني أنه ما من أحد من المترجمين المستشرقين كان قادرا على إنتاج نصوص يكون لها التأثير الكبير في النسق الأدبي اللاحق، وذلك بغض النظر عن كفاءاتهم. ولكن، ويا للغرابة! نجح نص أدبي واحد غير غربي، بل إنه صار أنجح النصوص المترجمة في الأدب الإنجليزي على الإطلاق، ونعني به الصياغة التي قام بها إدوارد فيتزجرالد (1859) لرباعيات عمر الخيام عن الفارسية، بحيث يمكن اعتبارها نصا معياريا في اللغة الإنجليزية.

والسؤال الذي ينبغي طرحه في هذا الشأن لا يتعلق بنجاح تلك القصائد في أوساط القراء الإنجليز فحسب، بل ولماذا فشلت ترجمات عديدة أخرى لنصوص غير غربية أيضا. ولكي نجيب عن هذا السؤال؛ نحتاج إلى أن نبحر في السياق الثقافي الأوسع الذي اتخذت فيه الترجمة مكانها، وننظر في المعايير، وفي ما يتطلع إليه القراء، وفي ما حدث في الشعر الإنجليزي على وجه التحديد، في الوقت الذي ظهرت فيه ترجمة فيتزجرالد، وكذلك، في الإستراتيجيات التي استخدمها المترجمون لكي يبلغوا قراءهم. كما أنه من الأهمية بمكان أن نتذكر أنه بينما كان قراء الإنجليزية في القرن التاسع عشر قد وقفوا في وجه الشعر المترجم، فإنهم في مقابل ذلك التهموا المسرحيات والروايات المترجمة، خاصة منها تلك التي وضعها كتاب فرنسيون وروس.

وحتى وإن أقررنا بضعف ترجمات السير ويليام جونز وأقرانه، فكيف نستطيع أن نفسر الظاهرة الغريبة التي تدفع بقراء اللغة الإنجليزية اليوم إلى التهافت على أعمال الكتاب الهنود

الذين يستخدمون الإنجليزية (فكرام سيت، وسلمان رشدي أو أروناتي روي على سبيل المثال)، تاركين في ذات الوقت ترجمات جيدة لكتاب هنود معاصرين نائمة على الرفوف؟

ولكي نحاول فهم هذه الظاهرة، يتعين علينا أن نغوص إلى الأعماق في الكيفية التي يتشكل بها الذوق داخل ثقافة ما، وكيف يقوم الناشرون بتسويق إنتاج كتابهم بالتوافق مع هذه النماذج المتغيرة التي تحظى بالأفضلية، وكيف تبتدع ثقافة من الثقافات أساطيرها انطلاقا من ثقافة أخرى. إن قوة الميثولوجيا الثقافية هائلة جدا. إذا ما أخذنا نموذج الصين مثلما يظهر عليه من خلال الترجمة، اصطدمنا بازدواجية معنوية ملغزة. فهناك في هذا الجانب، (كاثاي)، أي الصين الخيالية التي ابتدعها المترجمون الأوائل من أمثال (عزرا باوند)، و(آرثر هيلي) عبر لغة شاعرية صارت بدورها لغة اصطلاحية. وهذه الاصطلاحية من القوة بحيث إنها صارت هي السائدة في السينما، في حين أن الأفلام الصينية مدبلجة بالإنجليزية. إن أسطورة كاثاي هذه تنطوي على عناصر الحنين والضياع والهوى وعلى حس جمالي رفيع، إنها صين خيالية لماض بعيد، ابتدعت بشكل شاعري متفق عليه، وذلك باستخدام لغة مبنية بشكل اصطناعي. في حين أنه في الجانب الآخر، يقل الاهتمام بالأدب الصيني المعاصر، على الرغم من الإقبال الغربي الهائل على الصين الجديدة.

إن الروائيين الصينيين الواقعيين الجدد الذين يتميزون بالقوة في أيامنا هذه لا يكادون يلقون استجابة في الغرب. فهل يعود ذلك إلى حساسيات ما بعد الحداثة في الغرب؟ أم إلى أن موجة الكتاب الجدد لا تلائم أسطورة الصين/ كاثاي التي أنشئت قبل قرن من الزمان من قبل شعراء إنجليز وأمريكيين؟ إذا كان ذلك هو الحال حقا، فإننا في حاجة إلى أن نفهم كيف أمكن لبنية ميثولوجية أنشئت عبر الترجمة أن تمتلك وتحافظ على هذا القدر من القوة.

ويبقى بعد ذلك الشيء الكثير الذي ينبغي القيام به في المساعي الرامية إلى دراسة عمليات التبادل الثقافي، والوصول إلى فهم أعمق للطريقة التي تبني بها مختلف الثقافات صورها عن الكتاب والنصوص. إن نظرية الثقافة الواسعة وأنساق النسيج النصي يمكن أن تكون نافعة ها هنا، وإنه لأمر ذو مغزى أن يتعين على حقل من أحدث حقول البحث ارتباطا بالدراسات المتعلقة بالترجمة، أن يستمد عناصره من شعب علمية مختلفة، تنطلق من

اللسانيات إلى الأنثروبولوجيا، وذلك لأنه يستقصي نفس المسائل. وأنا أحيل، بطبيعة الحال، إلى دراسة موضوع أدب الرحلات.

ذلك أن أدب الرحلات مثل الترجمة حسبما يشير إليه عدد متزايد من الباحثين، يفتح أمام القراء باب الدخول إلى صيغة لثقافة أخرى، أي بنية لهذه الثقافة الأخرى. كاتب أدب الرحلات ينشيء صيغة لثقافة أخرى، منتجا بذلك ما يمكن أن يوصف بشكل من أشكال الترجمة، محولا ما هو مجهول وغريب إلى مصطلحات يمكن أن يتمثلها القراء ويفهموها حين عودتهم إلى ديارهم. والنموذج المسيطر هو نموذج الترويض، ذلك الذي يجعل من شيء غير عادي أمرا يمكن الإستحواذ عليه، عبر مجموعة من الاستراتيجيات التي تسمح للقارىء بالإرتحال تحت عناية ما قد صار عاديا. كاتب الرحلات يعمل في فضاء غير متجانس، فضاء قائم بين الثقافات، على غرار ما يقوم به المترجم حين يعمل من جانبه في مجال ما بين اللغات، أي، فضاء عدائي شديد الخطورة، كثيرا ما يوصف بأنه (أرض غير مأهولة).

يذكرنا ميشال كرونين في كتابه الرائع الذي يستقصي فيه أدب الرحلات والترجمة بأن المترجمين والرحالة يخوضون معا حوارا مع اللغات ومع الثقافات الأخرى. وهو يستخدم مصطلحات الترحل من مكان لآخر، لمناقشة أشكال التشابه بين الرحالة والمترجم، ذينك اللذين يصيران الشيء الآخر شكلا مقبولا للاستهلاك من قبل القراء في اللغة المتلقية. إذ أن كلا من المترجم والترجمان حين يتحركان بين مختلف فروع المعرفة، أي، بين اللغة الموحية للثقافة العامة واللغات الفرعية المستغلقة على الأفهام التي يستخدمها أهل الاختصاص، يعتبران ممارسين فعليين بالمعنى الموسوعي لثقافة الرحلات، لثقافة ثالثة لا تضم الأقطاب الكلاسيكية للإنسانيات والعلوم فحسب، بل، وعددا من المجالات الأخرى في البحث الإنساني. وفي زمن تميز بانسداد فكري، فإن هذا الثالث، سواء أكان مترجما أم مترجمة، كاتب رحلات أم كاتبة رحلات، يعد ذا قيمة، كالبدوي الدائم الترحال الذي يأتينا بالأخبار من جهات أخرى. (كرونين، 2000: 150).

إن كاتب الرحلات والمترجم عنصران كبيران في تشكيل النظرة التي تلقيها ثقافة ما على ثقافة أخرى، وكان من المفيد لو أنه تم القيام ببعض البحث في هذا الشأن، من أجل

تأريخ العلاقة بين الرحلة والترجمة. وكون هذا البحث قد انطلق وازدهر هو دليل على أن المنحنى الثقافي في الترجمة قد فتح إمكانيات أكبر. وإننا نود أن نرى الأنثروبولوجيا وقد أولت عناية أكبر لإشكاليات الترجمة، كما أننا نود أن نرى مناهج إثنوغرافية وأنثروبولوجية تستخدم في دراسة الترجمة.

لقد انتقل كرونين بأبحاثه إلى النظر في الترجمة، والعولمة، وهناك مجالات أخرى ستكون تابعة لهما.

ما تزال أصوات منشقة ترتفع بصورة ظرفية زاعمة أن الترجمة، تدور حول اللغة أساسا، وليس حول الثقافة، وأن مهمة الدراسات التي تتناول الترجمة ينبغي أن تسلط الضوء على جوانب اللسانيات في عملية الترجمة. وردا على مثل هذه الأصوات، أحب أن أجيب بأن الباحثين في شؤون الترجمة ينبغي عليهم بطبيعة الحال أن يسلطوا الضوء على اللغة، ذلك لأن الترجمة هي نقل نص من لغة إلى أخرى قبل كل شيء.

لكن فصل اللغة عن الثقافة هو أشبه ما يكون بالنقاش القديم حول من جاء أولا: الدجاجة أم البيضة؟ اللغة مندرجة في الثقافة، والأنشطة اللسانية تتخذ مكانا في سياق محدد، والنصوص تنشأ في نطاق الإستمرارية وليس من فراغ. والكاتب هو نتاج زمن معين وسياق خاص. ومدار الترجمة هو اللغة، غير أن الترجمة تدور في نفس الوقت حول الثقافة أيضا، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر.

إن الترجمة مندرجة ضمنيا في مساعي التحويل الثقافي والتغيير، مثلما أشار إلى ذلك كل من (تيموكزكو وجنتزلر) (2000) في المقدمة التي وضعاها لمجموعة من الأبحاث حول الترجمة وعلاقات القوة.

إن المنحنى الثقافي في الدراسات المتعلقة بالترجمة يعكس المنحنى الثقافي في الفروع المعرفية الأخرى، وتلك نتيجة حتمية، تتولد عن الحاجة إلى وعي أكبر في التفاعل الثقافي في عالم اليوم. ونحن نرحب بها أيما ترحيب، ذلك لأنها تعرض علينا أفضل الفرص لكي نفهم التعقيدات الناجمة عن نقل النصوص فهما أعمق، وما يحدث للنصوص عندما تتحرك في سياقات جديدة، والنماذج المتغيرة على وجه السرعة في نطاق التفاعل الثقافي في العالم الذي نعيش فيه.

المصطلح الفكري والأدبي

ترجمة: أزراج عمر

1. النقد النسوي:

حركة فنية وسياسية بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي أوروبا الغربية في الستينيات من القرن العشرين وما تزال تتواصل حتى الآن. ويلاحظ أن هذه الحركة أكثر نشاطا في الغرب منها في الشرق. ففي البداية كانت حركة النقد النسوي مقتصرة على الفنون الجميلة والآداب، ولكنها امتدت – في الستينيات من القرن العشرين – إلى حقول أخرى مثل السينما، والموسيقى، والمسرح، وإن كان التقدم في هذه الحقول ما يزال بطيئا إذا ما قورن على سبيل المثال بوتيرة التقدم الذي أحرز في الفنون الأخرى. لقد انطلق النقد النسوي من الإحساس بأن النساء المبدعات مهمشات من قبل التقليد النقدي الذي يهيمن عليه الرجال.

كما انطلق النقد النسوي أيضا من فرضية أن تجارب النساء في الوقت الحاضر لا ينبغي أن تحجب، بل ينبغي أن تبرز، وأن يعترف بها باعتبارها تجارب ذات أهمية تعادل الأهمية المعطاة لتجارب الرجال. وللقيام بذلك هناك ثلاثة سبل أساسية وهي:

أ- إعادة اكتشاف الأعمال الأدبية (الإبداعية) المنجزة في الماضي من طرف النساء وإحيائها ونشرها.

ب- رعاية الأعمال الجديدة.

ت-البحث عن النوع الخاص في الأعمال الأدبية، أوالفنية، وفي العمليات الفكرية، وفي الأساليب ذاتها، حيث المقاربة الثانية والثالثة الأكثر أهمية.

2. مدرسة فرانكفورت:

أطلق اسم مدرسة فرانكفورت على مجموعة من المنظرين الماركسيين الاجتماعيين الذين هربوا بعيدا عن نظام هتلر، للعمل في المجال الأكاديمي بأمريكا، ومن ثم عادوا إلى فرانكفورت (ألمانيا) في عام 1949 م. هذا وقد عرف أفراد هذه المدرسة بالمنظرين النقديين. تتضمن المجموعة كلا من الوجوه مثل هربرت ماركيوز، وثيودور أدورنو، وماكس هوركهيمر وغيرهم. تأثر هؤلاء المفكرون بالفلسفة الهيجيلية، وبالسياسات الماركسية، وبالتحليل الاقتصادي الماركسي.

ويلاحظ أن هؤلاء قد وظفوا بعض أفكار سجموند فرويد في أعمالهم الفكرية. رغم أن هناك اختلافات معتبرة بين أفراد مدرسة فرانكفورت، و لكنهم يتميزون بموقف موحد تجاه خوفهم من الفاشية و كراهيتهم لها. كما أنهم يشتركون إلى حد ما في يأسهم الثقافي، ذلك اليأس الذي يعود إلى تجاربهم خلال فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية. تكمن أهمية مدرسة فرانكفورت بالنسبة لطلبة وسائل الإعلام الجماهيرية والثقافة الشعبية في علاقاتهم بتطور الثقافة الشعبية الاستهلاكية وتركيزهم عليها.

من الناحية الفكرية فإن أفراد مدرسة فرانكفورت، جمعهم أيضا رابط آخر، ألا وهو ضرورة توفير نظرية نقدية للماركسية. وفي الوقت الحاضر يعد المفكر الألماني يورغن هابرماس الوجه المعاصر لهذه المدرسة، حيث أنه بذل جهودا معتبرة لدراسة شروط العقلانية وعلاقتها بالبنية الاجتماعية.

3. العدالة الشعرية:

وفقا للباحثين م.ش.أبرامز، وكارل بيكسن، وارثر غانز فإن مصطلح "العدالة الشعرية" هو من سك ووضع الناقد الانكليزي طوماس رايمر الذي عاش في القرن السابع عشر.

ففي كتابه "تراجيديات العصر الأخير" تحدث رايمر عن ضرورة قيام الكاتب بتوزيع المكافآت و العقوبات على الشخصيات في نهاية العمل الأدبي، وذلك لجعل الوظيفة الأخلاقية للأدب أساسية.

يلح نقاد كثيرون على أن هذا التوزيع للمكافآت و العقوبات أمر يشجع الخيِّر ليواصل العمل الخيري، ويجعل الشرير يتوقف عن ممارسة الشر.

ففي القرن الثامن عشر دافع جون دينيس عن فكرة "العدالة الشعرية" هذه بقوله بأن الأدب الذي لا يقوم بوظيفة المحاضرة المقدسة فهو مجرد تسلية فارغة، أو ملصق فاضح.

أما في العصور الحديثة فإن استعمال العدالة الشعرية قد تقلص، وأصبح مقتصرا فقط على الميلودراما.

4. النقد الحواري:

لقد تطور النقد الحواري في الغالب من عمل الناقد الروسي الشكلاني ميخائيل باختين الذي سجلت نظرياته في الحوارية وتحليل الخطاب تأثيرا مهما على طبيعة النقد الأدبي والنقد الثقافي المعاصرين منذ ترجمة أعماله خلال الثمانينات من القرن العشرين. ففي مجلدات مثل "الخيال الحواري: أربع مقالات" – 1981 م، فإن باختين يميز بين الأعمال المنولوجية ذات الصوت الواحد، حيث أيديولوجية الثقافة المسيطرة تناقض الأصوات النصية التابعة، وبين النصوص الحوارية المتعددة الأصوات التي تسمح للأصوات العديدة أن تتبعث، وأن تنخرط في حوار مع بعضها البعض. ففي مقاله، "الخطاب في الرواية" يحاجج باختين بأن "الشكل والمضمون شيء واحد، حينما نفهم بأن الخطاب الشفوي هو ظاهرة اجتماعية – اجتماعي في مداه الكلي وفي كل واحد من عوامله، من الصوت– الصورة إلى أبعد ما يصل إليه المعنى المجرد". إن نظرية باختين في الحوارية، والكرنفال لم تؤثر فقط في اتجاه نظرية القارئ – الرد في العقود الحديثة العهد، ولكنها قد ساهمت أيضا في قدوم الدراسات الثقافية، وفي إحياء الاهتمام بتحليل الخصائص الشكلية للأعمال الأدبية.

5. البنيوية:

تحيل البنيوية إلى المنهجية النقدية التي تجد جذورها في أعمال نقاد الأدب الفرنسيين المتنوعين: اللسانيين، والأنتروبولوجيين، والفلاسفة أثناء الستينيات من القرن العشرين بما في ذلك، وعلى نحو أكثر أهمية، رولان بارط، جيرار جينت، وألجيرداس، جوليات غرايماس. إن الكثير من البنيويين قد تأثروا باكتشافات عالم اللسانيات فرديناند دي سوسير، الذي هو واضع دراسة العلامات كشكل من السيميائية بسبب اهتمامها بالشفرات المنقوشة اجتماعيا وثقافيا في العلاقات الإنسانية. ولقد كان ل"سوسير" تأثير معتبر على لسانيات القرن

العشرين، والنقد الأدبي، وخاصة فهمه للعلامة الشفوية المتكونة من عنصرين وهما الدال والمدلول.

إن دي سوسير يحاجج بأن الهدف الأساسي للسيميائية يتمثل في فهم مفهوم اللغة كنتاج ممكن للكلام. بالنسبة لسوسير فإن اللغة تحيل إلى النظام الأساسي للتمايز (الاختلاف)، والقواعد التوحيدية.

وهناك عدد من المفكرين المساهمين في بعث البنيوية بما في ذلك رومان ياكبسون، الذي فهم الأعمال الأدبية كنتاج لسلسلة من البنيات اللسانية، وتزفتات تودوروف الذي يبقى عمله مؤثرا بشكل واسع، وكذلك عالم الأنتروبولوجيا كلود ليفي ستراوس، المسؤول عن انتشار البنيوية كمفهوم نظري.

6. الظاهراتية والنقد الأدبي:

لقد أسست الظاهراتية (الفينومنولوجيا) كمنظور وكطريقة من طرف المفكر الألماني ادموند هوسرل (1859 – 1938). بدأ هوسرل نشاطه لتحليل الوعي الإنساني، أي لوصف العالم المعيش الملموس كما هو مجرب، وعلى نحو مستقل عن الافتراضات القبلية، سواء جاءت من الفلسفة، أم من آراء الناس العاديين. يقترح هوسرل بأن الوعي هو فعل قصدي موحد. هو لا يعني بالقصدي بأنه فعل مقصود عن عمد، ولكنه يعني أن الوعي موجه دائما نحو موضوع (شيء ما). و بعبارة أخرى، إنه لكي تكون واعيا فذلك يعني أن تكون واعيا بشيء ما. يتمثل زعم هوسرل أنه في داخل هذا الفعل المركزي للوعي، يكون الإنسان المفكر، والموضوع الذي يقصده، أو يعيه متبادلي الانشباك. ولكي يتحرر التحليل الظاهراتي من جميع المفاهيم القبلية فإن تحليله للوعي ينطلق من الشك في كل الفرضيات المسبقة والمتعلقة بطبيعة التجربة، ويستدعي هذا الشك وضع قضية "موضوع الوعي" بين قوسين، والتحري فيما إذا كان موضوع الوعي حقيقيا، أي فيما إذا كان موجودا أم لا خارج الوعي الذي يقصده. كان للظاهراتية تأثير فلسفي واسع النطاق، وذلك منذ أن أسسها "هوسرل" في عام 1955، وطورت فيما بعد على نحو متنوع من قبل مارتن هيدغر بألمانيا، وموريس ميرلو بونتي بفرنسا. هذا وقد أثرت بشكل كبير على لهانس جورج غدامر، وعلى منظرين آخرين اهتموا بتحليل نشاط الوعي، وبفهم اللغة، كما أثرت بصورة مباشرة أو غير مباشرة

على الطريقة التي يحلل بواسطتها كثير من النقاد التجربة الأدبية. ففي الثلاثينات من القرن العشرين تبنى المنظر البولوني رومان انغاردن 1893 – 1970، والذي كتب كتبه باللغة البولونية، وباللغة الألمانية معا وجهة نظر عامة للظاهراتية، ومفاهيمها، وذلك في عمله النظري الخاص بكيفية فهم العمل الأدبي، والاستجابة له. ففي تحليل "انغاردن" فإن العمل الأدبي أو الفني ينشأ من الأفعال القصدية لوعي مؤلفها، (والقصدية بالمعنى الظاهراتي تعني أن الأفعال موجهة نحو الموضوع «الشيء»، وأن هذه الأفعال القصدية كما هي مسجلة في النص تمكن القارئ من إعادة معايشة تجربة العمل الأدبي في وعيه هو). فالنص المسجل (المكتوب) يتضمن عدة عناصر، والتي هي إمكانيات مما هي أمور محققة، وتتضمن أيضا كثيرا من "أمكنة غير محددة نهائيا". فالقراءة الفاعلة حسب "انغاردن" تستجيب لتعاقب الكلمات المطبوعة بواسطة عملية الوعي المؤقتة التي تملأ تلك الجوانب الممكنة وغير المحددة نهائيا للنص. وبالقيام بهذا، وذلك وفقا لتعبير "انغاردن" فإن هذه القراءة تجعل تخطيطية العمل الأدبي ملموسة، وأن مثل هذه القراءة حسبما يقال تتعاون إبداعيا مع العمليات الواعية التي سجلها المؤلف، وستؤدي إلى تحقيق انجاز – الموضوع الجمالي – بداخل وعي القارئ الذي لا يعكس الحقيقة الكائنة في النص بشكل مستقل. وعوضا عن ذلك فإن وعي القارئ سيشكل شبه الحقيقة، أي العالم الخيالي.

في الغالب يستخدم مصطلح النقد الظاهراتي بشكل خاص لوصف نظرية وممارسة نقاد مدرسة جنيف، أولئك الذين درس أغلبهم بجامعة جنيف، وجمعتهم الصداقة، والتأثير المتبادل فيما بينهم، فضلا عن مقاربتهم للأدب. يعتبر نقاد مدرسة جنيف العمل الأدبي عالما خياليا يبدع من طرف مؤلفه، ويجسد نمط وعي المؤلف الفريد بشكل كامل. ففي مقاربتهم للأدب كعمل ذاتي منذ البداية، فإن نقدهم مثل معارضة للمقاربة الموضوعية للشكلانية في تنوعها الأوروبي، والنقد الأمريكي الجديد. تعود جذور نقد جماعة جنيف – وذلك من خلال القرن التاسع عشر – إلى نمط النقد التعبيري الرومانتيكي، الذي اعتبر العمل الأدبي كبوح لشخصية مؤلفه، والذي يعتبر بأن إدراك هذه الشخصية هو الهدف، والقيمة الرئيسيين لقراءة الأدب. فالناقد الألماني – جولمان غوتفرد هردر – كتب مثلا في أوائل عام 1778 ما يلي:

"هذه القراءة الحية، وهذا الغوص في روح المؤلف هما معا الشكل الوحيد للقراءة، والأسلوب الأكثر عمقا للتطور الذاتي".

ومع مرور الزمن تمثل واستوعب نقاد مدرسة جنيف عددا من مفاهيم، وطرائق "هوسرل"، و"هيدغر"، وغيرها من الظاهراتيين الآخرين. ففي رأي نقاد مدرسة جنيف، فإن "الكوجيتو"، أو بنيات الوعي المميزة للمؤلف تتخلل العمل الأدبي، وتبرز نفسها كمعادل ذاتي لمضامينه، أي للموضوعات، والأشياء، والشخصيات، والتخيلات، والأسلوب، التي يسقط عليها نمط وعي المؤلف الشخصي، وعاطفته بشكل خيالي. إنه بواسطة وضعهم بين قوسين لجميع انشغالاتهم الشخصية، وخصوصياتهم، فإن قراء العمل الأدبي يجعلون أنفسهم مستقبلين بصفاء وسلبية، وبالنتيجة فإنهم سيقدرون على تحقيق المشاركة – أو حتى الهوية – مع الوعي الباطني لمؤلف العمل الأدبي. إن شروعهم في قراءة العمل الأدبي من أجل معايشة نمط تجربة وعي مؤلفه، وإعادة إسقاط هذا الوعي فيما بعد على كتاباتهم النقدية يشكلان أساس الانتساب المتكرر لمصطلح "نقاد الوعي" لمدرسة جنيف، ويوضح الوصف الذي يطلق على هدفهم النقدي ألا وهو وعي الآخر مثلما صكه جورج بوليت في مؤلفه المدعو: "فينومولوجيا القراءة – 1969 ": [عندما أقرأ كما ينبغي، وبكل التعهد الكلي المطلوب من القارئ، عندئذ، فإنني أفكر فكر الآخر، ولكنني أفكر فكر الآخر وكأنه فكري الخاص بي ... ويسلك وعيي سلوكا وكأنه وعي الآخر]. انه ينبغي تسجيل ملاحظة: انه بينما كان يهدف الفيلسوف هورسل أن يصف معالم و قسمات الوعي الأساسية المشتركة بين جميع البشر، ولكن نقاد مدرسة جنيف لهم هدف مختلف إلى حد ما، ويتلخص هدفهم في تحديد الوعي الاستثنائي الفريد لكل مؤلف كشخص، والتماهي معه أيضا.

ففي هذا الإطار نجد نقاد مدرسة جنيف يختلفون، إلى حد أنهم ينكبون على بعض العناصر الخاصة في المضامين، والبنية الشكلية والأسلوب، الخاصة بنص ما، وذلك في طريقهم نحو عزل نمط الوعي الداخلي لمؤلفه. فالنزعة الجلية عند أغلب هؤلاء النقاد تتمثل في وضع المقاطع المتفرقة معا في عمل مفرد واحد، على أساس – كما يقول ج.هيليس ميلر في كتابه "شارل ديكنز" أن هذه المقاطع تكشف عن استمرار ومثابرة بعض المشكلات، والمواقف، والهواجس "يمكن للنقاد عن طريق تحليلها أن يسلطوا الضوء على

الوحدة الأصلية للعقل المبدع". وأكثر من ذلك فان نقاد الوعي يعاملون في الأغلب العمل الأدبي الواحد ليس ككيان مفرد، ولكن كجزء من هيكل جماعي لكتابات المؤلف، وذلك من أجل تحديد ما يثابر ويستمر خلال التعدديات المحتشدة في العمل الروائي، كوجهة نظر العالم الفريدة، والشيء نفسه كما قال ذلك هيليس ميلر عن ديكنز.

ولقد شرع جورج بوليت أيضا – وذلك في عدد من كتبه – في سرد تاريخ المعالجات الخيالية المتنوعة لموضوع الزمن عبر مسار الأدب الغربي، معتبرا هذه المعالجات كمعادل للأنماط المختلفة للتجربة المعيشة. ففي هذه التواريخ انطلق جورج بوليت في تحديد " لكل مرحلة وعيا مشتركا لكل الذهنيات المعاصرة"، ويزعم بأنه بداخل هذا الوعي – المرحلة المشترك يظهر وعي كل أديب على حدة فرادته. وقد بلغ تأثير نقد الوعي ذروته في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن، ومن ثم ترك المجال لأنماط النقد المعارض بوضوح، مثل البنيوية، والتفكيك، ورغم ذلك فان الكثير من مفاهيمه وإجراءاته ما تزال حية في الأشكال الراهنة للنقد، الذي يرتكز على مقولات استجابة القارئ وجمالية الاستقبال.

7. مغالطة القصد:

يعني مصطلح «مغالطة القصد» ما يزعم أن يكون خطأ بتأويل وتقييم للعمل الأدبي، بواسطة الرجوع إلى حجة خارج النص نفسه، ومن أجل مقصد – تصميم وغايات – مؤلفه.

وقد تم اقتراح هذا المصطلح من طرف كل من و.ك.فيمست، ومونرو بيردسلي، في نص "مغالطة القصد – 1946"، المنشور في مؤلف فيمست الذي يحمل عنوان: "الأيقونة الشفوية" عام 1964. ولقد أكد كل من فيمست، وبيردسلي بأن الغايات والمعاني المقصودة من طرف الكاتب في العمل الأدبي – سواء تم التأكيد عليها من قبل الكاتب، أم أنها استخلصت من معرفتنا بحياة و أراء الكاتب – ليست ملائمة للناقد الأدبي، لأن دلالة، و بنية، وقيمة النص متأصلة في العمل الأدبي المنجز نفسه. فالرجوع إلى غايات المؤلف المفترضة، أو الوضعية الشخصية للمؤلف، ولحالته النفسية عند كتابته للنص، ينظر كذلك إلى كل ذلك كخطأ ضار، بسبب أن ذلك يحرف انتباهنا، ويحوله إلى مسائل "خارجية" مثل السيرة الذاتية للمؤلف، أو الشرط النفسي، أو العملية الإبداعية التي نضعها في محل الانشغال النقدي الصحيح بالتشكيل الداخلي، والقيمة الملازمة للإنتاج الأدبي. إن هذا الزعم الذي كان مركزيا

في مدرسة "النقد الجديد" قد تمت مناقشته بعنف، كما قد أعيد النظر فيه من قبل مقترحيه ومؤيديه.

8. مفهوم القرابة:

يشير مفهوم "القرابة" في الأنتروبولوجيا إلى نظام العلاقات الاجتماعية. وتمثل "القرابة" حجر الزاوية لجميع المجتمعات المنبثقة من علاقات السلالة، والزواج. وتختلف أسس القرابة (السلوكات، والواجبات، والتنظيم) على نحو كبير من مجتمع إلى آخر. وتشكل دراسة هذه الاختلافات جزءًا من الفرع المعرفي المدعو بالأنتروبولوجيا، ذلك الفرع الذي برز إلى الوجود في القرن التاسع عشر.

يعد لويس هنري مورغان، أول من قدم سردية منهجية للقرابة، وذلك في عام 1871 م. لقد أخذ مورغان بعين الاعتبار صيغ القرابة في المجتمعات المتنوعة، وحاول أن يربط اختلافاتها بأنماط التنظيمات الاجتماعية. كما اهتم مورغان بشكل خاص بالإجابة عن هذا السؤال: لماذا استعمل بعض السكان الأمريكيين الأصليين مصطلحات مثل الأب، والأم، لتشمل أشخاصا ليسوا بآبائهم، وأمهاتهم من الناحية البيولوجية؟ كانت خلاصة استنتاج مورغان أن نظام القرابة عند هؤلاء لم يميز بين العلاقات المنحدرة من السلالة، وبين العلاقات الناشئة عن الزواج، حيث أنه بسبب ذلك عومل الأخ، وكذلك الأخت والأبناء مثل الأب، والأم تماما.

ولقد أدت دراسات مورغان الاصطلاحية حول القرابة إلى تأويلات وانتقادات. وفي عام 1913م نقل برونيسلاف مالينسكي بؤرة الاهتمام بعيدا عما وصفه ب"جبر القرابة"، إلى مركز معرفي آخر، وهو دور القرابة في المجتمع الموحد.

وهكذا تم اعتبار العائلة كتنظيم أولي حقق حاجيات الفرد، وبمثابة الحجر الأساسي لفاعليات المجتمع. وفي عام 1949م، اعتبر عالم الأنتروبولوجيا الفرنسي كلود ليفي ستروس وضعيات أنظمة ومصطلحات القرابة، ناظرا إليها من زاوية أخرى، وليس على أساس الوظيفة التي تقوم بها في المجتمع، بل طبقا لإمكانية تأويلها لإضاءة بنيات العقل. وبهذا الخصوص فقد طبق ليفي ستروس النظريات اللسانية على أنظمة القرابة، موسعا الفرضيات المبكرة والخاصة بوحدة القرابة الأولية المتكونة من الزوج، والزوجة، والأبناء، لتشمل أخ

الزوجة. وعلى أساس ذلك؛ فإن الإخوة الذين تزوجت أخواتهم خارج أنظمة القرابة قد اعتبروا أيضا كجزء من القرابة الأولية الذرية. وهكذا تمت مقارنة انتقال النساء عن طريق الزواج بالكلمات المتبادلة. ونتيجة لذلك اعتبر الزواج معلما أوليا لتضامن القرابة، بدلا من اعتباره كعلاقة محددة على أساس السلالة الدموية. وبعدئذ، انطلق حوار حاد و لمدة طويلة من الزمن بين المدافعين عن النظريات المستلهمة لمحاجة السلالة كمعلم أولي لأنظمة القرابة، وبين أولئك الذين ينطلقون من النظريات المتحدة التي تفضل الزواج كعامل مهم جدا لتأسيس التضامن في المجتمع.

هنالك منظور آخر متعلق بعلاقات القرابة، وهو المنظور الذي انشغل بالعلاقات القائمة على الأمريات والواجبات الأخلاقية. ففي دراسة عن أهالي "طولنسي" بدولة غانا، تمكن الباحث "ماير فرتيس" من إبراز عامل العلاقة الأخلاقية للقرابة. إن أغلب الناس يكبرون ضمن العائلات، ولذلك فهم يفهمون علاقات القرابة كمبدأ أولي منظم لعالمهم فإننا نرى، مثلا، التشابهات عند العائلة، والعلاقات بين النباتات، والحيوانات. إنه يمكن توسيع القرابة إلى علاقات اجتماعية أخرى، كما هو واضح في مسألة التبني، والأخوة الدينية، وفي استعمال كلمات مثل الأخ، والأخت، لوصف أعضاء في حركات سياسية مؤسسة، أو مرتكزة على خلفيات، وأهداف مشتركة.

ولقد لاحظ بعض المنظرين الاجتماعيين بأن المصلحة السياسية والاقتصادية الخاصة للأفراد مرتبطة ببعضها البعض بواسطة القرابة. إنه من هذا المنظور يمكن النظر إلى الجوانب الأخلاقية في علاقات القرابة. هنالك منظرون آخرون يأخذون بعين الاعتبار المناخ الاقتصادي، والسياسي الذي يشكل طبيعة العائلة.

9. اللاوعي الجماعي:

اللاوعي الجماعي مصطلح من تأسيس عالم التحليل النفسي كارل غوستاف يونغ، للإشارة إلى الرموز الجماعية الكثيرة، وهي دينية أساسا، وتتميز بأنها جماعية، وليست فردية من حيث الجوهر. هذه الرموز الجماعية طبيعية، ومنتوجات تلقائية، ولا يمكن أن تصنع من طرف الشخص المفرد. فالشخص المتدين ينظر إليها على أنها ممكنة، أي أنه يمكن الوصول إليها من طرف الناس المؤمنين بالله. أما الشخص غير المتدين فإنه يمكن أن

يظن بأنها قد ابتدعت، ولكن من المستحيل أن تبتدع من طرف أي شخص. ولقد اعتقد يونغ بأن هذه الرموز هي تمثيلات جماعية تنبعث من الهوامات الإبداعية، ومن الأحلام التي وجدت في العصر الأول لعالم البشر، أي الأحلام البدائية. هذا وقد اعتبر يونغ الأحلام كمكان يتشبث بها اللاوعي الجماعي. ولقد أول يونغ أحلام المرضى الذين عالجهم كرموز، بدلا من اعتبارها عناصر تخفي المعنى العاطفي المفهوم.

10. التمركز الإثني:

نبع مصطلح التمركز الإثني من المصدر الإغريقي، وهو مشتق من كلمة "إثنوص" Ethnos ، التي تعني الوطن، أو القومية، أو العرق. فالتمركز الإثني يدل على نزعة انغلاقية، تعتبر نفسها أسمى من سائر الأعراق، أو القوميات الأخرى.

يعد عالم الاجتماع "وليم سمنر" أول من قدم مصطلح التمركز الإثني، وذلك في عام 1906م، لوصف نزعة ترى ثقافة معينة متفوقة على الثقافات الأخرى، وتقيس المجتمعات الأخرى أيضا بمعيار تلك الثقافة التي تكتسي أهمية في مجتمع من المجتمعات.

وعلاوة على ما تقدم، فإن الدراسات الأنتروبولوجية المبكرة مملوءة – عن وعي أو دون وعي – بالأحكام المتركزة إثنيا حول الوحشية، مثل أكل لحم البشر، وحول العنف، وتقديم القرابين. أما الأنتروبولوجيون المعاصرون، فإنهم يوظفون وعيهم لمشكلات التمركز الإثني من أجل تجنب إصدار أحكام قيمية، بخصوص الأنظمة التي أسستها مجتمعات أخرى، لمواجهة المشكلات التي تعاني منها.

11. تداعي الأفكار والتحليل النفسي:

إن التحليل النفسي شكل من أشكال العلاج الذي أسسه سجموند فرويد في القرن التاسع عشر، وتطور على يديه، وعلى أيدي أتباعه مثل كارل يونغ، وأدلر. ومن المفاهيم الأساسية للتحليل النفسي: اللاوعي، وتداعي الأفكار، والمقاومة، والآليات الدفاعية، والتحويل، والتأويل. إن وجود اللاوعي كفكرة، أو كنشاط ذهني لا يعيه الفرد ليس بأمر جديد، إذ نجد الشعراء والأدباء بشكل خاص قد أشاروا إلى القوى الخفية التي تحرك الفعل البشري. ولكن فرويد هو أول شخص تمكن من تشكيل نظام نفسي، وطريقة للعلاج النفسي. إن تكنيك تداعي الأفكار بالنسبة لفرويد و لأتباعه يحتل مركزا أساسيا في عمليات العلاج النفسي. إن تداعي

الأفكار يؤدي بالمريض إلى إبراز مضمون لاوعيه، وبدون ممارسة الرقابة عليه. ويعتقد المحللون النفسيون الفرويديون أن تكنيك تداعي الأفكار يكسر المقاومة التي يمارسها المريض نفسيا. وهنا يصبح "النص" الذي يخرجه المريض بواسطة سلاسل من عمليات تداعي الأفكار مجالا للتأويل، وفضاء من خلاله تتم معاينة الرضات النفسية التي شكلت ظاهرة المرض النفسي.

12. بنية الشعور:

لقد ابتكر مصطلح "بنية المشاعر" الناقد والمفكر البريطاني ريموند وليامز، كمفهوم للتوسط بين الفن، والثقافة، وللإشارة إلى الجماعة العميقة التي تجعل من الاتصال ممكنا. إن "بنية المشاعر" ليست خاصية كونية، أو طبقية، وإنما هي ملكية (حيازة) عميقة، وواسعة. فالمصطلح يعني بأنه يشمل كلا من الجوانب الخاصة من عملية التجربة الفنية.

المصادر والملاحظات

*أ

1- قاموس فونتانا للفكر الحديث (بالانكليزية) – دار فونتانا للنشر– لنـــدن– تحريـــر: ألن بولوك و ألفرد ستالبراس.

2- أفكار مفتاحية في الفكر الانساني بالانكليزية – دار بلومسبرس للنشر – لنـــدن – تحرير: كينيث مكليش.

3- قاموس المصطلحات الأدبية بالانكليزية، تأليف كـــارل بيكســـن، و أرثـــر غـــانز – منشورات أندريه دوتش – بريطانيا.

4- شرح المصطلحات الأدبية – تأليف: م.ش. أبرمز – منشورات معهـــد هـــاركون برابيس – أمريكا.

5- مفاهيم أساسية في نظرية الأدب بالانكليزية – تأليف: جوليان ولفريـــزي، وروث روبنز، وكينيث ووهاك – منشورات جامعة ادنبره، بريطانيا.

6- لجأت في عملية الترجمة أحيانا إلى التصرف دون الإخـــلال بـــالمعنى الأساســـي للنص.

*ب

1- هذان النصان مترجمان بتصرف، حيث تجنبت بعض التكرار، أو الشروح الزائدة، أو الإحالات المرجعية التي لا أرى ضرورة ولا أهمية لها.

2- المرجع باللغة الانكليزية:

A Glossary of Literary terms by M.H.Abrahams

*ج

1- الأفكار المفتاحية في الفكر الإنساني – قاموس من تحرير كنيث ماكليش –

منشورات بلوميسيري – بريطانيا، 1994 م.

2- قاموس مفاهيم مفتاحية في نظرية الأدب – جوليان وولفري، وروث روبنز، وكنيث ووماك – منشورات جامعة إدنبره، بريطانيا، 2002 م.

3- قد التزمت الترجمة بالتصرف، ووضعت جانبا الاستطرادات الواردة في النص الأصلي نظرا لعدم فائدتها بسبب التكرار.

هل اللسانيات ضرورية في الترجمة؟

لـــ: كريستوف هورشمان
ترجمة: إيمان بقطاش

ما زالت البحوث جارية على قدم وساق في مجال العلاقات التي يمكن أن تقوم بين العلوم اللسانية والترجمة، ولا شك في أنها ستظل بؤرة اهتمام الباحثين في هذا الشأن، بحكم أن الترجمة هي الإنسان في المقام الأول، ومن ثم، فإنه محكوم عليها بأن تغير مواقعها في كل وقت، تماما مثلما يغير الإنسان موقعه في هذه الحياة.

وقد ارتأينا أن نجتزئ الفصل التالي من بحث مطول قام به الباحث الألماني، كريستوف هورشمان، إيمانا منا بأن علوم اللسانيات والترجمة ما زالت في طور النشوء إن صح التعبير، وإيمانا منا أيضا بأن اللغة الألمانية واللغات الإسكندينافية الشمالية لها ما تقوله في هذا الموضوع.

إن القول بأن الترجمة عملية غير ممكنة دون توظيف علم اللسانيات مسألة ما عادت الحاجة تدعو إليها، كما أن ضرورة وجود هذا العلم بالذات ضمن لغات متعددة قد تكون هي الأخرى أمرا بديهيا. فقد استطاعت اللسانيات القيام بوصف مجال واسع من الظواهر، سواء أتعلق الأمر بتكوين المترجمين (الذين يكتسبون في العادة معارف لغوية واسعة خلال مرحلة التكوين، أيا ما كان مستوى إتقانهم للغات الأجنبية)، أم بالتعدد اللغوي في جميع أشكاله، سواء أكانت هذه الأشكال منسقة أم مندمجة فيما بينها أم مركبة أم متتابعة.

والقول بأن القدرة على الترجمة تتجاوز متطلبات إتقان لغة من اللغات الأجنبية أصبح أمرا بديهيا، لكن هذا الرأي لم يشع بعد في أوساط الذين يتعاطون الترجمة. يروي الباحث ويلس النادرة التالية :

" هل من الصحيح أن هناك تعليمة صدرت من موظف في وزارة (بون) إلى مترجم تقول: "انقل هذا النص من الألمانية إلى اللغة الفرنسية على وجه السرعة! ؟"

فقد جرى النظر في هذه المسألة على مدار السنين من جميع جوانبها. ولطالما ساد الرأي بأن الترجمة عملية يمكن الاضطلاع بها بمساعدة اللسانيات إلى حد كبير. ويرى الباحث كاتفورد أن الترجمة عملية يتم إنجازها داخل اللغات، أي إنها طريقة يجري فيها " استبدال " نص من لغة ما داخل نص في لغة أخرى. وعليه، فإنه من الواضح أن كل نظرية من نظريات الترجمة يجب أن تستمد عناصرها من نظرية اللغة، أي من نظرية اللسانيات العامة.

ينبغي النظر في التعبيرين التاليين: " استبدال " و" قائمة على ".

ترى الباحثة (سنيل هورنبي) أنه من المؤسف أن يكون علم الترجمة قد اعتبر لمدة طويلة فرعا من فروع اللسانيات التطبيقية، مما دعا إلى التركيز على البحث في المأثور اللغوي، ولذلك فهي توصي بجعل هذا العلم شعبة مستقلة قائمة بذاتها، وتكون هذه الشعبة في الوقت نفسه متعددة الفروع والآفاق، منطلقة من الحقيقة التالية وهي أن الترجمة عملية معقدة، تتميز بتشابكات مترابطة فيما بينها. وفي السنوات الأخيرة، اعتمد علم الترجمة بشكل متزايد على حلول مأخوذة من العلوم اللسانية. وقد انعكس هذا التوجه الجديد جليا في أبحاث (فيرمير) التي تؤكد أن الترجمة عملية نقل ثقافي، وليست مجرد مسألة لسانية مطلقة. وقد رافع هذا الباحث من أجل بروز مترجم متعدد اللغات والثقافات في وقت واحد.

وعليه، تكون الترجمة عملية تواصل معقدة، بل هي ضيقة إلى أبعد الحدود، بسبب نماذجها الوصفية البسيطة التي تستخرج نفسها بنفسها. وقد استمدت على مدار السنين نماذج من علوم اللسانيات (ترجمة، لسانيات، تداولية، علم اجتماع، علم نفس لغوي، بالإضافة إلى فروع معرفية أخرى وذلك بغاية توصيفها). ويمكن أن نذكر في هذا الصدد: علم الاتصال، والتأويل، Hermeneutique وعلم النفس المعرفي، والبحث في شؤون الإبداع بصورة عامة. وذلك لأن نشاط الترجمة في أقصى أبعاده يشدد على أهمية القدرات الثقافية العلمية في تكوين المترجم، بحكم أن الخبرة تلعب دورا هاما في كل ما يتعلق بشؤون الترجمة، حتى إن الباحث

(وولفرام ويلس) يرى أن إنتاج التوازن، سواء أكان عمليا أم جماليا، هو هدف ينبغي أن تبلغه الترجمة.

يجد المترجم نفسه وجها لوجه مع عدد من العوامل التي ينبغي أن يستخلص منها نظرية مناسبة في مجال الترجمة. وهي حالة أشبه ما تكون بانطباع متذبذب، يشعر به حتما في أثناء القيام بالترجمة.

ويحدد الباحث وولفرام ويلس أبعاد هذه المشكلة تحديدا واضحا جدا في النقطة التالية:

لا يمكن إلى حد الآن القيام بإدماج علم اللغة ونظرية التواصل وعلم النفس المعرفي، بحكم أنها شعب علمية غير واضحة المعالم بما فيها الكفاية. والإنسان لا يكاد يدرك الجوانب الكثيرة من نفسه، ومن طبيعة التفكير، على الرغم من أنه لا يقوى على التحكم في أفعاله إلا بالتعرف على البنى النفسية التي تقوم عليها. ولذلك، فإن علم الترجمة سيظل في نهاية المطاف علما محدودا، بل وأكثر العلوم إشكالية، من حيث كونه يتسم بالتفاعل المستمر الذي يحدث بين العوامل الموضوعية، والذاتية، في وقت واحد.

ومرة بعد أخرى، فإن بحث النظرية المتعلقة بعلم الترجمة التي تسير مطابقة ومتزامنة مع البحث النظري في اللسانيات، إنما يتجسد في المشكلات التي تواجهها مختلف الفروع في هذا العلم، أي العوامل التي تلعب دورا هاما في عملية الترجمة، والتي يشعر معها الاختصاصيون في الترجمة ببعض الضيق، حتى إنهم لا يستطيعون قولبتها من الناحية النظرية. ولا بد في آخر المطاف من الاسترشاد بأفضل الجهود، مع مراعاة جميع العوامل ذات الصلة الوثيقة بعملية الترجمة، ووضعها موضع الصدارة، بينما يرى بعض الباحثين أنه لا ينبغي الاعتداد بهذا الرأي.

وهكذا يلح أهل الاختصاص في نظرية الترجمة ببحث النقاط ' الهامة ' المرجعية فيها على سبيل إثبات صحتها. ويقول الباحث ويلس في هذا الشأن: إن سبب هذا الضيق الذي يسيطر على بعض المترجمين يكمن بصفة جزئية في "هاجس النظرية الشبه مرضي في اللسانيات الحديثة الذي جرى إسقاطه على علم الترجمة.

ومنذ فترة، يجري الحديث عن هذا الجانب النظري في جميع التخصصات الفرعية اللسانية تقريبا، وفي الكثير من الأحيان بصورة استفزازية. وهناك محاولات للنهوض بمناهج

نظرية في هذا الشأن، من أجل فتح الباب أمام مناقشات نظرية جدلية أو حتى شبه نظرية، تكون الغاية منها اتخاذ موقف نظري شامل.لقد تجاوز البحث في الواقع اللغوي الاعتبارات النظرية، سواء في النظرية التوليدية أم في نظرية (فالنز) التي تعالج خصائص أنواع الكلمات، أم في نظرية فعل الخطاب، أم حتى في سياق نظرية العمل، التي اعتبرت –عن صحة أم عن خطإ– نظرية عاجزة.

ليست هذه بالضرورة مرافعة نهائية ضد أي نوع من أنواع نظرية اللغة، أو الترجمة، وإنما هي تطبيق للنظرية التي تأخذ بعين الاعتبار جميع العناصر، والعوامل، المشاركة في اللغة، والتي تظل طوباوية بالرغم من ذلك.

إن نظرية اللغة التي يجب أن تتوافق مع هذه المطالب كلها لا ينبغي أن تكون نظرية موسوعية تمثل الواقع والقوانين المنبثقة عنه فحسب، بل، وأن تكون نظرية واعية بالمضمون على الأخص، وبالعمليات التاريخية الأساسية أيضا، غير أن علم النفس المعرفي يبقى حيال نظرية كهذه بعيدا البعد كله تماما مثلما هو الحال بخصوص نظرية الذاكرة، ونظرية السلوك، ونظرية التعلم.

وبطبيعة الحال، يمكن أن يطبق هذا الرأي إلى هذا الحد على نظرية الترجمة، وذلك باتخاذ نظرية اللغة كقاعدة لها.

ويمثل هذا الأمر دليلا آخر من الأدلة من أجل توضيح نظرية الشك المهيمنة على علم الترجمة. والبحوث في هذا المضمار كثيرة، تتراوح بين علم الترجمة، والترجمة، والإدراك، ومهارة المترجم.

إن نتائج هذه الوضعية واضحة بالنسبة للباحثة (سنيل هورنبي): (لقد استخدمنا مصطلح علم الترجمة متجاوزين في ذلك حدود المعارف اللسانية السابقة. ونحن على وعي بأنه لن يكون علما دقيقا، ومن ثم، فإن الأمر لا يتعلق بالترجمة في حد ذاتها، بقدر ما يتعلق هنا بالعلوم الإنسانية، مثل علم اللغة، والآداب، والعلوم الاجتماعية).

وهذه المسألة جديرة بالمناقشة طبعا، خاصة من قبل الذين يقولون ب " إمكانية الترجمة"، على الرغم من أنها لا تحظى بإجماع ذوي الاختصاص.

ويعبر هذا المنظور عن الرأي التالي: يمكن توصيف عملية الترجمة بصورة جزئية عن طريق النماذج الألسنية. ويعتبر الباحث (كوبوش) أول من نظر إلى المترجم على أنه (متلق للنص ومنتج له في نفس الوقت). ومن هذه الوجهة بالذات، تأخذ المناهج "الصعبة" في اللسانيات النظرية طابعا هاما لدى القائلين بـــ"إمكانية الترجمة"، نظرا لطبيعة هذا العلم المعقدة موضوعا، وشكلا، (بنية الجملة والنحو، علم الدلالة المعجمي، التقطيع المزدوج للصرف إلخ.) ولا يتم في هذا الجانب دراسة ووصف الوحدات اللغوية وحدود الجملة فقط، بل يتم تسليط الضوء على السياق أو البعد العملي للغة بشكل متزايد، من أجل توصيف الترجمة التي يقوم بها الإنسان، بعيدا عن رتابة الترجمة التي تتم عن طريق الحاسوب.

والحقيقة هي أن التركيز في مناهج مختلف علماء الترجمة تطور بشكل متزايد في اتجاه عمليات فهم النص (من تأويل hermeneutique ومعارف أخرى)، مع تسليط الضوء على دور المترجم، باعتباره يتلقي النص وينتجه في آن واحد. وكان للبعد العملي في علم الترجمة دوره، فتراجعت المناهج اللسانية التقليدية إلى الخلف.

إن الوعي بمضامين النص هو بمثابة عملية متحركة باستمرار، لا تقتصر على فهم تلقائي، بل يمكن تصنيف مثل هذه العملية إلى فئات: الموضوع، وعلم الدلالة، والمعجمية. ومن بين النتائج المتولدة عن تغيير هذه الوجهات إدراكنا أن بعض النماذج التقليدية اللسانية، من حيث كونها تشير إلى معاني الكلمات، ليست كافية لتوصيف عملية الترجمة، وكذا العمليات الذهنية التي تتم في أثناء الترجمة. وبصرف النظر عن مسألة ما إذا كانت ميزة معاني الكلمات قوية بما فيه الكفاية، وصحيحة في الواقع اللغوي لمجتمع لغوي معين، فإن ذلك يعد حجة يتذرع بها ممثلو علم النفس اللغوي، وعلم الترجمة معا.

ليس الفهم عبارة عن توضيب جامد لنص من النصوص، بل هو عملية ذاتية– تفاعلية. إنه نتيجة عمليات معرفية تقوم على استنتاجات تتألف من استنباطات ذهنية، مثل : إثبات الهوية، التشابه، أنماط المشاكل، والعمل من أجل إيجاد حلول لها. وتربط هذه الاستنتاجات مضمون النص بالخبرة، وبمضمون المعرفة.

وينتج عن الوثيقة المرجعية بين المؤلف و القارئ ترجمة تندرج دائما في سياق نماذج مختلفة من الواقع. وقد تراكمت اللغة المشتركة لدى المؤلف والقارئ بطريقة فردية، ضمن

خبرات وتجارب مختلفة عديمة الأهمية، بالرغم من أن اللغة المشتركة ممارسة اجتماعية . والنتائج، أي الاستنباطات المستخرجة من النص– المصدر، الشاملة للمضمون، لا تكون ممكنة في معظم الأحيان مع النص– الهدف دون ترجمة.

وعليه، لا بد من أن يؤخذ بعين الاعتبار الواقع اللغوي لثقافة الهدف، ولدائرة المتلقين، وكذا نظرية الترجمة في ما تنجزه الترجمة بالذات.

فالاضطراب الذي يميز علم الترجمة بشكل دائم، قد يعود جزئيا إلى مسألة أهمية نظرية الترجمة. وثمة وسيلة ممكنة للخروج من هذه الحالة، وفقا لما قرره التيار المناصر لعلم الترجمة، وتتمثل في التخلي عن نظرية علمية مثالية ،هذا فيما يخص الجانب النظري.

لكن ذلك لا يعني أنه لا يمكن تفسير بعض المجالات الجزئية لعملية الترجمة – على المستويين الكلي والجزئي – بالاستناد إلى اللسانيات. إذ أن اللسانيات العملية تقدم مناهج عديدة تساعد على تحليل النص الوثيق الصلة بالترجمة، (نوع النص، دائرة المتلقين، الوظائف، فكرة الغرض في كل ترجمة، أي التركيز على الهدف، ووظيفة النص المترجم، مجموع النصوص ذات الصلة على سبيل المثال بالتلميح، والاقتباس، والتناص، وما فوق النص، وتركيب الجملة، والأمثلة اللغوية التي تحدد نوع النص، والمصطلحات وما إلى ذلك، وهي العناصر التي يمكن أن يرجع إليها المترجم في أثناء عمله). ويتضمن علم الدلالة المعجمي عددا من الأمثلة التي ترفع الغموض عن التعابير الغامضة عند الاستعمال مثل :

(ركلة coup de pied , بندقية fusil , قبضة poing سكين, couteau , ريح vent).

ففيما يتعلق بمسألة **إمكانية الترجمة أو عدم إمكانيتها**، يمكن الرجوع إلى الفرضية التي قال بها كل من العالمين (سابير)، و(وورف)، أي النسبية اللغوية، وذلك بصرف النظر تماما عن مقولات الفيلسوف لايبنتز، وفيسجربر، والعالم اللغوي همبولدت، وغيرهم من الفلاسفة القدماء. ولكن هذه القائمة تبدو غير مكتملة، ذلك أن إدماج جميع هذه المناهج ضمن نظرية ترجمة شاملة يبدو أمرا من الصعوبة بمكان. فبالنسبة للباحثة (سنيل هورنبي) تكمن مهمة نظرية الترجمة في الجوانب الوثيقة الصلة باللسانيات، من أجل إقرار علم ترجمة يمكن الاستفادة منه. فما هي هذه الجوانب الهامة؟

أود أن أذكر مثالين اثنين حول الأفكار التي تقوم عليها الطريقة المفيدة للترجمة المستوحاة من: **بنية الموضوع–التعقيب** (Thema-Rhema) (حسب مدرسة براغ، و**مشاهد وأطر علم الدلالة** (scenes-frame).

بنية الموضوع والتعقيب:

يرجع نموذج ترتيب التعقيب في ما يسمى بالجملة– النص إلى ممثلي مدرسة (براغ)، وهما دانيش Danesh، وبينش Benesh. وقد جرت ضمن هذا النموذج محاولة تفسير جداول التقدم الموضوعي لنص من النصوص مع عرضه بيانيا. إلا أن الجواب عن السؤال التالي: ما هي العناصر المكونة للجملة كموضوع Thema، وما هي تلك التي تكون التعقيب Rhema ؟، يؤدي مع ذلك إلى صعوبات جمة.

(هل يمكن وصف بداية الجملة ك 'موضوع' أو كمقوم لها كأدنى قيمة للتواصل؟).

يبدو أن تحديد "الموضوع والتعقيب" لا يتزامن مع بنية "الموضوع والتعليق (topic/commenct) التي لا تتوافق كذلك، حسب الباحث ليواندوسكي، مع تقسيم الفاعل والمسند إليه. وعليه، ما زال وضع بنية الموضوع والتعقيب يثيران مسائل أساسية، إذ أن تحديد الموضوع والتعقيب يتطلبان حسب رأي الباحث كوسيريو إدماج وضعية الاتصال.

ومع ذلك فإن بنية الموضوع والتعقيب تحتل مكانة متميزة في النص اللساني. ولا ترى الباحثة (سنيل هورنبي) في مقالها حول أهمية بنية الموضوع والتعقيب بالنسبة لعملية الترجمة أن مقاييس تماسك النص موجودة، تماما مثلما هو الأمر بالنسبة لما قدمه الباحثان(هاليدي وهاسان)، أو الباحثان (دريسلر وبوجراندر) بخصوص ترابط هذه البنية بالذات في مجال الترجمة، والتي ينبغي التركيز عليها بسبب أهميتها الكبيرة في هذا الشأن.

ويمكن عن طريق الموضوع والتعقيب الحصول على بنية المعلومات في نص من النصوص، والنظر إلى هذا النص على أنه (حالة ديناميكية شاملة)، كما يمكن اعتباره أداة قوية في مجال تحليل النص– المصدر.

وقد تم بحث نسختين من قصة "القبعة الحمراء " وفقا لهذا المنظور، وذلك بالاستناد إلى علامات النص التالية: النص من حيث هو بنية هرمية والتغيير في الموضوع وتكثيف

المعلومات، بغاية الوصول إلى استنتاج مفاده أن اختلاف بنية الموضوع والتعقيب في كلا النصين ذو صلة وثيقة بوظيفة النص.

وهذا يعني بالنسبة لعملية الترجمة أن الجوانب الديناميكية المختلفة في النص الأصلي ينبغي أن تبقى على حالها في النص– الهدف كترجمة ثابتة.

ولهذا أصبحت ثنائية الموضوع والتعقيب أداة واضحة للتوصيف: فمن جهة، تعتبر بنية الموضوع والتعقيب مقياس تحليل من وجهة نظر استنتاجية للمترجم، من حيث هو متلق للنص– بمعنى هيكلة للنصوص القائمة – ومن جهة أخرى، تعتبر، ضمن إطار تركيبي، وجهة نظر استقرائية للمترجم كمنتج للنص – وذلك يعني تنشيط استراتيجية للمعالجة تحدد اختيار أو ميزة وظيفة النص– الهدف، ذلك الذي يصير بين يدي المترجم عبارة عن علامات نصية، أي يتحول إلى قيم مرجعية ضمن العملية المتعلقة بالترجمة.

لكن مثل هذا الإنجاز ينطوي على بعض الجوانب السلبية، إذ يستند الباحث إلى اللغة ليعرض علينا تمثيلا ملموسا لديناميكية النص هذه، بالمقارنة ما بين الألمانية، والانجليزية، فيحدد بنية الموضوع والتعقيب أي، (بنية المعلومات) الواحدة بعد الأخرى، وبؤرة التركيز من جانب المتكلم، وهو أمر لا يحدث دائما في الآداب، وعلى العكس من ذلك تكون هذه العناصر كلها متماثلة الشكل في غالب الأحيان.

وفي هذا السياق يلعب هذا التمايز دورا هاما، سواء أتعلق الأمر بالموضوع أم بعناصر التعقيب في تعبير من التعابير، ومن دون هذا تتغير بنية المعلومات التي تنطوي عليها هذه العبارة أو تلك. وفي كثير من الأحيان يتعلق الأمر في بنية الموضوع والتعقيب وعلامة التركيز بقسمين مستقلين، لكن ضمن علاقة تفاعل.

وقد استعرضت الباحثة (سنيل هورنبي) الأنواع المختلفة في هذا الشأن، من خلال التركيز على الموضوع، والتعقيب، في وقت واحد، والتركيز عن طريق إضافة هذا العنصر أو ذاك، مع "جعل الأشياء مباشرة وغير مباشرة في بداية الجملة". وناقشت أشكال الظواهر الناتجة في الألمانية، والانجليزية، على التوالي (من مثل تخفيف اللهجة مقابل بناء شق الجملة أي الجملة المبنية على جملة رئيسية وجملة تابعة تعبران عن معنى يمكن الإعراب عنه من خلال جملة بسيطة).

وأوضحت في آخر بحثها أن هذه المعرفة الوثيقة الصلة بالظواهر المتعلقة بديناميكية المعلومات تمثل عنصرا من فسيفساء تميز قدرتها، وخلفية يمكن من خلالها التعرف على مشاكلها بغاية إيجاد حلول لها. وعليه، فإنه من مهام اللساني- المترجم- أن يضع معايير في متناول اليد، يمكن الاسترشاد بها في أثناء الترجمة.

فسيفساء متعددة المعاني:

ويبقى أن تتأكد هذه الحقيقة إذا أردنا الحفاظ على الديناميكية المتعلقة بالمعلومات الواردة في نص من النصوص بصورة عامة، وهي بأي حال من الأحوال في حاجة إلى الاستناد إلى بنية الموضوع و التعقيب.

المشاهد الدلالية وأطرها:

في سنة 1977، نشر الباحث شارل فيلمور مقالا تحت عنوان –المشاهد الدلالية وأطرها- مؤكدا أن "رؤية العصر حينذاك فيما يتعلق بالبحوث اللغوية "تدعو إلى إلقاء نظرة، تدمج بين بنية اللغة، والسلوك حيالها، وفهمها، وتغيرها، واكتسابها". وقد ركزت هذه الرؤية، حسب رأيه، على ثلاثة محاور رئيسية في الوسط العلمي:

1. -التساؤل حول وجوب أهمية التوصيف من حيث هو معيار من معايير التحكم اللغوي.
2. -عدم الاقتصار في توظيف الاهتمام المتزايد بالمصطلح مثل **الإطار** أو **الرسم البياني** في اللسانيات فقط، بل وفي علم النفس المعرفي أيضا.
3. -كيفية تفسير عملية فهم النص بطريقة مرضية .

وهو يرمي من وراء ذلك إلى بلوغ هدف كبير في سبيل أن يصير هذا المطلب أمرا صحيحا، هذا في الوقت الذي يقر بنفسه : أن منهجه هذا لا يمكن إن يمثل "محاولة أولى في البحث عن بعض المشاكل في نظرية الدلالة، ضمن إطار من المفاهيم التي تبدو بارزة في عدد من الفروع التي لا تشمل الفكر، والسلوك الإنساني فقط"، وهو بالإضافة إلى ذلك يعرض بوضوح مشكلة صياغة نموذجه هذا.

وعلى الرغم من تواضعه، فإن نموذجه هذا كثيرا ما تم الاسترشاد به في العديد من الأبحاث التي عالجت قضايا الترجمة، لا سيما وأنه أشار بطريقة طريفة إلى ما تتميز به

رؤية هذا العصر، إلى علوم الدلالة التي جاءت ما بعد البنيوية، وعليه، فإن منهجه يمثل أداة مفيدة كانت تنقص علم الترجمة كثيرا.

وانطلاقا مما قدمه الباحثون المختصون في علم الدلالة، وكذلك المختصون في علم النفس، يعرض علينا الباحث فيلمور نموذجا مكتملا من أجل فهم النصوص، وهو نموذج قائم أساسا على مصطلحات الإشهار.

يقول الباحث فيلمور: إنني أنوي استعمال كلمة (مشهد) – وهي كلمة ترضيني كثيرا– في معنى عام للغاية، لا لإدماج مشاهد مرئية فحسب، بل أنواع مألوفة، من مثل اتفاق بين شخصين، أو سيناريو معين، أو تنظيم مألوف، أو هياكل مؤسساتية، أو خبرات نشيطة، أو صورة مجسمة، أو أي نوع من الأعمال والخبرات الإنسانية، سواء أكان طويلا أم قصيرا. وأنوي أيضا استعمال كلمة (إطار) كمرجع لأي نظام من الاختيارات اللسانية، ولعل أسهل شيء في هذا الشأن؛ هو حصر مجموعة من الكلمات تتضمن اختيارات لقواعد نحوية، أو أصناف نحوية، بغاية إدماجها في النموذج الأصلي لمجموع أمثلة المشاهد.

أما فيما يتعلق بالمشاهد الممكنة التي تناولها فيلمور من بين جميع الجوانب، فإنه من البديهي أنها يمكن أن تتغير من ثقافة إلى أخرى .

ويفترض هذا الباحث أن هذه المشاهد والأطر لا تتجاوب فيما بينها فحسب، بل هي تنشط بعضها بعضا. وتظهر هذه المشاهد كنماذج أصلية للعين الداخلية، وذلك يعني أن أهمية عبارة لغوية ما، لإطار ما، تملك ما يشبه نواة بؤرية ضمن محيط غير واضح المعالم.

وبالإضافة إلى ذلك يشير فيلمور إلى أن النماذج الأصلية إنما تحددها الخبرات الفردية أساسا.

ووفقا لهذه النظرة، فإن عملية استخدام كلمة ما للتعبير عن وضعية جديدة تقتضي مقارنة التجارب الجارية بالتجارب السابقة، وتقويم ما إذا كانت متشابهة بما فيه الكفاية، لاستخدام نفس الرموز اللسانية.

أما فيما يخص عمليات فهم النص، فيستخدم الباحث فيلمور نموذجه على النحو التالي:

يشغل الجزء الأول من النص صورة أو مشهدا لبعض الوضعيات في عقل المترجم! أما الأجزاء الأخرى من النص فتمتلئ أكثر فأكثر بمعلومات عن هذه الوضعية، فتعطيها

أبعادا تاريخية، أو حافزا يدمجها في مشاهد ووضعيات أخرى، وهكذا دواليك. وبعبارة أخرى، فإن ما يحدث عندما يفهم شخص ما نصا من النصوص؛ هو أنه ينشىء عالما، وقد تتعلق ميزات هذا الفهم أو الإدراك بالخبرات الفردية الخاصة بالمترجم، وهي حقيقة ينبغي أن تمثل جزءا من الواقع، ذلك لأن الأشخاص على اختلافهم إنما يبنون تأويلات مختلفة لنفس النص.

هذه الأفكار قابلة للاستعمال بدون جهد كبير في مضمار علم الترجمة، مع الملاحظة بأن تأويل فهم نص من النصوص يكون مختلفا من فرد لآخر، إذ يتسع الأمر باختلاف الثقافات التي تتباين فيما بينها، لا فيما يخص مشاهد معينة بالذات، بل وفي الأطر أيضا، هذا إذا ما عولجت التطابقات واحدة بواحدة.

ويطالب (فيلمور) بإقرار مفهوم لعملية الفهم، يكون شبيها بمفهوم الشكلية الذي يعود في أصله إلى علم النفس. وذلك يعني بصورة موجزة أن الكل يتفوق على مجموع أجزائه. ووفقا لهذا الرأي، يعتبر النص متفوقا على مجموع جمله، وتتفوق الجملة بدورها على مجموع كلماتها، وتتفوق الكلمة على مجموع حروفها، والحرف على مجموع الوحدات الصوتية. وكلما انتقلنا تنازليا في هذا التسلسل الهرمي أصبحت المقولات تافهة. بل إن النظرة اللسانية الكلاسيكية إلى البعد الثنائي للغة (الوحدات تحل محل الكلمات، والكلمات تتكامل ضمن الجمل) تبلغ مستوى ثالثا تتحول فيه (الجمل إلى نصوص)، هذا إذا ما أدمج فيها البعد العملي جميعا.

إن مثل هذا الرأي الذي يمثله فيلمور قد ينطوي على بعض الجوانب الباطنية، لكنه يتفق في جانبه الآخر مع مبدإ مراعاة النص في مجموعه، وذلك ما يمنح الترجمة نوعا من الجماهيرية. وإلى جانب ذلك، ظهر في نفس الوقت تقريبا مقالان آخران ركزا جليا على أهمية مبدإ الشكلية بالنسبة للسانيات.

وبقي أن نذكر أن نموذج فيلمور متلائم، إن لم يكن متماثلا مع نماذج أخرى من علم النفس المعرفي، وعلم النفس اللغوي، وهي النماذج التي كثيرا ما يتم توظيفها لتوصيف عمليات فهم النص وإنتاجه.

مدخل إلى الشفوية الشعرية

لـ: بول زومتور
ترجمة: حميد بوحبيب

هذا المقال مترجم عن كتاب بول زومتور "***مدخل إلى الشعر الشفوي***" ، و قد ورد في الفصل الأول تحت عنوان : الشفوية الشعرية . أما الكتاب فقد صدر سنة 1983، وهو اليوم من المرجعيات الأساسية في ميدان الشفويات والشعر الشعبي عامة.

وبول زومتور باحث فرنسي، مختص في آداب القرون الوسطى، خاصة ما تعلق منها بالإبداع الشعبي، اهتم بالشعر الشفوي لفترة طويلة إلى أن كلّل عمله بوضع نظرية شاملة للشفوية، وهو من الباحثين الذين يجمعون بين مسعى أنثروبولوجي وتداولي في معالجة الظواهر الثقافية، مع نزوع واضح إلى التمرد على كل المسلمات النقدية التي تأسست عليها العلوم الإنسانية في العقود الأخيرة من القرن العشرين، هذا فضلا عن ميوله الإنسانية النبيلة التي تعمل على فضح النزعة الأورومركزية، وقد كان محاضرا في أكثر من عشرين جامعة عبر القارات الخمس. توفي سنة 1995، وترك أكثر من أربعة وعشرين مؤلفا، تعد كلها من المراجع الأساسية في فهم الظواهر الثقافية والإبداعية الشعبية، منها على سبيل المثال:

- بحوث في شعرية القرون الوسطى 1972.
- اللغة، النص، اللغز 1975.
- القناع والضوء 1978.
- الحرف والصوت 1987.
- قياس العالم 1993.

وغيرها من البحوث المتعلقة بالظاهرة الشعرية والرموز الثقافية.

كما أنه روائي متميز شاعر، من رواياته:

- بئر بابل 1969.
- العبور 1991.

– حفل المجانين 1987 .

– المهرّبون (مجموعة قصص) 1988.

ومن دواوينه الشعرية :

Points de fuite –Midi le juste

إن الكلام يستلزم السماع حتما، وعلى الرغم من عوائق التلقي أحيانا، فهو عملية مزدوجة يتواضع فيها المتخاطبون على جملة من المسلّمات القائمة على وفاق ضمني – ولكنه فعّال ونشيط – في وسط ثقافي واحد طبعا.[i]

إن ما يشمل مادة للكلام، وما ترتكز عليه الكلمة هو الرغبة المزدوجة: رغبة القول، ورغبة ما تحيل إليه الكلمات الملقاة. فنيّة المتكلم الذي يخاطبني تتجاوز مجرد تبليغ المعلومات ، إنه يشاكسني ، ويدفعني – حين أدرك رغبته – إلى الخضوع للقوة الإنجازية لصوته .

ووجوده وإياي في فضاء واحد، يضعنا في وضعية حوار حقيقي أو افتراضي، في تبادل شفوي، تتحرر فيه ألعاب اللغة من التحديات المؤسساتية، ويكون فيه – أي في ذاك التبادل– الانزلاق من سجّل إلى آخر، وكل الانقلابات المفاجئة للخطاب (من الزعم إلى الدعاء ، من الحكي إلى الاستفهام ..) تصبح ضمانا للمرونة الخاصة للملفوظ.

ففي المشافهة قد يحدث انقطاع في المحاججة، أو قد تعرض فجوة في سلسلة الحقائق المقدمة، أو قد تنفقد الصلة أو ينعدم التناسب بين المقال والمقام ...وقد ينبجس سؤال مشاغب ما، فينصرم حبل الكلام. [ii]

بالإضافة إلى هذه الحيثيات الخاصة، ثمّة حركية جانبية للغة، التباسات تساهم في البناء التدريجي للخطاب، بحيث يستحيل التقيّد بالمستوى الحرفي للكلمة، فيحدث بذلك انفتاح مستمر على الإيحاءات والتماثلات .

إن اللغة الشفوية الأقل تأثرا بالكتابة، وحدها هي القادرة على إبداع هذه الغيلان الطريفة، والاشتقاقات Les calembours. الشعبية، المتمثلة في التوريات، وأنواع الجناس، الظريفة l’ampoule، وكذلك لفظة L’absinthe، من ذلك مثلا عبارة العشبة المقدسة، للدلالة على

خمرة في الدالة أصلا على نُفخة في اليد، ثم نقلت الدلالة إلى المصباح الكهربائي... إنه حقا شعر حوشي!

من هنا ينتج تأثير ذهني: بحيث يحس المستمع بأمانة التواصل الشفوي وصدقه، أكثر من أي تواصل مكتوب أو غير مباشر. إنها مصداقية راجحة ومقنعة. ولهذا ربما فإن الشهادة القضائية – البراءة والإعفاء وكذا الحكم بالإعدام أو غيره – تُتلفظ عادة بصوت عال ورنّان.

إن الكلام – أكثر من أي شكل آخر للاحتكاك يُجلّي – بالنسبة إلى الأفراد المتواجهين – حقيقتهم كذوات : فمكانتهم – بالمعنى الذي يقصده ف– فلاهولت – تنتج من تحديدات النظام الذي ينتمون إليه ومن التزامهم النفعي معا .[iii]

إن كل تواصل شفوي بفعل كونه إنجازا صوتيا، وكلاما مبثوثا من طرف من يملك – أو يستولي – على حق بثه، يطرح أصلا فعل سلطة. فعل فريد غير قابل للإعادة على نفس الهيأة. إنه فعل يمنح اسما، في حدود كون ما يقال يسمي الفعل بقوله.

وكل انبجاس لفعل ما ترفقه عادة لعبة قوى مؤثرة على استعدادات المخاطب. وفي هذا المجال نجد سلسلة من الأبحاث منذ 1945، في أمريكا، ثم في أوربا [iv] بعد عشرين سنة، وكلها ركزت على النقاط التالية:

تحليل أفعال الكلام، أو العناصر غير اللسانية للتعبير، سواء أكانت كينيزية (حرَكية) أم بروكسيمية (مكانية)[v] ، أو ما يتعلق بلسانيات الخطاب في فرنسا وجماليات التلقي في ألمانيا. ألمانيا بمعناها الأنجلوسكسوني. Performance لهذا سيكون طرحي هنا مركزا على فكرة الأداء، أي تلك العملية المعقدة التي يتم عبرها بث الخطاب وتلقّيه في آن واحد ومكان واحد معا، بحيث يكون المرسل والمرسل إليه وظروف الخطاب (سواء أمثّلها النص بوسائل لسانية أم لم يمثّلها) في وضعية مواجهة فعلية لا تقبل النقاش.[vi]

في الأداء، بهذا المعنى، يتقاطع محورا التواصل الاجتماعي:

– Locuteur / Auteur المحور الرابط بين المتكلم والمؤلف .

– Situation / Tradition والمحور الذي تتوحد فيه الوضعية والتقليد

– fonction phatique هنا تتدخل تلك الوظيفة اللغوية التي سمّاها مالينوفسكي الوظيفة التوصيلية، أي لعبة التقرب والنداء، الطلب والإثارة.. وهي– في حد ذاتها – لعبة لا مبالية بإنتاج المعنى.

إن الأداء يشكل اللحظة الحاسمة في سلسلة من العمليات المتمايزة منطقيا (وليس فعليا دائما)، وأُحصي منها خمسة أعتبرها مراحل وجود القصيدة:

الإنتاج /البث / التلقي / الحفظ / الترديد.

والأداء يشمل المرحلتين الثانية والثالثة، أي البث والتلقي، ويشمل المراحل الثلاثة الأولى أي الإنتاج والبث والتلقي، في حالة الارتجال.

وفي كل المجتمعات التي تمتلك كتابة، تتحقق كل واحدة من هذه المراحل، سواء عن طريق الحواس أي شفويا وسمعيا (orale-aurale[vii] حسب تعبير والتر أونج الذي يحيل إلى الصوت والسمع معا)، أم عن طريق النقش (الكتابة) الموجه للإدراك البصري.

وبجمع هذه العوامل في توليفة واحدة ، نحصل نظريا على عشر إمكانات :

–العمليات (ما سميناه من قبل مراحل):1، 2، 3، 4 (أي البث والإنتاج، والحفظ والترديد) تكون حسية مرتبطة بالشفوي Oral والشفوي والمسموع Aural، وعليه فالعملية الرابعة؛ أي الحفظ تكون على هيأة مكتبة أو أرشيف)، وهنا سنحصل على صيرورة كتابة تامة.

هذه الصيرورة (process) لا جدوى من ورائها حين يتعلق الأمر بشعرية شفوية.

تبقى إذن الإمكانات التسع الأخرى.

وفي هذا السياق، سأنظر إلى كل تواصل شعري يتحقق فيه البث والتلقي عن طريق الصوت الإنساني والسماع على الأقل، على أنه شعر شفوي.

إن هذا الاختزال النسبي لمعطيات الأشكال يجد تبريره المنهجي في إحدى نتائجه المترتبة عنه:

إنه يسمح بالتمييز – وهذا ما يدعو إليه واقع الحال – بين بث شفوي للشعر (وهذا يتعلق بالعمليات 2 و3 أي بالبث والتلقي) من جهة، والتقاليد الشفوية الأخرى من جهة ثانية، (وهذا يتعلق بالعمليات 1، 4، 5 أي بالإنتاج والحفظ والترديد).

إن التواصل القائم على الصوت الإنساني يؤدي ضمن الجماعة الاجتماعية وظيفة تنفيسية.[viii]

إنه يؤدي إجمالا إلى إسماع الخطاب (جادا كان أم تافها)، الذي ينتجه مجتمع ما على ذاته، لضمان الاستمرارية والبقاء.

والشعر الشفوي ما هو إلا نمط من أنماط ذلك الخطاب، إنه يشكل شفوية منتشرة وجماعية تبدي جليا ما يسميه (P. Maranda) خطابا تحتيا شعبيا [ix] infra-discours populaire.

فقبل تلك الأنشطة التي تؤطرنا كجسد اجتماعي، تتردد أصواتنا على شكل موجات متقاربة أو متباعدة، مثل ضجة آتية من الخلف، إنها إثارة جهرية أبدية، وبدونها فإن الخوف سيشلنا شللا مريعا.

من هنا يتجلى ذلك الازدواج الذي أشار إليه م- جوس (M. Jousse) من قبل، وتلاه ج – دورنس (J-Dournes)، حين ميّز في الممارسة النأمية (المتعلقة بصوت الإنسان) بين المقول (le parlé) باعتباره كل تلفظ ملقى عن طريق الفم من جهة، والشفوي كتلفظ مشكلن (formalisée) [x] بطريقة خاصة من جهة ثانية.

بالفعل فإنه من الناحية الاجتماعية يحقق الصوت الإنساني نوعين من الشفوية:

– شفوية مطّعمة (Entée) على التجربة الآنية لكل واحد منا.

– وأخرى مطعّمة على معرفة معلمة جزئيا (connaissance médiatisée) (على الأقل بالتقليد).

إنه استقطاب ثنائي عابر للشعر الشفوي أيضا.

يبدو أن الكلام- من الناحية الاجتماعية – مرتبط بفكرة العوْد الأبدي : تأكيد، واتحاد، أود أن أقول، وأرغب في عودة هذه اللذة .. إنه نزوع مقموع في مجتمعاتنا غالبا.

إن المعرفة التي أشكلها حين أتكلم، والتي تتبنّونها عن طريق الأُذن، تنتمي إلى نفس النمط الذي تحيل إليه: إنها تَعرُّف، فهي تميل إلى امتلاك التعليلات المتعوّد عليها، وتحاك على حبكة من المعتقدات التي تكون ذهنية وباطنية غالبا، وبذلك تشكل ميثولوجيا الجماعة، أيّا كانت هذه الجماعة.

إن خطاب التواصل يمثل على هذا النحو نقيض الخطاب العلمي الذي وصفه ج – ف ليوتار[xi] J.F.Lyotard، فهو إيحائي بالدرجة الأولى، ومرتبط بكل الألعاب اللغوية التي تخلق في تآلفها الروابط الاجتماعية.

ويكتسب خطاب التواصل مصداقيته وقوة إقناعه من كونه شهادة، بغض النظر عن محتواه، بحيث يختفي مفهوم الحقيقة لصالح مفهوم آخر أكثر غموضا: التواصل عبارة عن ذاكرة مرنة ليّنة ومرتحلة، وبفضل حضور الأجساد تصبح تشميلية globalisante .

إن الإدراك الأولي لهذه القيم– في مطلع القرن العشرين – هو الذي مكّن الإثنولسانيات (وكانت يومئذ علما حديثا)، والإثنولوجيا بل وحتى التفسير (l'exégése) الذي احتار في نصوص المزامير أو في تشكيل الأناجيل، أن تميّز عدة خصائص أنثروبولوجية للأنواع الأدبية الشفوية، خاصة تحت تأثير مارسيل جوس، ومن تلك الخصائص:

- أولوية الإيقاع.
- تبعية الخطابي للتنفسي.
- تبعية المفهوم للسلوك.
- تبعية حركة الفكرة لحركة الجسد.

ولقد سمحت أعمال المختصين في الحضارة اليونانية، إلى عهد هافلوك، وفرنان، بإثراء هذه الملاحظات والتنظير لها. فأبحاثهم وأبحاث باري (Parry) ولورد سمحت بإعطاء معنى لمصطلح " الأدب الشفوي"، الذي كان من قبل أجوف، وبرهنت أن لفظتي الصوت[xii] (الإنساني) والكتابة ليستا نظيرتين، وأن الفروق التي يمكن إحصاؤها بينهما متفاوتة الدلالة.

إن الشفوية لا تُعرّف بطرح بعض الخصائص من الكتابية، والكتابية نفسها ليست مجرد انتقال الشفوية إلى حقل المكتوب.

لن أناقش هنا النظريات القائمة على هذا الأساس – لقد فعلت ذلك مؤخرا[xiii] – بعد صدور كتاب ماك لوهان سنة 1926، والذي أحدث ضجة هائلة. ومن جهة أخرى؛ فإن والتر أونج في العديد من مؤلفاته تناول الخطوط العريضة لنظرية الأستاذ الكندي، وأعطاها عمقا كبيرا، خاصة في كتابه الصادر سنة 1967.[xiv]

إن المبدأ الأول هنا معروف: الرسالة لا تُختزل إلى مضمونها الظاهر، إن لها مضمونا آخر خفيا، وهو يتشكّل من الوسيط الذي ينقله. فإدخال الكتابة إلى مجتمع ما يمثّل تغيرا عميقا: ذهنيا، اقتصاديا، ومؤسساتيا. ثم تحدث قطيعة أخرى أقل إيلاما، حين يتم الانتقال من الكتابة اليدوية، إلى الطباعة، وقطيعة ثالثة حين تنتشر وسائل الإعلام.

فمن الشفوية إلى الكتابة – من منظور ماك لوهان طبعا – يقوم نمطان حضاريان متعارضان تعارضا شاملا.

ففي عالم من الشفوية يكون الإنسان مرتبطا بفصول الطبيعة، وبذلك فهو يبطّن تجربته التاريخية دون مَفهمتها، ويتصوّر الزمن على شكل رسومات دائرية، والمكان، على الرغم من التجذّر والاستقرار، يبدو له بعدا آخر للترحال، وتكون المعايير الجماعية متحكمة بشكل صارم في سلوكاته.

وبالمقابل فإن استعمال الكتابة يعني انفصالا بين الفكر والفعل، إنها اسمانية [xv] عميقة مرتبطة بضعف اللغة ذاتها، أما الزمن هنا فيُتَصوّر بشكل خطي، والمكان تراكمي.

وفي مقابل القيم الجماعية في الشفوية تقوم هنا قيم الفردانية، والعقلانية، والبيروقراطية.

إن عملي هذا يقع ضمن هذا المنظور، وسأقدم على مر الصفحات تعديلات للمقترحات التي قدّمها أصحاب هذا الاتجاه.

بالفعل، فعلى الرغم من صحة البوادر الأولى لهذا المذهب، فإن الكثير من الأسئلة تبقى عالقة ومفتوحة، لأن الأجوبة المتوفّرة حولها تنزع نحو مستوى تعميمي كبير فيما يخصّ هذا التفرّع الثنائي (شفوية / كتابية).

فعلى مرّ التاريخ بدت هاتان الكلمتان بمثابة طرفي حلقة ممتدة [xvi]، فمن بين المميزات التي تجعلهما على طرفي نقيض؛ نجد مميزات غير ملائمة تماما (الاعتماد على البصر في حالة الكتابة وعلى السماع في حالة الشفوية)، ولكننا نجد بقية المميزات عبارة عن درجات، فالفرق حينئذ يكمن في زيادة أو نقصان ما(مثلا فيما يتعلق بالبعد الزمكاني للرسالة).

بالإضافة إلى هذا، فإن تلك التعارضات حتى عند تخفيفها تبقى أقل تاريخية من كونها فئوية، فأهل الشفوية وأهل الكتابة يتعايشون ويتعاونون في كل عصر، وحين يقال:

إن بعض المجتمعات لا تعرف أي شكل من أشكال الكتابة، نتساءل:

ولكن ما هي الكتابة ؟!

فهل ندخل ضمن الكتابة أحجار الميغاليت [xvii]، وعلامات المِلكية، والأقنعة الإفريقية، والوشم، وكل ما يدخل في عداد الرموز، والرايات الاجتماعية ؟! سأكتفي إذن بمستوى تيبولوجيا مجردة، لإضاءة بعض الحقائق الوَسَطية الملتبسة، وأقترح أربعة أنواع مثالية لاختزال التنوع الهائل للحالات الممكنة:

1- **شفوية ابتدائية وآنية، أو خالصة**، أي دون أي احتكاك بالكتابة، وأقصد بالكتابة هنا كل نظام ترميزي بصري مسنّن، وقابل للترجمة إلى لغة.

2- **شفوية متعايشة مع الكتابة**، وهي تسير وفق طريقتين: إما على شكل:

أ- **شفوية مزيجة**: حين يكون تأثير الكتابة خارجيا، جزئيا أو مؤجلا (مثلما هو الأمر حاليا عند الجماهير الأمية في العالم الثالث).

ب- إما على شكل **شفوية ثانوية**، تتألف انطلاقا من الكتابة في وسط تكون فيه قيم الكتابة مسيطرة على قيم الصوت الإنساني في الاستعمال، كما في المخيلة الجماعية معا.

وبقلب زاوية الرؤية، سنقول أن الشفوية المزيجة هذه تتأتى من وجود ثقافة مكتوبة (بمعنى أن لها كتابة)، والشفوية الثانوية تتأتى من ثقافة متعلّمة، حيث يكون كل شكل من أشكال التعبير متأثرا بحضور الكتابي.

3- **شفوية معلَمَة آليا**، وبالتالي فهي مؤجلة، أي غير مباشرة في الزمان والمكان.

إن الأشكال الشعرية التي إنتاجها عبر التاريخ تتميز عموما عن كل أشكال الشعر المكتوب، بكونها لا تمنح – لا لجمهورها ولا للنقاد والمؤرخين الآتين من بعد – وثائق ملموسة يمكن أن تسجل ضمن كرونولوجيا ما، بالمعنى الذي نفهمه، وذلك بسب نفورها من كل تحديد أو تصنيف للمدونات ضمن جداول شاملة، كتلك التي شكلت الاستعمال الأول للكتابة.

ففيما تبدَع الكتابة وتنتشر، فإن الشفوية الخالصة يمكن أن تستمر وتبقى حتى في عالم تمّ تغييره، ضمن ما يسمى الحضارة الحفرية، مؤدية بذلك إلى سد فراغ الآخر.

وهنا تتدخل مشكلات لسانية لتُعقّد العلاقات أكثر فأكثر، فحين تتجاور لغة وطنية مكتوبة ولغات محلية شفوية أو تقاليد شفوية في فضاء واحد، تولد بالضرورة توترات ضاغطة بين أدب قومي مكتوب من جهة؛ وشعر شفوي إقليمي اللهجة من جهة ثانية، وجهود بعض الحركات الجهوية لخلق تنويع أدبي للاستعمال المحلي من جهة ثالثة.

ففي فرنسا مثلا يعتبر الأوكسيتان[xviii] تعبيرا حيّا عن خطورة الاختيارات والمواقف التي تفرض نفسها على المتعلّمين المتواطئين مع هذه الصيرورة بين قيم الصوت الحي، وقيم الكتابة.

وهذه الوضعية تتجلى بشكل درامي أكثر في عدد هائل من نواحي العالم الثالث.[xix]

إن تقييد الأشعار والمرويات الشفوية وتثبيتها بالكتابة لا يضع بالضرورة حدا للشفوية، ما يحدث حينئذ هو حصول ازدواجية:

نحصل على نص مرجعي قادر على إنتاج أدب، و في نفس الوقت – ودون الاحتكاك بذلك النص أحيانا – تتواصل الروايات الشفوية المتنوعة للنص وتتعاقب زمنيا.

فحين أصدر إلياس لونروت عام 1835 كتابا بعنوان كاليفالا، يحتوي على مجموعة من الأشعار الملحمية الفنلندية، فإن ذلك لم يمنع الذاكرة الجماعية من مواصلة تناقل تلك الأشعار على طريقتها، إلى درجة أنه بعد خمسة عشر عاما من صدور الكتاب، حصل الكاتب على كاليفالا[xx] جديدة مختلفة ومكمّلة للأولى.!

في هذا السياق، أي في هذا التأرجح بين الشفوية والكتابة، يمكن الاستشهاد بالبيلينات الروسية، وبلادات الشمال الإنجليزي في القرن التاسع عشر، وكذلك قصائد الرومانسيرو[xxi] الإسبانية بداية من القرن السادس عشر.

وإفريقيا المعاصرة تعطي لنا أروع مثال حول ما أشرنا إليه، وهو **حلقة شاكا**، ذلك المحارب الذي عاش فعلا في بداية القرن التاسع عشر، والذي أسس مملكة الزولو، وقد دخل عالم الأسطورة وهو على قيد الحياة، فغدا موضوعا لأغاني وجدانية أو ملحمية، تواصلت في التقاليد الشفوية إلى يومنا هذا. ثم جاء توماس موفولو سنة 1925، وهو مثقف ينتمي إلى قبيلة بازوتو، واقتبس من بعض تلك الأغاني مادة لرواية، وهي أول نص أدبي مكتوب في لغة قومه!

وبذلك ولد تقليد أدبي جديد، وامتد إلى لغة السوتو، والزولو، والإنجليزية..و ما انفك هذا الاتجاه يحيا ويتحول بفعل احتكاكه بالشعر الشفوي.

وبعد موجة التحرر الوطني أصبحت صورة **شاكا** الأسطورية مشحونة برمزية المصير الإفريقي، فاكتسحت فضاءات أخرى من زامبيا، إلى الكونغو، مرورا بغينيا، والسنغال، ومالي ..

ومعظم الأعمال التي خصصت له بالفرنسية والإنجليزية بداية من 1956 جاءت في شكل مسرحي، أي بالشكل الأقرب إلى الشفوية الخالصة.[xxii]

أثناء مثل هذا المشوار، يمكن للشعراء الشفويين أن يتأثروا ببعض التقنيات اللسانية، وببعض التيمات الخاصة بالأعمال الأدبية المكتوبة: التناص، حينئذ يكون من سجل إلى آخر، وعلى العموم؛ فإن الشعر الشفوي اليوم في احتكاك دائم بعالم الكتابة، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة احتكاكا بالشعر المكتوب، وهو احتكاك سيحصل حتما عاجلا أم آجلا.

وفي هذه الحالة من التعايش، سنرتب الوقائع حسب اختلاف بؤرة التأثير الذي تمارسه الكتابة على التواصل الشعري الشفوي، من الإنتاج، إلى الحفظ، إلى ترديد القصيدة.

من هنا تتعدد أوجه هذه التداخلات إلى درجة يتيه معها الناقد، فكلما انتقل التواصل الشعري في أحد أجزائه من سجلّ إلى آخر يحدث تحول جذري، نادرا ما يُكشف عنه على المستوى اللساني.

أجل، فالقصيدة التي تُؤلّف كتابيا، ثم تؤدّى شفويا، تتغير طبيعتها ووظيفتها معا، تماما مثلما تتغير قصيدة شفوية رويت ثم دُوّنت وانتشرت عن طريق الكتابة.[xxiii]

ويحدث أن يبقى التحوّل افتراضيا، كامنا في ثنايا النص مثل كنز ساحر، لكونه لم يتحقق:

هذا حال تلك النصوص التي حين نقرؤها قراءة صامتة – بصرية – نحس بكثافة حادة تكاد أن تنطق وتُتلفظ بصوت ممتلئ، كذلك الذي اعتلج في داخلها عند كتابتها.

انطلاقا من هنا تُطرح مسألة أساسية: هل مفهوم الأدبية ينطبق على الشعر الشفوي؟ المصطلح غير مهم في حد ذاته: اعني فكرة وجود خطاب مميّز قابل لأن يُعرف اجتماعيا، وبصورة مباشرة وآنية على أنه كذلك.

سأقصي هنا معيار النوعية، لأنه مفرط في عدم الدقة.

الشعر، الأدب، هو ما يتلقاه الجمهور، القراء والسامعون، على أنه شعر وأدب، ويرون فيه نية غير نفعية بحتة.

فالقصيدة – النص الأدبي عامة – تُحسّ كتمظهر خاص في زمـــان ومكـــان معيّنـــين، لخطاب واسع، سيشكل إجمالا استعارة أو مجازا لكل أنواع الخطاب العادية المتداولة ضـــمن المجموعة الاجتماعية، وترافق هذا الخطاب عادة علامات تكشف عن طبيعته الوصفية [xxiv]:

الغناء بالنسبة إلى نص الأغنية مثلا.

إن السبب في ذلك لا يعود إلى نمط التلقي والإدماج الاجتماعي للنص وحدهما.

يبدو أنه لا يمكن لنا أن نرفض رفضا قطعيا وخالصـــا فكـــرة التعـــارض الـــوظيفي (والكشفي Heuristique [xxv] على كل حال) بين الخطابات التي تحيل إلى مرجعية من الرموز من جهة، وتلك التي تنتج استيهامات من جهة أخرى.

وباستخدام مصطلحات لجأت إليها في العديد من مؤلفاتي السابقة، أقول أن ثمة تعارضا وظيفيا بين الوثيقة (document) أي الخطـــاب غيـــر الموســـوم، والمعمـــار(monument) أي الخطاب الموسوم.

ينبغي طبعا اعتبار هذه الفكرة نسبية، وإعادة النظر فيها باستمرار.

إنها ببساطة ترسم الحدود القصوى التي يمتدّ بينها سلّم من الأمثلة غير الخالصـــة [xxvi]، وهي بذلك تخترق الشفوية والكتابة معا، وتترك فيهما نفس الآثار، وتمثيليا سأرسم مكوناتهـــا كالتالي:

1ــ القاعدة:

أ- البنيات الابتدائية "الطبيعية"، وتتشكل من الأعضاء الصوتية، اليدين، ودعامات الكتابة.

ب-البنيات الابتدائية الثقافية، وتتشكل من اللسان في حد ذاته، ومنه التمظهـــر الخطـــابي القاعدي أي الوثيقة.

2- المستوى الشعري:

ويُعرّف انطلاقا من انبناء ثان وقصدي ناتج عن شحذ عناصر غير منظمة مـــن قبـــل على شكل بنيات ابتدائية. وهو على مستويين:

أ- الانبناء النصي، ويشتغل بالضرورة على اللسان.

ب- الانبناء الصيغي، وهو خطي (غرافي) يميل إلى الرسم في حالة الكتابة، وصوتي يميل إلى الغناء في حالة الشفوية، ومنه يتأتى التمظهر الخطابي الشعري، أي المعمار.

إن نصيب كل البنيات النصية والصيغية في تشكيل المعمار، يختلف بشكل محسوس بين الشعر المكتوب والشفوي.

إن النصي يغلب على الكتابي، والصيغي يغلب على فنون الصوت الإنساني، وفي أقصى الحالات يمكن تصور معمار شفوي مصوغ تماما Modalisé، ولكن لا يمكن تصوره منصوصا Textualisé، ومع ذلك فانا لم أعثر على مثال لذلك.

إن النص الشعري الشفوي – على اعتبار أن الصوت الذي يحمله يُلزم جسدا- ينفر أكثر من النص المكتوب من أي تحليل يفصله عن وظيفته الاجتماعية، وعن المكانة المخَوَلَة له ضمن الجماعة الحقيقية، وعن التقاليد الشفوية التي ينتمي إليها والظروف التي يُسمع فيها في نهاية المطاف.

فإذا كان النص المكتوب يحرص على التقنيات اليدوية والآلية للخط، فإن النص الشفوي أكثر حرصا على الظروف والخصائص اللسانية المميزة لكل تواصل شفوي.

إن بث الصوت الإنساني يقع خارج الزمن: أعني أن الزمن – إلا في حالات خاصة مسنّنة على أنها خطابية – لا يشكل عاملا حاسما في التواصل. فبالنظر إلى أن الرسالة الشعرية تحتاج إلى العودة إلى الذاكرة الجماعية من أجل الاندماج في الوعي الثقافي للجماعة، فإنها تُحقق ذلك بفضل شفويتها، وبشكل آني ومباشر:

هذا ما يجعل المجتمعات المفتقرة إلى الكتابة " تقليدية " بصورة عميقة.

مبدئيا – وفي الواقع دائما – نجد أن الرسالة الشفوية تتوجه إلى استماع عمومي جماعي، بينما تتوجه الكتابة إلى تلقي فردي ومنزوي.

ومع ذلك فإن الشفوية لا تشتغل إلا ضمن جماعة سوسيوثقافية محدودة..فالحاجة إلى التواصل التي تحركها لا تستهدف العالمية لأول وهلة، بينما الكتابة المتذرّية بين آلاف القراء فرادى، محكوم عليها بالتجريد، ولا تتحرك إلا على مستوى عام أو كوني.

إن الشفوية بهذا الشكل تبطّن الذاكرة بنشرها في الفضاء، فضاء تقاس أبعاده بمداه السمعي، وسواء استعانت الشفوية بوسائل تقنية أم لا؛ فهي لا تتجاوزه إطلاقا.

والكتابة بدورها فضائية، ولكن بصورة مغايرة، ففضاؤها هو مساحة النص:

هندسة بلا سُمْك، بُعد خالص (إلا في بعض الألعاب الخطية المطبعية لبعض الشعراء).

ويكون التكرار اللانهائي للرسالة – بنسخها– في هويتها غير الملموسة ضمانا للبقاء، والانتصار على الزمن.

ويترتب عن ذلك طواعية مطلقة للنص وقابلية للمعالجة: فأنا أقرؤه، وأعيد قراءته، أقطّعه، ألصقه، أنزل في مجراه، وأصعد على هواي. فهو يتجلى على صفحة الحجر، أو الورقة، كلا متكاملا مدرَكا على أنه كذلك.

ومهما كانت الثغرات والتّعِلاّت (ما نسميه أدبيا لعبة الأقنعة) التي تتضمنها الرسالة، فإن الفهم الشامل لها ممكن، وهو فهم ذو نزوع اصطناعي وبالتالي مجرد.

وبالمقابل، فإن الرسالة المبثوثة عن طريق الفم [xxvii]، تفهم تدريجيا كلما مضينا في بثها، ولا يتحقق الفهم الشامل إلا في حالة اختصار قصوى، فالمستمع يعبر مجرى الخطاب الموجّه إليه، ولا يكتشف له وحدة ما إلا في حدود ما تسمح به ذاكرته الهشة والكاذبة، خاصة حين يهمل المتكلم وضع معالم واضحة في الكلمات التي يبثها.

ومع هذا كله، لا يليق لنا أن نستخلص من هذه المقارنة نتائج واضحة التباين، فالتفرع الثنائي لا يعتبر تفسيرا على الإطلاق، فلا وجود لـ "القسمة الكبرى" كما يقول ج– قودي Goody J- وتطبيق الثنائيات المتضادة يسفر في معظم الحالات عن اختزالات مثالية. ولا قيمة لفكرة الانقطاع مثلا، إلا إذا كانت مدمجة في حركة جدلية.

فكل شيء تاريخي، أي متحرك، ويتم إسقاطه على شكل سلالم وأطياف لا تكون أطرافها تُعرّفها سوى من بنات العقل.[xxviii]

إن المسافة التي تفصل بالضرورة بين الملاحِظ وموضوع الملاحظة كافية لتغليط النظرة بمجرد تموضعها كفرق جوهري : أنا / هذا.

إن الإثنولوجيا التي تواجه "نحن" بـ "هم" في علاقة أحادية، تعاني أكثر من أي تخصص آخر من هذه المثلبة الأصلية.

إثنولوجيا، إثنوتاريخ، غثنوسوسيولوجيا، إثنولسانيات.. تساوي كلها النزعة الإثنومركزية، نوع من قصر النظر الفكري.. أداة لمعرفة تميل نحو رفض الآخر، وتغلّط كل علومنا الإنسانية، طالما أنها لم تتجاوز بعد الحدود التي فرضتها الحضارة الغربية.

إن ذلك كله سيخلق لنا صعوبات جمّة، على اعتبار أن الدراسة العامة للشعر الشفوي تمس عدة حقول معرفية موسومة من قبل [xxix].

فالثقافات الإفريقية – وهي ثقافات الصوت الإنساني بامتياز، هي اليوم في كامل تعقّدها وثرائها، تحت كفالة الخطاب الإثنولوجي: خطاب ثان، موضوعه خطاب حول التقاليد، حول أثر الصوت، أكثر مما هو حول التقاليد والصوت الإنساني الذي يحملها.

والعديد من الإثنولوجيين اليوم تنبّهوا إلى حجم الوهم الذي يسكن أفكارهم، والخيال الذي يكتنف هذه الغيرية غير المعترف بها.[xxx]

لا وجود لخطاب حيادي، ولا حياد في هذا الخطاب الذي ينزع – تحت قناع عذرية بلا لون، توهم بإعطاء عمق لكل ما هو مسطح – إلى صياغة قوانين السلوك الاجتماعي، مما يسمى اليوم استراتيجيات، وفي ذلك قد يسقط في فخ الحنين إلى الماضي الأسطوري، وفي نفس الوقت ينمّي شرها إلى السلطة.

إن التلقي الإثنولوجي للنصوص الشفوية يؤول حتما إلى فلكلرتها إذا لم يتزاوج بمشاركة –لامبالية إلى درجة اللامعقول– المفترضات القبلية التي يعبّر عنها:

وذلك على المستوى العميق للفهم السابق للمنطق العابر له، حيث يتحقق ويتم التواصل الفني.

من هنا يجب إخضاع التحليل لإدراك مسبق وشامل، وإخضاع المحاججة لتجربة موضوعها.

وهذا الموضوع – كموضوع – ينتمي إلى خانة ما هو قابل للوصف، أما القابل للتنظير فهو يقع على مستوى ما من التجريد المستقرَأ: وأية طريقة استنباطية ستعني حتما الاعتراف القبلي بالكوني كمرجعية أخيرة، وشكل فارغ وعبثي.

ثمّة طريقة معهودة لدى الفولكلوريين، تتمثل في اختصار الروايات المتعددة لأغنية واحدة أو حكاية إلى رسم مشترك (نوع من الجذر المشترك) [xxxi]، باعتباره النموذج الأعلى الذي سيحدّد في بنيته ومعناه بصورة حيادية وموضوعية.

لاشك أن هذه الفرضية الضمنية بوجود قارئ كوني يتسامى عن الحدود الزمكانية، هي خصبة ومفيدة في مرحلة ما من البحث، ولكنها لا تصلح في بدايته: إنها بمثابة مِرنان (résonateur) للاستماع الفردي الذي يُعتبر وحده المؤسس، وخارجه لا صوت يُحظى بالوجود.[xxxii]

بالفعل، فما يهم ليس البنيات بقدر ما تهم القضايا التحتية التي تدعمها. وعندما نتأكد من الحقائق ونَصفها ونُصنّفها، نستخلص نوعا من التيبولوجيا (أي مصنفات نموذجية)، أو نشرع في بناء ترسيمة ،يُفترض أنها ترسيمة بدئية ومُولّدة.

ولكن فكرة الوظيفة – التي تبنى عليها هذه الطريقة – إذا لم تُعمم على كل الكوامن والافتراضيات (le virtualités) للقضايا المعنية، فإنها تتعفن بسهولة، وتتحوّل إلى التباس أو إلى تحصيل حاصل.

وكل أنموذج يُبنى هو نوعا ما غير ملائم، لأن استعماله يقتضي تمرّدا ما لتُعاد إليه فانتازيته المبدعة، وخطأه المنعش، كما يقتضي أن يُقصى من الاستدلال، ذلك المبدأ التبسيطي الفج المتمثل في عدم التناقض.[xxxiii]

فما كان يسميه العلم التقليدي " حقيقة " ما هي إلا خاصّية متقطعة ومتشظية، تتجدد نظرتها في كل حين، إنها مدعوّة بالصدفة إلى أعراس الفيلولوجيا، وإلى حضرة ميركور[xxxiv]، حسب الكناية المتميزة للشيخ مارتيانوس كابيلا.

إن العقلانيات المتوالية التي تحيل إليها مناهجنا، والتي كنا نفتخر بها من قبل، ما هي إلا تنويعات تاريخية لوحدة غير قابلة للتخيّل، ونحن مضطرون اليوم إلى التخلي عنها في خضم هذه التجريبية الضرورية (Empirisme Nécessaire).

فبين الحقيقة الحية والفكرة يمتد حقل من الريب، حقل مزروع بالرفض، وأنواع العجز، والبين – بين، مما لا هو صحيح ولا هو خاطئ، نوع من الخردة الذهنية المنفلتة من كل محاولة تجميع، وهو مِلك للمهَرة وحدهم. وعلى العكس من ذلك، فإن الفكرة تحتاج – كي

تقوم – إلى إلغاء كل ما يلتهمها، من أنواع الحضور، تلك الغيلان التي ستأتي على آخرها.. وفي وسط هذه الإحراجات (Apories) [xxxv]

أترك لكم فرصة اللعب والتمتع، فاللعب والمتعة جديران بالعناء.

إن النظام الأساسي للمفاهيم المستعملة في التحليل النصي، منذ عشرين سنة، ليس علميا على الإطلاق: فبين المفهوم من جهة، وإبداعية من يستعمله من جهة ثانية، والتأويل الذي من المفروض أن يسمح به، من جهة ثالثة، تقوم علاقة ثلاثية معقّدة ومضطربة.

فالمفهوم (concept) يبرمج حركة الباحث على مستوى مفرط في التعميم، إلى درجة لا تسمح بتطبيقه على حالة ما من الواقع الملموس، إذا لم تتدخل عوامل خاصة غير قابلة للقياس بسهولة، مثل: البراعة، النظر الثاقب، الالتزام العاطفي..

وحتى في هذه الحالة؛ فإننا بالكاد نحصل على مستويات نصف تعميمية، إقليمية:

هذه المستويات قد تكون لها – ولا أحد يضمن ذلك – فائدة الاقتداء بها، للإسهام في إثراء التجارب لاحقا، لا غير. من هنا – بالنسبة إلى الباحث – لابد من شخصنة التجهيز الذهني:

أقصد نوعا من الأدلهجة (Idiolectalisation) [xxxvi] للغة النقدية إن صح التعبير.

وبما أن الأمر يتعلّق بفعل ثقافي واسع الامتداد مثل الشعر الشفوي، فإن هذه اللغة أداة للترجمة أكثر مما هي أداة للتحليل. إنها تنحو نحو نقل الفعل إلى سياق آخر (سياق كتابتي ذاته)، وتدرجه على مستوى استذهان باحث جامعي غربي في نهاية القرن العشرين..!

إن العام والقابل للتعميم سينبثقان من المتفرد المأخوذ على أنه متفرد، أي في تأليبيته ومناوئته، إن سماع المتفرد في نهاية المطاف يستجيب إلى الحاجة إلى اللذة ، وفي تلك اللذة يجد ثراءه.

أما التأويل – الذي هو من قبيل الرغبة – فهو يطارد، ويساتل، ويهدد، ويعذّب هذه الفرادة لينتشل منها سرّا ذا أهمية كونية ربما.

وهذه الاستيهامات، ذاتها هي التي تعيق الفهم الكامل لتلك الفرادة.[xxxvii]

هذا مع أن عدد الاحتمالات لانهائي، فالأعمال الكاملة لأمثال جيلبير دوران؛ وإدغـــار موران، بعد يونغ، وميرسيا إيلياد،وليفي ستروس... كلها تشهد على وجود تمثلات أسطورية روحية أساسية، معرّفة للفعل الثقافي.

إن اللسانيات والسيميائيات تساهمان في تضييق أفق المضاربة. وهنا تكمـــن فرصـــتنا، لنستبدل التخيلات والأوهام القديمة حول الوحدة، بفكرة التوافقات المحتملة.

الهوامش و الإحالات :

[i] -Heideger, p 36, 164 ; Lyotard , p 34 ; Grice p 59 -64 , 71-72 : Bernard 1980 , p62 ; Vase 1980 , p63.

[ii] -Flahault 1979 ; Récanati 1979 b , p95-96 ; Kerbrat-Orecchioni , p 18-33.

[iii]- قد لا تكون هذه الأمثلة للتورية والازدواجية واضحة لدى القاريء العربي، يمكن الإشارة مثلا في الاستعمال الشعبي عندنا إلى لفظة المحبوس التي تدل على سيجارة الكيف، والهراوجي (صاحب هراوة) للدلالة على السكير العربيد. (المترجم)

[iv] --Ong 1967,p 217-218 ; Flahault 1978, p 138-151.

[v]-Hall ; Searl ; Austin, p 99-131 ; Certeau,p62-63 ; Lindenveld ; Warning 1975;Berthet p 142-146; Guiraud p92-108; Kerbrat –orecchioni, p 105-189; Numeros spéciaux 42-44 de langue française et 39 de Poétique de 1979.

[vi]- كينيزية kinesique الكلمة أصلا من اليونانية kinein بمعنى الحركة الجسدية والتنقل عبر المكان، أما بروكسيمية فهي من proximus أي المكان القريب أو الجوار. (المترجم).

[vii] -Saraiva p3-4 ; Fedry 1976b ,p 587.

[viii]- والتر أونج صاحب كتاب الشفاهية و الكتابة ، يستعمل مصطلح Aurale المنحوت من جذر au المأخوذ من Auditive المتعلق بالسماع ، و من الجذر Rale المأخوذ من oraleالمتعلق بالمشافهة ، وهو بذلك يعني الشفوي و المسموع معا . (المترجم).

[ix]- ترجمنا كلمة éxteriorisatrice بقولنا : تنفيسية ، بدلا من إخراجية أو غيرها من الألفاظ التي تعني الخارج، لأن القصد هنا هو الترويح و التنفيس ، أي التخلص من الضغط .(المترجم)

[x] .Marenda 1978.p293-294.

[xi] -Dournes 1976.p172-180.

[xii] -Lyotard .p45-49 ; Rosolato 1969, p288-289.

[xiii]- الصوت في الترجمات العربية يكون مقابل : SON/VOIX و قد رأينا أن نضيف تسمية إنساني كلما تعلق الأمر بـ : VOIXو في العربية كلمة دقيقة جدا تدل على الصوت الإنساني هي النأمة ، ولكننا آثرنا عدم إقحامها هنا ضمن مصطلحات المقال لأنها غير شائعة.(المترجم)

[xiv]-Zumthor 1982 b.

[xv]- يشير المؤلف إلى كتاب والتر أونج الذي عنوانه: presence of the word والذي ترجم إلى الفرنسية بعنوان . retrouver la parole (المترجم).

[xvi]- -اسما نية : ترجمة لكلمة nominalisme وهي مذهب فلسفي يرى أن المفاهيم المجردة أو الكلّيات ليس لها وجود فعلي وأنها مجرد أسماء. (المترجم).

[xvii]-Cazeneuve, p50, 57-62, 89, 138 ; Finnegan 1977, p254-259, 272 ; Lohisse, p88-90 ; Goody 1979 p 85-88.

[xviii]- أحجار الميغاليت، أحجار غير منحوتة وهي من الآثار الراقية لما قبل التاريخ، تنتظم وفق دلالات معقدة وغامضة أحيانا.(المترجم).

[xix]- الأوكسيتان l'Occitan , langue d'OC هي مجموع لهجات جنوب فرنسا وهي من أصل لا تيني وأهمها : L'Auvergnat,Le Limousin, Le Gascon –(المترجم)

[xx]-Zumthor .1982.a

[xxi]- كاليفالا (بالفنلندية : بلد الأبطال) هي ملحمة شعبية تجمع بين الشعر و الحكاية و الأسطورة، وتتشكل من حوالي 23000 بيت شعري .(المترجم).

[xxii]- البيلينات الروسية: Bylines قصائد غنائية رعوية. أما - البلادات: Ballades فهي قصائد غنائية تتكون من ثلاث مقطوعات، تتكون كل واحدة منها من 8 أبيات أو 10 ويمكن أن تكون ذات طابع قصصي أسطوري. أما الرومانسيرو فهي قصائد الحب والفروسية، وكل هذه الأشكال الشعرية الشعبية دخلت عالم الكتابة، و لكنها تواصلت في الرواية الشفوية بشكل مغاير وحي.(المترجم)

[xxiii] -Burness.

[xxiv]-Finnegan 1977,p 160-162 et 1978.p 359 ; Tedlock 1977. p 507.

[xxv] - الوصفية: للدلالة على الصورة بالمعنى البلاغي – Figurale التصويرية للدلالة على الصورة بالمعنى التشكيلي- Figurative (المترجم)

[xxvi]- الكشفي: Heuristique من اليونانية Heuriskein بمعنى يجد، و يقصد بها منهج الكشف عن قواعد الإبداع والاكتشاف.(المترجم)

[xxvii] -Lotman –Pjatigorsky. P 206-207 ; Voigt 1969 ; Milner 1982, p 283-284.

[xxviii] -Gossman .p 765-767 ; Kerbrat- Orecchioni.p171-172; Chasca .p59-63.

[xxix] -Goody 1979.p35-36, 246-250.

[xxx]-Geertz.p3-30 ; Derive, p 15; Marenda 1980,p 184.

[xxxi] -Jason1969 ;Smith 1974,p294-295 ; Fedry 1977b,p593-596 ;Tedlock1977,p508-510 ;Goody1979,p
14-15:Ricard1980,p18-23 Bourdieu…

[xxxii]- يشير المؤلف هنا إلى فكرة البحث عن النموذج البدئي الافتراضي للحكايات والأشعار، وهي طريقة معهودة عند أصحاب المنهج التاريخي الجغرافي، أو ما يسمى المدرسة الفنلندية.(المترجم)

[xxxiii] -Geertz.p38-43.

[xxxiv] - Cazeneuve,p 9-10,66-70 ; Zumthor 1980 a .p73-95 ; Strauss,p234; Coquet,p92-93.

[xxxv]- ميركور هنا هو إله التجارة وحامي المسافرين وأبناء السبيل واللصوص عند الرومان، وهو نظير هرمس عند اليونان.(المترجم).

[xxxvi]- إحراجات: الكلمة الفرنسية Apories تعني في الفلسفة ذلك الوضع الحرج بين رأيين متناقضين، لكل منهما حجج تبدو مقنعة للمتلقي.(المترجم)

[xxxvii] - الكلمة الفرنسية نحتها الكاتب من كلمة (Idiolect) ومعناها مجموع العادات الكلامية للفرد، وهي ذاتها دمج لـ dialecte التي تعني لهجة، و idiologi ايديولوجيا، ثم أضاف اللاحقة الدالة على القيام بالفعل في الفرنسية، والترجمة جاءت على نفس النسق: أدلجة + لهجة. (المترجم).

[xxxviii] -Tedlock1977.p515.

بعض المراجع التي أحال إليها المؤلف :

- Heidegger (M) : Acheminement vers la poésie, Paris 1976, Gallimard.
- Lyotard (J-F) : la condition post-moderne , Paris 1979,Ed de Minuit.
-Bernard (M) : L'expressivité du corps, Paris , Delarge1976.
// : - La stratégie vocale , Esprit – juillet 1980.
-Flahault(F) : La parole intermédiaire , Paris , Ed du SEUIL 1978 .
// -le fonctionnement de la parole, communication, xxx .
-Vase (D) : La voix qui crée dans le désêtre .Esprit – juillet 1980.
-Recanati (F) : La transparence et l'énonciation ,Paris , Ed du Seuil, 1979.
// Insinuations et sous-entendus , communication, xxx.
-Kerbat- Orecchioni (C) :l'énonciation , Paris , A .Colin , 1980 .
- Ong (w): -Presence of the word, New Haven, Yale University Press, 1967.
- : Rhetoric, Romance and Technology, Ithaca (N.Y), Cornell University Press.
- : Interfaces of the word, Ithaca (N.Y), Cornell University Press. 1971
- : Africa Talking Drums and Oral poetics, New Literary History, VIII.
- : Literacy and Orality in our Time , in Profession 79, Publication of the

Modern languages Association of America , 1979.

- Hall (E) :The silent language , Greenwich(Conn.) Fawcett. 1959.
- Searl (J-R): Speech acts, Cambridge University Press,1969.
- Austin (J) : Quand dire, c'est faire , Paris Ed du Seuil , 1962.
- Certeau(M) :1980 , L'Invention du quotidien,: I .Arts de faire, Paris, Bourgois 10/18.
- Lindenfeld(J): 1971 , Verbal and Non verbal Elements in discourse, Semiotica, III.
- Warning (R) : Rezeptionsästhetic, Munich, W.Fink ed 1975.
- // : Pour une pragmatique du discours fictionnel, Poétique, XXXIX
- Berthet (F) : Eléments de conversation, Communication, xxx. 1979
- Guiraud(P) : Le langage du corps , Paris , PUF , 1980.

المكونات الدينامية للتبليغ*

لـــ: بيرنار بوتي
ترجمة: رشيد بن مالك

1.المنظورات الثلاث:

لا يمكن أن نتكلم عن الظواهر اللسانية دون أن نوضح المنظور الذي نتخذه. إن الفرد الذي يستعمل اللغة يلقى نفسه إما في وضعية **الباث** وإما في وضعية **المتلقي** ، منتقلا في ذلك باستمرار من هذه الوضعية إلى تلك. أما اللساني، فإنه يحتل موقع الملاحظ الساعي إلى استنباط الآليات التي يمكن أن تعمل على تجلية هذا الاشتغال المضاعف. فهو في الوقت نفسه الباث، والمتلقي، الذي يفكر في كفاءاته، ويبحث عن العمليات المشتغلتين في هاتين الوظيفتين التبليغيتين: **تصور المسار المدلولي** (من مقاصد *القول* إلى التجليات اللسانية)، و**تأويل المسار الدالي** (من النصوص أو الرسائل المركبة إلى بناءات المعنى التي تمكننا من الفهم).

من هذه المنطلقات، يحاول **اللساني** إعادة تشكيل التبليغ اللساني الكامل، محافظا في ذلك على التوازن بين اللجوء إلى الاستبطان والحدس من جهة ، وملاحظة التبادلات التبليغية من جهة أخرى (التحريات ، المدونات...).

وإذا كانت كلمتا **باث** و**متلقي** تغطيان وقائع على درجة كبيرة من التنوع (شخصيات وسيطة، أجهزة، تناوبات متنوعة)، فإننا سنخصص مصطلح **اللافظ** للمتصور المسؤول على الرسالة، و**المؤول** للمرسل إليه المعني مباشرة بهذه الرسالة.

*.نص مأخوذ من : Bernard Pottier , Sémantique générale , PUF,Paris, 1992,p.16-22

2. مسار اللافظ:

يتخذ اللافظ لنفسه نقطة انطلاقة مرجعية **(مر)** قد تتنوع طبيعتها(شم، صوت، نظرة، ذكرى، نص الآخر...). فهو يعي **برغبته في القول** في اللحظة التي يمفهم (مف) فيها قصديته في التدليل. ينبغي أن يُودع هذا التنظيم الذهني المقترن بصيرورة التدليل في العلامات، من خلال ما يقدمه النظام السيميائي من وسائل.

ونعني بالنظام في هذه الحالة اللسان الطبيعي(لط) الذي يتكون أيضا من نظامه اللغوي، بالقوة والإضمار، ومن آليات التلفظ التي تمكن من إنجاز التحقيقات الخطابية.

يجدر بنا أن نميز في المصطلحية بين **النماذج الجملية** في **اللسان** التي تتضمن المدلولات بالقوة، و**ملفوظات الخطاب** المحقق والحاملة للمعنى.

ولتكن المقطوعة الآتية **للمسار المدلولي:**

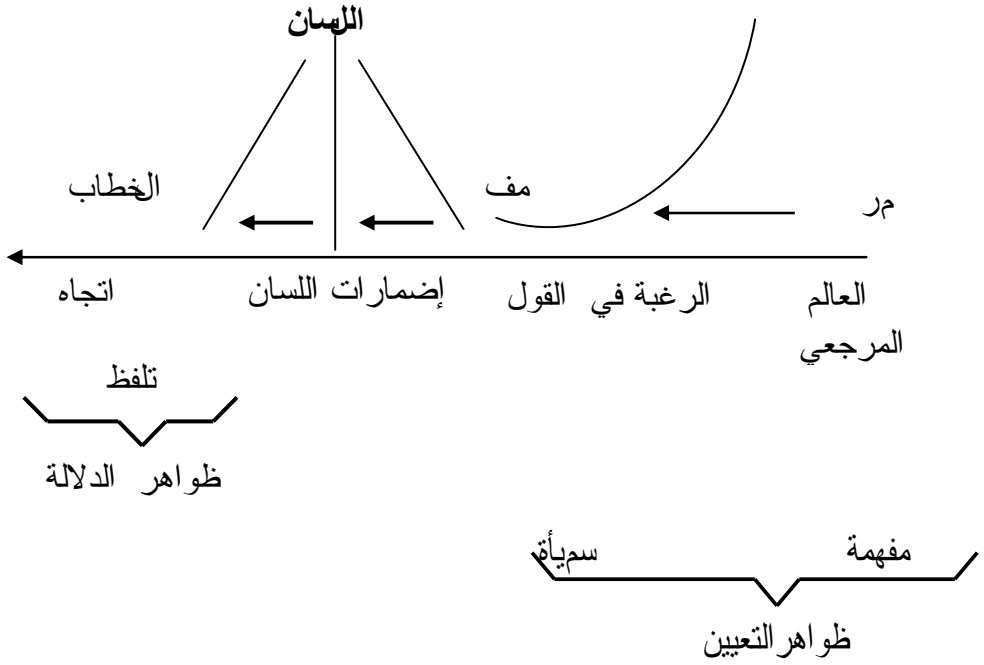

وتوسعا بالتعميم، نلاحظ أن المرجعي غير محدود، وأن الرغبة في القول موجـــزة (كيفما كانت سعة تجلياتها الدلالية)، وأن اللسان يقدم مجالا رحبا محددا بدقة(إن الآلـــيات

النحوية محددة بقوة، غير أن حدود المعجم الذي يعرفه الفرد غـــامضة)، وأن الخطـــاب الملاحظ وحيد،خصوصي دوما، وهو بمثابة العبارات النادرة المتصلة.

3.مسار المؤول:

في الحالة الخاصة بالتبادل اللساني، يتخذ المؤول نقطة انطلاقته النص، الشفوي أو المكتوب. وبفضل معرفته المتعددة (باللسان والعالم ومُحدِّثِه...)، يقوم بتحديد العناصر الخطابية في سبيل بناء فرضية معنى تقوده إلى *فهم* الرسالة، ونعني بذلك أنه يتمثلها ذهنيا، يمفهمها ليتنصل بسرعة عن علامات اللسان الطبيعي التي ضبطها سلفا وسخرها للفهم.

تأسيسا على هذا، فإن رد فعل المؤول يتسرب عبر طرق متعددة، نلقى تجلياتها في إجابته **باللسان الطبيعي**، في تفكيره، وفي الفعل الذي يمارسه على العالم.

تتقدم مقطوعة **المسار الدالي** على النحو الآتي:

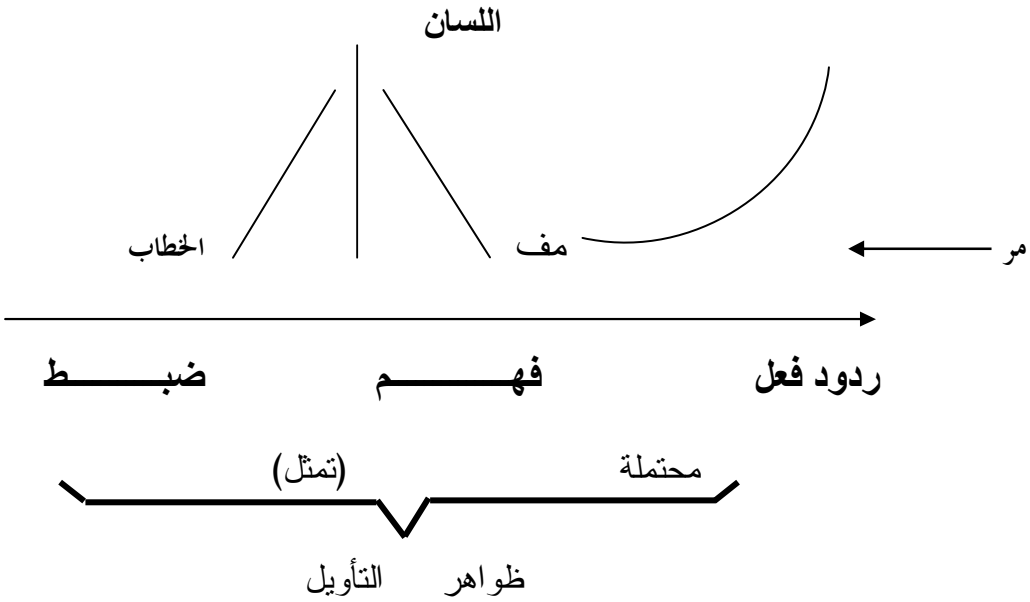

نحتفظ بالملاحظات نفسها المقيدة سلفا بخصوص التوسع بالتعميم.

4. توليفة اللساني:

إن اللساني الذي يرغب في إبراز هاتين الآليتين المتكاملتين واللامتماثلتين ينظر في:

– **المرجعي:** عالم الانطلاقة أو الوصول، وهو اختياري بما أن المفهومي في تفرده يمكن أن يشكل منطلَق اللافظ (ذاكرته)، ووصول المؤول(تحيينه في الذاكرة)؛

– **المفهومي:** مكان التمثل الذهني الذي أضحى مستقلا عن الألسن الطبيعية والأنظمة السيميولوجية الأخرى، ومقر الإخراج؛

– **اللسان:** بوصفه **معرفة**(معجم و نحو الكفاءة) حيث يتحقق تحيين العلامات والقوالب، أو ضبطها إذا تعلق الأمر بالمؤول؛

– **الخطاب:** في وظيفته المضاعفة للنتيجة الملاحظة بعد وضعه في سلسلة، وقاعدة لانطلاق المؤول.

تمثيل مبسط **لـ المسار المدلولي:**

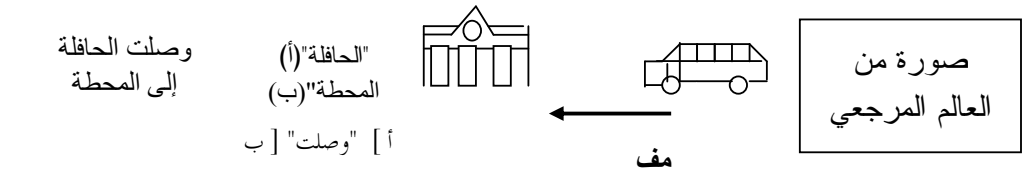

رسم الحوار:

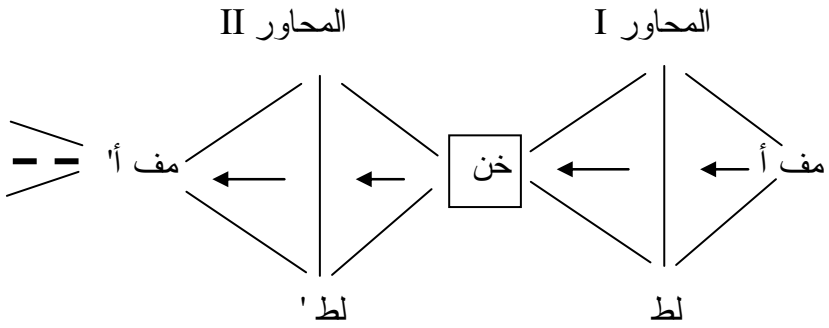

إذا كانت كفاءتا اللسان (ل ط، ل ط') متقاربتين، فإن المضمون المفهومي للانطلاقة (أ) يكون قريبا أيضا من المضمون المفهومي للوصول(أ'). ويعد الخطاب النهائي(خن) النقطة المشتركة الملاحظة في الحوار.

رسم الترجمة:

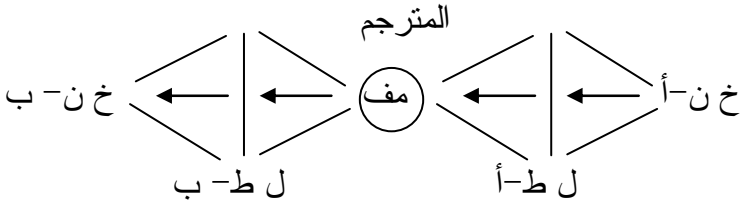

يعد المترجم صانع الأعمال في مهمته . فهو يحول النص أ إلى تمثل ذهني يعيد قولـــه في اللسان ب، بهدف الوصول إلى النص ب. إن النقطة المشتركة، "المفهوم قيـــد الترجمـــة" يشكل التنظيم المفهومي (الفصل السادس).

5. الفراشة الدلالية:

إذا تناولنا الأمكنة الأربعة الخاصة بالعمليات الموصوفة، وإذا أضفنا إلى كل ذلك المحاورين الأنا والأنت، فإن هذا سيفضي بنا إلى وضع رسم شمولي نسميه "فراشة دلالية".

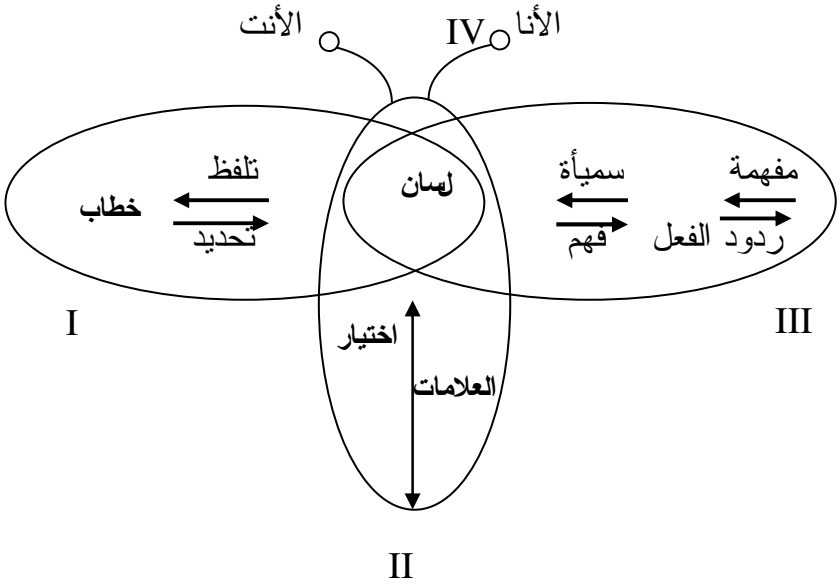

I. **الدلالية المرجعية:** تفحص العلاقات بين العالم، المفهمة وأنظمة الألسن الطبيعية. إنها تدرس ظاهرة **تعيين** الأشياء الحقيقية أو الخيالية، وبشكل إضافي الإحالة على أشياء العالم.

II. **الدلالية البنيوية:** تهدف إلى توضيح الحوافز التي تقف وراء اختيار **العلامات** في لسان محدد، بتحليل سمات (السيمات) مدلول هذه العلامات في علاقتها بالدال.

III. **الدلالية الخطابية:** تصف آليات انتقال اللسان إلى خطاب، والعكس صحيح.

يتعلق الأمر بوجود معرفتي فعل متكاملتين. وتتحول مدلولات اللسان إلى دلالات في صلب الخطاب، وموضوعة في سياق .

IV . **الدلالية التداولية:** تولي أهمية لعلاقات المعرفة والإرادة القائمة بين المتحاورين، الذين يحددون بشكل كبير مضمون وشكل الرسائل (الفصلVX).

إن التوسع في كل واحدة من هذه **الدلاليات المتكاملة والمتعايشة** سيكون له وزن متغير جدا في هذا المؤلف، بسبب الوضع الراهن للبحث لهذه المادة في هذا المجال. وستظهر

اعتبارات تركيبية في أي لحظة، لأن التركيب يمرر المعنى، على نحو ما يؤكد ذلك أ.ويرزبيكا (83، ص. 1):

« If semantics is to be defined as a study of meaning encoded in natural language the syntax is simply one part of semantics".

6. الدلاليات المستقلة:

إلى جانب الدلاليات الأربعة المشكلة للخطة اللسانية، يمكن أن نفترض ثلاث دلاليات أخرى، نعتبرها مهمة لاعتبارات عديدة.

إن **السيميائية النصية** تتخذ التحقيقات اللسانية، المتسمة بالسعة على نحو تقريبي، موضوعا لها، وتهدف إلى استنباط البنينات التنظيمية الكبرى لـِ *لمعنى*. وتمثل أعمال أ.ج.غريماس A.J.Greimas ومدرسته في هذا الاتجاه مثالا حيا **(30،29)**. إن النص هو في الواقع نقطة الانطلاقة الوحيدة الملموسة للساني، وفيما تنطبق الآليات الدلالية العامة على كل أبعاد التحويلات إلى علامات، فإن السيميائية النصية تبقى في مدار اهتمامات اللساني. ولكننا نلاحظ أنها تشتغل في الأعم الأغلب على الترجمات(بالقوة)، وهذا يعني أنها تتخلى بالضرورة عن العديد من خصوصياتها المربوطة بغنى التجليات الخاصة باللسان الطبيعي. وبهذا المعنى، تتصل خطتها عموما بتلك المتصلة بالمفهمة.

تضم **السيميولوجيات المتوازية** مجموعة الأنظمة السيميولوجية المستعملة بشكل موازٍ مع النظام اللساني. ولئن كنا نلمس، في الغالب، هذا في الأمثلة المرئية (رسم، صورة، صورة شمسية)، فإننا نسجل ظهور تنوع أنظمة أخرى(الموسيقى، الروائح، استعارات اللمس والذوق). إن نبرة السلسلة الصوتية، أو التنوعات الطباعية للكتابات تقدم تفاعلات قوية بين النظام اللساني والسيميولوجيات الأخرى (الفن الخطابي أو الخطي). يمكن (أو ينبغي في أغلب الأحيان) أن يدمج سلوك المحاور، حركاته، إيماءاته، واستعماله للفضاء في وصف **الرسالة**.

إن الدلاليات غير اللسانية أسست لذاتها، وتستعمل الأمثلة المستمدة من الألسن الطبيعية بشكل ثانوي. تمرر الرياضيات المعنى المصطلح عليه كونيا، بحيث يكون دائما مقبولا:$(أ+ب)^2 = أ^2+ب^2+2$ أ ب. إن للمنطق تجانسه الخاص، ولا يصير قابلا للنقد إلا عندما

يرغب في تمثيل قضاياه بمقطوعات في اللسان الطبيعي. غير أنه يمكن أن يكون نفيسا في طرق تقديم ظواهر المعنى(الفصلV).

7. حوصلة:

وصلنا الآن إلى صياغة مجموعة من سبعة مجالات دلالية، يمكن أن تدمج في تفكيـــر اللساني. وقد قمنا بذلك تبعا لدرجات اجتهدنا في التمييز بينها:

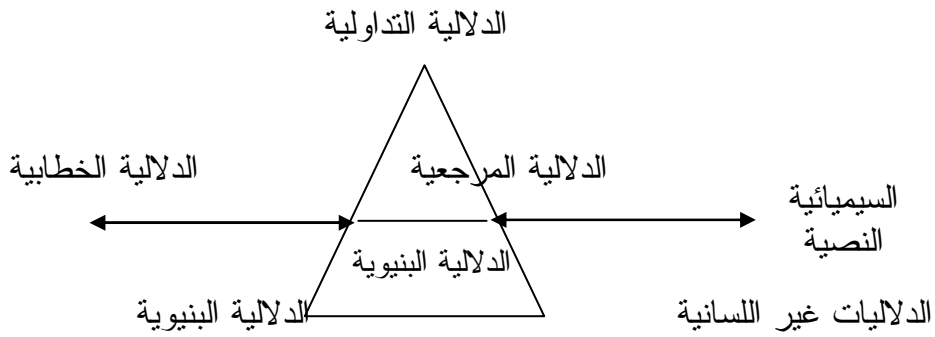

ثبت المصطلحات الأساسية في النص:

émetteur	الباث
récepteur	المتلقي
onomasiologique	المدلولي
sémasiologique	الدالي
énonciateur	اللافظ
conceptualisation	المفهمة
interprétant	المؤول
le referentiel	المرجعي
concepteur	الممفهم
sémantique pragmatique	الدلالية التداولية
sémiologie	السيميولوجيا
sémiotique	السيميائية

علم النفس اللغوي ولغــة الإشـــــارات

لـــ: فرانسوا جروسجين
ترجمة:السعيد بوطاجين

الوصف اللساني والواقع النفساني للغـــة الإشـــــارات

مع أن التحليل اللساني للغة الإشارات مازال في بداياته الأولى، إلا عددا من الدراسات التجريبية شرعت في ضبط الواقع النفساني لبعض مظاهر التنظيم البنائي للغة الإشارات، كما يبرزها اللّسانيون.

كان علم النفس اللغوي للغات الشفوية في الستّينيات يتجه هذه الوجهة: التأكيد على أن بعض النماذج اللسانية كان لها واقع نفساني ولغوي. وهكذا أبرزت دراسات حول الاستذكار، الإدراك في الضجة، الاسترجاع والتحقّق، أهمية بعض مظاهر النحو التحويلي العام، وعدم جدوى مظاهر أخرى في نموذج الإنجاز.

تعدّ هذه المرحلة من علم النفس اللغوي مرحلة مهمّة، من حيث أن عالم النفس اللغوي أدرك أنّه لا يمكن تبنّي نموذج الكفاءة في مجملها كصيغة انجازية (انظر فودور، بيفير، وجاري، 1974)، لهذا اتجه الآن نحو دراسات تهتم بإنتاج اللغة، وإدراكها، واستيعابها.

نسجل، من هذا المنظور، بأنه من المهمّ تحديد مواطن الاختلاف بين الدراسات حول الواقع النفساني في لغة الإشارات، وبين الدراسات الكلاسيكية حول اللغات الشفوية.

يتمثل الفرق الأول في عدد هذه الدراسات. إنها قليلة لأن البحث في لغة الإشارات حديث العهد، وهناك عدد معتبر من العلماء الذين هم على وعي بالمتاعب التي تكتنف هذا النوع من البحث.

أما الاختلاف الثاني فيكمن في النماذج اللسانية المنعدمة، أو المنقوصة كثيرا- والحال أنه عادة ما يكون النظام المعتاد للبحث "نموذج- واقع نفساني" نظاما مقلوبا.

فعلا، اقترح بعض الباحثين، انطلاقا من معطيات تجريبية، (مع ما يمكن أن ينجرّ عنها من أخطار) وصفا للغة الإشارات، (أنظر على سبيل التمثيل دراسة لان، بويز- برايم وبولوجي [1976] على مستوى السمات المميزة لمظهر اليد، ودراسة جروسجين ولان [1977] فيما يتعلق بالبنية السطحية للغة الإشارات الأمريكية).

سنقدم فيما يلي، باختصار شديد، أهم النتائج التي تم التوصّل إليها، ثم نمرّ إلى مظاهر أخرى خاصة بعلم النفس اللغوي للغة العلامات، من حيث أنها تبدو لنا أكثر أهمية: الإدراك، الاستذكار، وإنتاج هذه اللغة.

يرى ستوكوي (1960، 1966) بأن كلّ إشارة تتجزأ إلى ثلاث ثوابت: مظهر اليد (أو الأيدي)، مكان تمفصل الإشارة وحركة الإشارة، أو انتقالها.

أضاف باتيزون (1974) إلى هذه الثوابت ثابتة رابعة: اتجاه اليد (أو الأيدي).

كان السؤال الذي يثير اهتمام الباحثين يتمثل في معرفة ما إذا كانت الإشارات مقسمة فعلا إلى ثوابت من قبل المتكلمين- الملاحظين، أم أنها، ببساطة، ثمرة الوصف اللساني (ومن ثم ليس لها واقع نفساني).

والحال أن هذا الواقع برهنت عليه دراسات كثيرة. لاحظ بولوجي، كليما وسيبل (1975) في دراسة حول الاستذكار على المدى القريب لقوائم الإشارات، أن أخطاء التذكر لم تعد مرتبطة بمعنى الإشارة الأصلية، بل ببنية تشكلها.

تختلف أخطاء الإشارة المحفزة على مستوى ثابتة تكوينية أو أكثر (مظهر اليد، الحركة، ...إلخ). ما يؤكد الأسس المتينة لعلم النفس اللغوي الخاص بالوصف «الصوتي» التي بنى عليها ستوكوي.

تؤكد معاينة الأخطاء المرتكبة أثناء إنتاج لغة الإشارات الأمريكية (ل. إ. أ) واقع ثوابت تشكّل الإشارات.

لم تؤكد الدراسات، الخاصة باللغة الشفوية، التي اهتمت بأخطاء الإنتاج، ثبات بعض وحدات الوصف: اللفظ، الصائتة، والعلامة المميّزة، مثال (أنظر فرومكين، 1971، 1973، جاريت، 1975) فحسب، بل إنها أبانت بشكل واضح قوانين التشكيل المستعملة في إعداد المقاطع اللفظية، والكلمات، نيوريك، كليما، بيدرسن وبولوجي (1978) أثناء تحليل 131 خطأ في إنتاج (ل. إ. أ).

لقد كان الهدف إبراز صحة انتظام الإشارات وفق ثوابت، وإثبات بعض قواعد تشكيل الإشارات (قاعدة تناسق الأيدي في الإشارات باليدين على سبيل المثال).

سنلاحظ أنه تمّ بلوغ هذا الهدف بطريقة مثالية. لاحظ المؤلفون أن أخطاء معدودة (7%) لها علاقة بتبادل الإشارات كاملة، ويتعلق أغلبها، في واقع الأمر، باستبدال قيمة ثابتة بأخرى، ما يبيّن، على الفور، صحّة انتظام الإشارة وفق ثوابت.

خمسون بالمئة (50%) من هذه الأخطاء تخص مظهر اليد، 10% موضع تمفصل الإشارة، و8% لها علاقة بالحركة التي تمنح للإشارة.

تنقسم هذه الأخطاء إلى ثلاث فئات: أخطاء التبادل، حيث يتم استبدال قيّم الثابتة س في إشارات أو ب، (مثال: عندما يتم تبديل مظهر يد سيك [«المريض»]، ومظهر يد بورينج [«المتعب»]؛ أخطاء الاستباق حيث تستعمل قيمة الثابتة س للإشارة ب في الإشارة أ استباقا (مثال: في جدول MAN [«رجل»]، FATHER [«أب»]، GIRL [«فتاة»] فإن آخر إشارة، **فتاة**، توصل بالجبهة، موضع **الأب**، وليس بالخدّ، الموضع الحقيقي، أخطاء التكرار الآلي، حيث يتم الحفاظ بقيمة الثابتة س للإشارة أ في الإشارة ب.

يجب الإشارة أن هذه الأنواع من الأخطاء تمّت معاينتها على مستوى الثوابت المهمة (مظهر اليد أو الأيدي، موضع تمفصل حركة الإشارة)، وعلى مستوى ما يُدعى بالثوابت «الصغرى» (توجيه اليد أو الأيدي، مكان اتصال الإشارة ونظام اليدين في الإشارة باليدين).

أسهمت الأخطاء التي استخرجها نيوكارك، كليما، بيدرسن، وبولوجي في إثبات استقلالية ثوابت التكوين، كما رسّخت، من وجهة نظر علم النفس اللغوي، بعض قواعد تشكل الإشارات.

ومع أن بعض الأخطاء كانت تنتهي إلى إشارات قائمة في ل. إ. أ، فإن أغلبها كان ينتج إشارات فرضية، لكنها منعدمة (اتضح أن 4% فقط من الأخطاء غير ممكنة في ل. إ. أ).

انبنت هذه الأخطاء تأسيسا على قواعد توليفية مضبوطة للغاية، اهتم المؤلفون بوصفها وتدوينها في دراستهم. تنطبق هذه القواعد، على سبيل المثال، على موضع نقطة التقاء الإشارة مع الجسد، أو على تناظر الإشارات التي تستعمل يدين اثنتين.

تشترط هذه القاعدة الأخيرة أن تكون حركة اليدين، في الإشارة باليدين، حيث تكون كل يد حركيّة، حركة مماثلة (باتيسون، 1974). تطبق هذه القاعدة أثناء تشكيل 21 خطأ من 22، وهي تحدّد بذلك استعمالها أثناء إنتاج لغة الإشارات.

استنتج نيوكارك، كليما، بيدرسون، وبولوجي، من خلال دراستهم، بأن أخطاء الإنتاج تؤكد جيّدا الواقع النفساني لثوابت تكوين العلامات واستقلاليتها، وهي بذلك تقدّم حجة أخرى على وجود قواعد وإكراهات موظفة في إنتاجها.

يخطو البحث عن الواقع النفساني لبنى لغة الإشارات وقواعدها خطوة معتبرة مع دراسة لان، بويز- برايم، وبولوجي (1976)، الخاصة بتنظيم مظهر اليد وفق علامات مميّزة.

بيّنت أعمال كثيرة حول اللغة المنطوقة بأن الظاهرة لا تتمثل في أصغر وحدة من التحليل اللساني، كانت تبدو هي العلامة المميزة. (شومسكي وهال، 1968، ميللر ونيسلى، 1955، ويكرلجران، 1965، 1966).

لقد أراد لان، بويز- برايم، وبولوجي (1976) أن يبيّنوا ما إذا كان مظهر اليد قابلا للتجزئة إلى علامات مميزة، ما إذا كان أحد هذه النماذج قادرا على التنبؤ بالأخطاء المرتكبة أثناء تجربة معاينة بتواجد «تشويشا بصريا».

إذا حدث أن تمّ تبرير وصف قائم على العلامات المميّزة كلغة إشارات، فهذا يعني أن التحليل المؤسس على العلامات ليس مخصوصا على الصيغة السمعية، بل إنه متجذّر في عمق الخصائص السمعية لمعالجة اللغة البشرية.

استعمل المؤلفون طريقة مشابهة لطريقة ميللر، ونيسلي (1955)، لكنها مكيّفة مع الصيغة البصرية.

تم تسجيل سلسلة من الإشارات المفرغة من المعاني، وقد كانت تمثل المظاهر العشرين لليد، كما تم مزجها «بتشويش بصري» لجعل إدراك الإشارة أكثر صعوبة.

تتمثل وظيفة الصمّ في معاينة مظاهر اليد المقدّمة، وبمجرد أن تملأ السّجلات يتم تحليلها بوساطة منهاج المبدأ التراتبي (أندراد 1978)، والعرض المتعدد الأبعاد (شيبار، 1962، 1972).

أظهر هذا التحليل تنظيما لمظاهر اليد شديد الخصوصية، وكانت درجة امتداد الأصابع أهم أمارة. استعمل لان، بويز- برايم، وبولوجي (1976) هذه المعطيات؛ لاقتراح نموذج لمظهر اليد في علامات مميّزة.

من ضمن العلامات الثنائية الإحدى عشرة التي تمّ استخراجها، ها هي العلامات الثلاث الأكثر أهمية: [ملتحم]، [ممدد]، [متلازم]. مثال، يقال إن المظهر «ملتحم»، عندما لا توجد أية أصبع ممددة، ويقال إن المظهر «ممدد»، عندما تكون ثلاثة أصابع أو أكثر ممددة، ...إلخ.

يتوقع النموذج المقدم الأخطاء إلى درجة ط= 0, 6، كما أنه يتلاءم مع أخطاء الاستذكار، وإنتاج الإشارات. ومع أنه تمّ الأخذ حاليا بدراسة لان، بويز- برايم، وبولوجي (1976) وتوسيعها، (يقترح ستوجي، 1978، نموذجا من العلامات المتتابعة، وليس من العلامات المميّزة) فقد كانت أول دراسة تبيّن أن إحدى ثوابت تشكل الإشارات (مظهر اليد) قابلة للانقسام إلى علامات مميّزة، لتقترح نموذجا، انطلاقا من المعطيات التجريبية، (أشرنا سابقا إلى أن النماذج اللسانية في اللغة الشفوية كانت تسبق المعطيات التجريبية بعدة سنوات في أغلب الأحيان).

هناك دراسات على مستوى أعلى، أي مستوى الجملة، لقد تم القيام بها بنجاح، ولكنها قليلة، وهذا يعود إلى عدم وجود نحو مكتمل أو جزئي لنحو لغة الإشارات الأمريكية، يمكن

لهذه الأعمال أن تؤسس عليه. (ينظر، مع ذلك، بحوث ستوكوي، 1960، 1966: ماك كال، 1965، فيشر 1973، 1975، كيجل وويلبور 1976).

تبيّن بعض الدراسات المنجزة أن التركيب في لغة الإشارات يلعب دورا مهمّا في معالجة اللغة من قبل الباث– الملاحظ، وأن المكوّنات هي وحدات تركيبية.

لاحظ هومان، وفلوريان، 1976، على مستوى أعمّ، أن عناصر الجملة في ل. إ. أ. أقل وضوحا عندما تقدّم في غير انتظام، في حين أنّها أكثر وضوحا عندما تكون العناصر منتظمة، ويكون استذكار الجملة أفضل عندما تكون الإشارات منسجمة مع النّظام النحوي المتوقّع.

قدّم توينى وهايمان لبعض الصمّ جملا معلّمة، ومقطوعات من الإشارات اللانحوية، وتحتوي كل جملة أو مقطوعة على إشارة ليست ذات معنى.

لقد وجدا أن استرجاع الإشارات التي لا معنى لها والإشارات الحقيقية أفضل داخل الجمل منه في قوائم الإشارات، وإذ بيّنا بذلك أهمية البنية النحوية للجملة أثناء تفكيك اللغة، تحدّث (توينى، هايمان، وهومان [1977] عن الرسالة المسهبة لتفسير هذه النتيجة، وكذلك النتائج التي توصّلوا إليها أثناء بحثهم الخاص بمعاينة الجمل المتقطعة على فترات منتظمة).

هناك دراسات أخرى اهتمّت عن قرب بالوحدات الوظيفية للغة الإشارات. يلاحظ باكير، وبادن (1978)، على سبيل المثال، أن لحظة طرف عيون الباحث والملاحظ تحترم حدود المكوّنات. لقد تمّ الكشف عن اختلاجات العيون ما بين الذات والمسند إليه، ما بين الفعل والموضوع المباشر، وما بين مقياس الزمان وبقية الجملة.

كما بيّن توينى، ليدل، بولوجي (1978) أن الواقع النفساني للغات النسبية في ل. إ. أ. لقد استعملوا سبعة نماذج من الجمل المتباينة، بداية من الجملة البسيطة (فعل، فاعل، مفعول به)، مرورا بالجملة التي تحتوي على مضاف إليه، وصولا إلى مستويات أخرى.

نُقلت هذه الجمل على آلة تسجيل، بترتيب فوقي «للتشويش البصري» على طريقة لان، بويز– برايم وبولوجي (1976)، وقُدّمت لأفراد كانت مهمتهم تتمثل في تقريبها قدر الإمكان.

تمّ قياس احتمال الخطأ في السلسلة اللفظية لكل انقطاعات الجملة، وبيّنت النتائج أن هناك احتمالا كبيرا لارتكاب الخطأ في المعاينة في حدود الجمل أكثر منه بداخلها. واستنتج المؤلفون أن بنية الجمل النسبية التي اقترحها ليدل (1977) والتضمين بشكل عام، لهما واقع نفساني.

هناك تقنيات أخرى استعملت لتطويق أهمية النحو في لغة الإشارات، كان جروسجين، ولان (1977) مثلا، يرغبان في التأكّد ممّا إذا كانت مدّة الوقفات في ل. إ. أ. (تتجلى هذه خصوصا بتوقف اليدين ما بين إشارتين) قابلة لتحديد الجمل والمكوّنات المباشرة، كما كانا يرغبان في التأكّد مما إذا كانت التوقفات بين الإشارات (تأسيسا على سرعة بطيئة) قادرة على توجيه البحث، في إعداد البنية السطحية للجمل في ل. إ. أ.

نسجل بأن هذه المقاربة، كما هو الحال بالنسبة لمقاربة لان، بويز– برايم وبولوجي (1976)، تهدف إلى استعمال معطيات تجريبية قاعدة لإعداد نموذج لساني.

أمضى خمسة صمّ من مستعملي لغة الإشارات الأمريكية كلغة أولى، نصا من اثنتين وخمسين (52) إشارة، بسرعة ذات خمسة معدلات مختلفة، وقد قدّم تحليل إنتاجها موضع الوقفات ومدّتها.

لاحظ كل من جروسجين، ولان، في بداية الأمر، أن توزيع الوقفات في النص ليس عرضيا: بدت الوقفات الطويلة محددة لنهايات الجملة، في حين أن الوقفات القصيرة تقع داخل الجمل.

ساعد الباحثين فحص توزيع مجموع الوقفات على عزل تلك التي تحدد الجمل، وتقسيم النص إلى 16 جملة ذات معدل طول يقارب 3,25 إشارة. الحدود القصوى الوحيدة: جملة من 6 إشارات، وجملتان من إشارة واحدة.

حصل جروسجين، ولان، بتبطئة السرعة، على قيّم الوقفات بين إشارة وأخرى، ما ساعدهما على البناء التراتبي لكل جملة. إن مجموع هذه البنى يشبه كثيرا البنى السطحية المؤقتة التي وضعها اللّسانيون.

تبيّن مدة الوقفات الانقطاعات ما بين الجمل البسيطة والعبارات المترابطة، إضافة إلى حدود المكوّنات داخل الجمل، وها هي المدة المتوسطة للوقفات، بالنسبة المئوية، ما بين الأصناف وداخل الأصناف. ما بين الجمل: 47 %، العبارات المترابطة: 28 %، ما بين التركيب الاسمي والتركيب الفعلي: 22 %، في التركيب الاسمي: 01 %، في التركيب الفعلي: 02 %.

استنتج جروسجين، ولان، أنه في كل انقطاع تركيبي مهم تكون هناك وقفة قيمية مساوية.

نصل في النهاية إلى ملاحظة الطابع الإيجابي لمجموع هذه الدراسات. لقد بيّنت بأن بعض مظاهر نحو لغة الإشارات (التي ما زالت في طور الإعداد) لها حقيقة نفسانية: تعدّ الوحدات على المستوى الصوتي (العلامات المميزة)، وعلى المستوى المعجمي (ثوابت تشكل الإشارة)، وعلى المستوى الصرفي (المكوّنات، العبارات، الجمل) وحدات وظيفية فعلا في تشفير لغة الإشارات وتفكيكها.

حركة الترجمة بين اللغة الفرنسية واللغة العربية

منذ الثمانينيات من القرن الماضي: "انعكاس للعلاقات الثقافية"

لـــ: ريشارد جاكوموند*

ترجمة: محمد يحياتن

إن الدراسة المقارنة لحركة الترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، والعكس من العربية إلى الفرنسية، تقدم صورة مثالية للتبادل الثقافي غير المتساوي بين لغة مركزية أو مهيمنة (الفرنسية) ولغة تقع على الأطراف أو مهيمن عليها (العربية) (1). قد يبدو تصنيف العربية ضمن اللغات الهامشية مفارقا، ذلك أن العربية هي اللغة الأم لأكثر من 200 مليون نسمة، واللغة الثانية على الأقل لـــ 100 مليون نسمة أخرى، (ما يجعلها تتبوأ المرتبة الخامسة أو السادسة على الصعيد العالمي) (2)، وهي اللغة الرسمية الوحيدة لـــ 17 من بين الـــ 22 دولة عضوة في جامعة الدول العربية، وإحدى اللغات الرسمية لخمس دول أخرى (العراق، السودان، جيبوتي، الصومال، جزر القمر)، وكذا لثلاث دول ليست عضوا فيها (إرتيريا، تشاد، إسرائيل). وفضلا عن هذا، إن العربية، منذ 1973، إحدى اللغات الست الرسمية في منظمة الأمم المتحدة. كما هي لغة التعبير المفضلة للإسلام، الدين الذي يعتنقه أكثر من مليار شخص، ومن الوجهة التاريخية، هي لغة ثقافة كبرى على غرار اليونانية، واللاتينية، والصينية. ومع ذلك، فهي من حيث وزنها في التبادلات الثقافية العالمية أو الاقتصاد العالمي للمعرفة، لغة هامشية. في مقدورنا أن نقيس ونقدّر ذلك، باعتماد العديد من المؤشرات، خاصة ــ باقتفاء آثار يوهان هلبرن ــ عبر حركة الترجمة(3): كانت العربية اللغة الخامسة أو السادسة الأكثر استعمالا في العالم، إلا أنها، حسب دليل الترجمات Index Translationum

تحتل المرتبة السابعة عشرة من حيث عدد العناوين المترجمة منها (9113)، والمرتبة الثلاثين من حيث عدد العناوين المترجمة إليها (9038) (4).

بيد أن قياس الوزن العالمي للعربية من خلال هذا المؤشر يطرح مشاكل مختلفة ينبغي مناقشتها سلفا. حتى وإن كانت هذه المناقشة، كما سنرى، لا تفضي إلى دحض الفرضية التي انطلقنا منها، ألا وهي كون العربية في وضعية المهيمن عليها في التبادلات الثقافية الدولية، كما سيبيّن ذلك فحصنا لحركة الترجمة الحديثة بين الفرنسية، والعربية.

حركـــة الترجمـــة: مؤشر مفيد ولكنه إشكالي:

منذ منعطف الألفية، أخذ تراكم الصراعات والأزمات المختلفة في العالم العربي يذكي خطابا متشائما، لاسيما في وسط النخب العربية التي تبدو اليوم أميل إلى النقد الذاتي، بعد أن ظلت تحمّل الأجنبي الاستعماري (الجديد) مسؤولية "المحنة العربية" (5). وكمثال دال على ذلك، نذكر سلسلة التقارير حول التنمية، البشرية العربية لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية PNUD، وخاصة تقرير سنة 2003 (6). هذا التقرير الذي يحمل عنوانا فرعيا "بناء مجتمع المعرفة" المحرر من قبل فريق من الباحثين العرب، يعرض صورة مهولة كارثية عن الوضع الحالي للعالم العربي، من حيث إنتاج ونقل المعرفة والمعلومة .وقد ذكرت العديد من هذه التحاليل والخلاصات غير مرة، وبثّت عبر وسائل الإعلام العربية والأجنبية، وخاصة الفكرة القائلة بأن العدد الهزيل للكتب المترجمة إلى العربية أحد المؤشرات الأوضح، لأزمة الثقافة العربية المعاصرة:

"إن جل البلدان العربية لم تستخلص الدروس من الماضي، وما زال حقل الترجمة مهملا. فمن حيث الكمية، ورغم ارتفاع عدد الكتب المترجمة في العالم العربي من 175 سنويا خلال الفترة 1970 ــ 1975 إلى 330، فإن هذا الرقم يعادل خمس الترجمات المنشورة في اليونان. كما أن مجموع الكتب التي ترجمت من عهد المأمون إلى يومنا هذا بلغ 10 000 ــ وهو يساوي ما تترجمه إسبانيا في سنة واحدة" . شوقي جلال، (1999، ص 87).

إن هذه الأرقام، بطبيعة الحال، من شأنها أن تصدم الأذهان. والحال إنها أبعد ما تكون عن الواقع. يحيل المصدر المذكور، وهو بحث قصير لمثقف ومترجم مصري (8) على

معطيات صادرة عن مدونة إحصائية، أنجزتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في 1985، في إطار "المخطط القومي للترجمة" الذي ظل حبرا على ورق. والجملة "مجموع الكتب المترجمة منذ عصر المأمون" إلى غاية اليوم هو 10 000، هي نفسها مستقاة من هذه الوثيقة لسنة 1985 .(9) يتعلق الأمر إذن بمعطيات قديمة نسبيا، ولكنها وبخاصة ذات ثغرات وفجوات. ذلك أن **الألكسو** قد استندت آنذاك على المعطيات التي قدمتها الدول العربية التي لم تستجب لطلباتها إلا جزئيا.

إن هذه الدول نفسها قد جمعت بكيفية منقوصة المعطيات البيبليوغرافية التي تضع اليونسكو ــ انطلاقا منها ــ دليل الترجمات المشار إليه أعلاه، وهي قاعدة المعطيات التي تسمح بتحليل الحركات الدولية في مجال الترجمة منذ الثمانينيات. من الوجهة العملية، تتراءى الدول العربية الوحيدة التي تغذي هذا الدليل بشكل مرض: مصر (3502 ترجمة عربية محصاة منذ 1979) وسوريا (1772). تبدو هذه الأرقام قريبة على حد بعيد من الواقع، كما يمكن قياسه عن طريق الملاحظة المباشرة، والاطلاع على قوائم كتب الناشرين في هذين البلدين. وعلى عكس ذلك، فإن المركز الآخر (مع مصر) للنشر العربي أي لبنان، فهو غائب تماما، جراء غياب الإيداع القانوني في هذا البلد: فالدليل لا يقدم سوى 78 ترجمة عربية منشورة في لبنان منذ 1978، في حين نحن نعلم بأنه منذ الستينيات ينشر به على الأقل ما ينشر من ترجمات في مصر. وهكذا أحصى تحرّ قيم به حول ما ترجم من الفرنسية فقط والمنشور بلبنان منذ 1980 ــ تحرّ لم يكتمل مع الأسف ــ أكثر من 1500 ترجمة (10). علما بأن الثغرات المسجلة ذات أهمية كبرى، بالنسبة إلى الدول، حيث قطاع النشر حديث النشأة . هناك تحرّ آخر حول النشر في المغرب الأقصى، أحصى 426 ترجمة عربية من 1985 إلى 2003، مقابل 24 ترجمة فقط مسجلة في الدليل حول الفترة عينها (11). وقد أحصت دراسة حول المملكة العربية السعودية شملت الفترة 1980 ــ 1993: 412 ترجمة، ولم يسجل الدليل سوى 57 ترجمة بالنسبة للفترة نفسها (12).

في الواقع، إلى غاية نهاية الاحتكار المصري اللبناني في مجال الكتاب العربي، والبروز التدريجي ابتداء من السبعينيات ــ للنشر الوطني في جل بلدان المنطقة، تنوع مشهد

النشر العربي كثيرا، ومن الصعوبة بمكان تكوين فكرة دقيقة عن واقع النشر الفعلي، والنسبة التي تمثلها الكتب المترجمة. ودون الدخول في التفاصيل؛ تفضي التوقعات التي يمكن تقديمها، انطلاقا من التحريات المتوافرة، إلى اقتراح تقويم قوامه 2000 ترجمة على الأقل، تنشر سنويا على الصعيد العربي منذ بداية 2000، بما في ذلك ما أعيد نشره وطبعه (13). من باب المقارنة، تعرض السنوات الأخيرة للدليل (2000 إلى 2003) مجموع 2334 ترجمة عربية، أي بمعدل 558 في السنة.

ثمة مقارنة أخرى لافتة للنظر: إذا أخذنا في الحسبان الآن السنوات الأربع الأولى الكاملة للدليل (1980 ــ 1983)، نجد 745 ترجمة عربية (معدل 186 في السنة) (14). بالنسبة إلى مدة عشرين سنة، يسجل الدليل إذن مضاعفة هذه الترجمات ثلاث مرات. وحتى وإن كانت هذه المعطيات تنطوي على ثغرات، فإن التدرج الذي تسجله يبدو مطابقا لواقع السوق، ذلك أن لا شيء يشير من جهة إلى أن نقل المعطيات البيبليوغرافية من الدول العربية نحو اليونيسكو قد تحسن منذ الثمانينيات، ومن جهة أخرى؛ إن زيادة عدد الترجمات تأتي في سياق شهد زيادة قوية لإنتاج الكتب في العالم العربي، وهذه الزيادة مرتبطة أولا ــ كما أسلفنا ــ بتنوع مراكز الإنتاج. بعبارة أخرى، ينبغي الاقتناع بفكرة؛ مؤداها أن الحصة النسبية للترجمات في الإنتاج العربي لم تزد، أو زادت قليلا، وتدور حول 5 %، وهذا قليل إذا قورن بالترجمات في البلدان الأوربية، باستثناء (بريطانيا العظمى) ولكن هذا يطابق واقع السوق الصينية مثلا.(15)

إن نظرنا الآن في الترجمة انطلاقا من العربية صوب اللغات الأوربية الكبرى لاسيما نحو الفرنسية، فإن الدليل يصبح أداة ذات مصداقية، بما أن المعطيات هذه المرة هي تلك التي وفرتها المكتبة الوطنية الفرنسية أو ما شاكلها. وهكذا ندرك أن المساواة الظاهرة لحركة الترجمة الداخلية intratraduction (9038) مدخل والخارجية extratraduction (9113) التي قد توهم بأن العربية هي في وضع تبادل ثقافي متساو تماما، هو في الواقع خداع للبصر، مرده إلى الفرق في نوعية المعطيات الإحصائية التي تم جمعها .

يطرح معيار حركة الترجمات كمعيار للتبادلات الثقافية بين بلدين أو رقعتين لغويتين، مشكلا آخر في حالة العربية. فلكي يكون هذا المعيار حصيفا حقا، لا بد أن نقارن بين رقعتين أحاديتي اللغة، منيعتين نسبيا، مثل فرنسا والبلدان المنخفضة، التي قام بتحليلها يوهان هلبرن .غير أن الرقعة اللغوية العربية (ومن ثم سوق الكتاب العربي) تتميز بعدم اكتمال سيرورة التعريب. فبعد الفترة الاستعمارية الموسومة بالنهضة الثقافية العربية، وبفرض الفرنسية، والإنجليزية، ونشرهما في أوساط النخب المحلية، واكبت الاستقلالات سياسات تعريب منتظمة إن قليلا أو كثيرا، وناجعة كثيرا أو قليلا، ولكنها لم تبلغ غايتها أبدا باستثناء سوريا. إن النخب العربية التي هي أكثر استهلاكا للمكتوب، اليوم وأمس، ما زالت تلتجئ إلى الكتاب المدون بالإنجليزية، أو بالفرنسية، إما بنسب عالية (البلدان المغاربية)، أو بنسب متواضعة (المشرق).

يعاني الكتاب المترجم من الضعف البنيوي لسوق الكتاب العربي بوجه خاص. في المجتمعات الأوربية، سبقت عملية محو الأمية على أوسع نطاق وتلقين المطالعة، بوصفها نشاطا ترفيهيا فرديا، قلت سبقت بروز الوسائل السمعية البصرية، الأمر الذي مكّن الكتاب من مقاومة هذه الوسائل مقاومة حيوية. أما في العالم العربي، فقد فرضت هذه الوسائل نفسها على مجتمعات أمية إلى حد بعيد، بحيث لم تتجاوز المطالعة نخب المدن. وبالإمكان قياس ذلك بالحضور المحتشم في الأسواق العربية، للكتب العالمية الأكثر مبيعا، من قبيل آقاتا كريستي، وجول فرن أو ــ كي نعتمد أمثلة حديثة ــ ج.ك.رولنغ وباولو كوويلو: فهؤلاء المؤلفون ترجموا إلى العربية ولكن بمبيعات أضعف من تلك الحاصلة في أوربا، أو أمريكا الشمالية .وهذا الضعف ليس مرده إلى أسباب ودواع ثقافية، فالقارئ العربي يحتاط من المخيال الأوربي، والأمريكي، كما بيّن ذلك نجاح المسلسلات الأمريكية، والرسوم المتحركة اليابانية، لدى المتفرجين العرب. بل إن الصلة بالكتاب بحسبانه متاعا رمزيا، والمطالعة من حيث هي ممارسة اجتماعية هي المطعون فيها. وبشكل أدق، ربما بالصلة بنوع من الممارسة للمطالعة: نشاط ترفيهي ومجاني ذو متعة، لأن أنواعا أخرى من الكتب تقاوم جيدا الوسائل الإعلامية الجديدة وتجد جمهورا متزايدا: الكتب الدينية من جهة، والكتب التربوية والعلمية

من جهة أخرى. هناك تصور نفعي للمطالعة: الكتاب استثمار ننتظر منه دخلا في هذا العالم أو ذاك. ففي مصر، ولبنان، وغيرهما، نجد في هذين القطاعين (الكتاب الديني والكتاب التربوي والعلمي) دور النشر الأقوى.

الترجمـــة من الفرنسيـــة إلى العربيـــة:

إن الضعف النسبي لحركة الترجمة إلى العربية لا يجب إذن أن يؤول بكيفية أحادية الاتجاه. بعد أن وضحنا هذه المسألة نقول إن ملاحظة حركة الترجمة بين الفرنسية والعربية غنية مع ذلك بالدروس والعظات على عدة مستويات.

منزلة اللغة الفرنسية بحسبانها لغة مصدرا:

استنطاق إحصائيات الدليل المذكور غير مرة في هذا الشأن، يجب أولا إبطال نوع من الشذوذ: إلى غاية 1991، كانت الروسية تمثل 31.7 % من الترجمات العربية المحصاة من قبل الدليل (1329 مدخل من مجموع 4191). غير أن جل هذه الترجمات نشر في الاتحاد السوفياتي سابقا (1172 من مجموع 1329 أي 88.2 %) إن طرحنا من الإحصائيات هذه الترجمات المنشورة في الاتحاد السوفياتي، نلاحظ بأن حصة الفرنسية والإنجليزية معا مستقرة: قرابة 75 % من الترجمات، في حين تتقاسم اللغات الأخرى الربع الباقي. ولكن في صلب هذه 75 %، فإن النسبة ليست في صالح الفرنسية، حيث تسقط من 20.7% إلى 12.4 %.

الجدول 1 ــ اللغة الأصل للكتب المترجمة إلى العربية (دون احتساب الكتب المترجمة المنشورة).

في الاتحاد السوفياتي:

اللغة	1980 ــ 1989	1990 ــ 1999	2000ــ 2005
الإنجليزية	1106 (%54.1)	1588 (%57)	1571(% 64.6)
الفرنسية	423 (%20.7)	431 (% 15.5)	303 (%12.4)
الألمانية	104 (%5.1)	124 (%4.5)	112(% 4.6)
الروسية	124 (%6.1)	83(% 3)	70 (%2.9)
الإسبانية	47 (% 2.3)	87 (%3.1)	67 (%2.8)
الإيطالية	25 (%1.2)	31 (%1.1)	37 (%1.5)
لغات أخرى	217 (%10.6)	443 (%15.9)	272 (%11.2)
المجموع	2046(% 100)	2787 (%100)	2432 (% 100)

بعبارة أخرى، وباستثناء حالة الروسية الخاصة، فإن الفرنسية هي اللغة الوحيدة التي شاهدت تقهقر مكانتها بشكل جدي خلال هذه المرحلة. والسؤال الواجب طرحه يتمثل في معرفة ما إذا كان هذا التطور المسجل من قبل الدليل سيؤكد أو سيبطل من قبل معطيات أكثر اكتمالا. بالنسبة إلى لبنان، الغائب الأكبر في الدليل، تبيّن الملاحظة المباشرة (انطلاقا من قوائم الناشرين خاصة) تطورا مماثلا، أي تقهقرا نسبيا لحصة الفرنسية لصالح الإنجليزية.

مكانة الفرنسية بحسب البلدان:

في الجدول التالي لم نحتفظ إلا بالبلدان التي يقدم الدليل عنها عددا دالا وذا بال (أكثر من 100) من الترجمات.

البلـــــد	المجمــوع	ترجمة من الإنجليزية	ترجمة من الفرنسية
مــصــر	3502	2723 (%77.8)	269 (%7.7)
ســوريا	1772	710 (%40.1)	466 (%28.5)
الكويــت	532	244 (%45.9)	70 (%8.4)
العربية السعودية	404	316 (%78.2)	9 (%2.2)
الأردن	280	179 (%63.9)	26 (%9.3)
الجزائــر	219	33 (%15.1)	131 (%59.8)
تــونــس	160	27 (%16.9)	98 (%61.3)

الجدول 2 ــ الترجمات إلى العربية بحسب كل بلد عربي

إن الفرنسية متغلبة بشكل بيّن على الإنجليزية، بحسبانها لغة مصدر في مستعمرات المغرب القديمة. ففي المغرب الأقصى، الغائب في هذا الجدول، نجد أن الفرنسية هي لغة أصل لـــ 87.5% من مجموع 539 ترجمة عربية حصرها محمد الصغير جنجر، خلال الفترة 1955 ــ 2003 (16). بالنسبة إلى المشرق، نعدم مع الأسف إشارة دقيقة إلى العلاقة فرنسية ــ إنجليزية بلبنان: توحي قوائم الناشرين بأن الفرنسية ما تزال منتصرة على الإنجليزية، غير أن الفارق بين الإثنتين قد تقلص في العشر أو الخمس عشرة سنة الأخيرة. في سوريا، تجاوزت الإنجليزية الفرنسية التي كانت اللغة المصدر الأولى إلى غاية الثمانينيات. أما الدول الأخرى المذكورة في هذا الجدول، فهي بالأحرى ذات تقاليد أنجلوفونية، ومن ثم فإن الإنجليزية هي التي تهيمن، بوصفها لغة أصلا أو مصدرا .كان في مقدورنا أن نتصور بأن هذه الهيمنة أقل وطأة في مصر، التي ظلت مدة طويلة ترعى نوعا من الميل إلى الفرنسية وثقافتها، كي تحد من التأثير البريطاني. والحال إن حصة الفرنسية في الترجمات تبدو أضعف مما هي عليه في الأردن، والكويت.

أصـــناف الكتـــب المترجمـــة من الفرنسية إلى العربية:

هل يعود تدني منزلة الفرنسية إلى فقدان جاذبية هذا القطاع أو ذاك للإنتاج النشري الفرنسي؟ في هذه النقطة، يلاحظ أن موقع الترجمات العربية طريف. ذلك أنها تمتاز بالنسبة الضعيفة نسبيا التي يحتلها الصنف "الأدبي": ثلث الترجمات، في حين يقدر هذا الصنف في السوق العالمية بـــ 50 %. وهذا يعزز الملاحظة التي أدلينا بها – أعلاه – حول النزعة "النفعية" لسوق الكتاب العربي. أما فيما يتعلق بالترجمات من الفرنسية، فقد زادت حصة الأدب، المساوية لحصة مجموع اللغات الأصل في بداية الفترة (38 و36 تباعا) زيادة جلية بعد ذلك إذ بلغت 56 % في السنوات 2000 ـ 2005.

الجدول 3 : تطور الترجمـــات إلى العربية بحسب الأصـــناف:

	1989 ـ1980		1999 ـ1990		2005 ـ2000	
أصـــناف الكـــتـــب	جميع ما ترجم من اللغات الفرنسية		جميع ما ترجم من اللغات الفرنسية		جميع ما ترجم من اللغات الفرنسية	
أدب	745	163	864	181	814	170
أبحاث، علوم اجتماعية وإنسانية	715	166	897	170	692	98
ديـــــن	174	10	384	22	204	10
أخـــرى	412	84	642	58	722	25
المجمـــوع	2046	423	2787	431	2432	303

المـــصـــدر IndexTranslationum:

بالنسبة إلى صنف "الأبحاث essais والعلوم الإنسانية والاجتماعية" (القائم على أساس تجميع ثلاثة أصناف من التقسيم العشري لليونسكو: فلسفة وعلم النفس، الحقوق، العلوم الاجتماعية، والتربية، التاريخ، الجغرافيا، والسيرة)، فإن نسبتها تتقلص نسبيا في جميع

اللغات وكذلك الحال حين ننظر في الترجمات الفرنسية بمفردها. لقد احتفظنا بصنف "الدين" على حدة، للوقوف على تطوره في فترة اتسمت بتعاظم "الكتاب الإسلامي" في المنشورات العربية (17): ارتفعت حصته في التسعينيات قبل أن تنخفض إلى مستوى الثمانينيات. تبيّن الملاحظة المباشرة أيضا تقهقر حضور هذا الصنف من الكتب في السوق، وكأن أوج الموضة قد ولى. ومن اللافت للنظر أيضا؛ أن عددا قليلا من الترجمات من الفرنسية، ينتمي إلى هذا الصنف. أخيرا، يضم صنف "كتب أخرى" الأصناف الأربعة الأخيرة للتقسيم العشري المعتمد من قبل اليونسكو (عموميات، قواميس، طبيعة وعلوم دقيقة، علوم تطبيقية، فنون، ألعاب، رياضة). ونجد هاهنا خاصة مجال "الكتاب العلمي" . وهذا الصنف آخذ في التوسع، (انتقل من 20 إلى 30%) بجميع اللغات الأصل، ولكنه تقهقر بالنسبة للترجمات من الفرنسية، (من 20 إلى أقل من 10 %) تطور يطابق ما يمكن ملاحظته في الميدان، مع الحضور المتنامي في الأسواق للترجمات العربية للكتب الأمريكية، من قبل Selp Help، وعلم النفس العائلي، والمعلوماتية، مرورا بالاقتصاد والتسيير.

في الخلاصة، يمكن القول إن النزعات التي يمكن استخلاصها انطلاقا من إحصائيات دليل الترجمات غير مواتية كثيرا للغة الفرنسية، فحصتها الشاملة في الترجمات العربية في تناقص بيّن منذ الثمانينيات. في أهم البلدان العربية التي تنشر ترجمات، تتراءى الفرنسية إما بعيدة جدا خلف الإنجليزية (مصر)، أو في انخفاض وتقهقر (لبنان، سوريا)، وكان من شأن وضعيتها أن تصبح أكثر سوءا، لولا بروز سوق للكتاب العربي المترجم في البلدان المغاربية. أخيرا، من حيث الأصناف، إن صعود الأدب والانخفاض المتزامن للترجمات العربية للأبحاث، والعلوم الإنسانية، والاجتماعية والكتب العلمية والعملية الفرنسية قد ينمّان عن انكماش ما للترجمات من الفرنسية، وتقوقع على الصورة التقليدية "الأدبية" للثقافة الفرنسية.

إلى أي مدى يمكن لسياسات دعم الترجمة الخارجية أن تحد من هذا التقهقر؟ بالنسبة إلى الرقعة العربية، سمحت برامج مساعدة النشر لوزارة الشؤون الخارجية بمساعدة 800 عنوان منذ 1990، ولكن الأمر يتعلق فقط بنصف الترجمات، أما النصف الآخر فيتمثل

في التنازل عن الحقوق لمنشورات محلية بالفرنسية (18)، ولا بد أن نضيف إلى هذا مساعدات الترجمة الخارجية للمركز الوطني للكتاب (وزارة الثقافة): من 1989 إلى 2003 قدمت 300 مساعدة للعربية(19) . ويمثل مجموع الترجمات العربية التي تمت مساعدتها من قبل السلطات العمومية الفرنسية قرابة 700 عنوان على امتداد 15 سنة، وهو رقم يجب مقارنته بالـــ 734 ترجمة من الفرنسية إلى العربية، المحصاة من قبل دليل الترجمات، بالنسبة إلى الفترة 1990 ـ2005 (أنظر الجدول 1). صحيح أننا أشرنا – أعلاه – إلى أن الرقم الحقيقي للترجمات العربية هو ثلاثة أو أربعة أضعاف الرقم المسجل في الدليل. وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا سيعني بأن ثلث أو ربع الترجمات العربية من الفرنسية المنشورة في العالم العربي منذ 1990 قد استفاد من المساعدة العمومية الفرنسية: وهذا لعمري دال على أهمية هذه السياسة الداعمة للترجمة الخارجية، فيما يتعلق بالرقعة العربية .

ترجمـــة أم عـــودة إلى الأصـــل ؟:

قبل إعمال النظر في الحركة العكسية، أي في الترجمة من العربية إلى الفرنسية، سنتوقف عند مجال لا ندري في أي جهة من الحركة يقع: نقصد الحديث عن الترجمة العربية لإنتاج حجم مدوّن بالفرنسية، ولكنه يعنى بالعالم العربي، سواء تعلق الأمر بالأدب المتخيل والقصص المختلفة والأبحاث، أم بكتب العلوم الاجتماعية، سواء كان مؤلفوها فرنسيين (رحالة، مهاجرون، باحثون، صحافيون، إلخ) أم عربا، أم كانوا عربا فرنسيين معا، عندما يتعلق الأمر بكتاب ومثقفين أو باحثين عرب مقيمين منذ مدة طويلة بفرنسا، مثل الروائي الطاهر بن جلون، وأمين معلوف، أو الباحث في الإسلاميات محمد أركون، وهم مؤلفون ترجمت أعمالهم كثيرا إلى العربية.

بالفعل،هناك ميزة تسم التبادل الثقافي بين فرنسا والعالم العربي، تتمثل في كون هذا التبادل يستغني عن الترجمة.في العصر الحديث ــ العهد الاستعماري وما بعد الاستعماري ــ قامت معرفة وتصور للعالم العربي بفرنسا، من خلال وساطة الحقل الإستشراقي أكثر من قيامها على الاستيراد، عبر الترجمة، والمعارف، والتصورات المصوغة بالعربية. وفي الوقت ذاته، أمست الفرنسية جراء الاستعمار وظلت، بعد الاستقلالات، وبفضل سيرورات

أكثر تعقيدا لغة لشريحة هامة من النخب الأدبية، والفكرية العربية، سواء تعلق الأمر بفاعلين أقاموا في شمال أم جنوب المتوسط أم المتنقلين من هنا إلى هناك، حسب السياقات السياسية، وفرص العمل.

لقد أحصى تحرّ أجراه معهد العالم العربي حول إنتاج الكتب الفرنسية لسنة 1986: 529 عنوان يتعلق بالعالم العربي من مجموع 18800 مؤلف جديد. ومن بين هذه الـــ 529 عنوان، 500 كتب بالفرنسية، أو ترجم من لغة أوربية، و29 عنوانا مترجما من العربية (وعلى نحو ثانوي من التركية والفارسية والعبرية) (20). يمكن القول بأن الغلبة للترجمات في صنف واحد هو الدين (11 عنوانا، مقابل 8 مدونة بلغة أوربية) وأنها أكبر عددا في صنف الأدب، (14 عنوانا مقابل 58 كتب أصلا بلغة أوربية). بعد سنوات، اصدر معهد العالم العربي تحت عنوان (Ecrivains arabes d'hier et d'aujourd'hui كتّاب عرب من الأمس واليوم) بيبليوغرافيا للأعمال الأدبية المتوافرة في النشر الفرنسي في نهاية 1995 : (21) إلى غاية هذا التاريخ، من مجموع 280 مؤلف عربي معاصر منشور في فرنسا، 205 منهم يكتبون بالفرنسية و75 ترجموا إلى العربية. وهذا يبيّن تطور الترجمة من العربية (سأعود إلى هذا لاحقا) ولكن أيضا استمرار بل تطور الإبداع العربي ذي اللسان الفرنسي. ونظرا لعدم توافر بيبليوغرافيا كاملة وحديثة جدا، يمكن العودة إلى البيبليوغرافيا المنتخبة الفرنسية ــ العربية Bibliographie sélective France-Arabe المنشورة في 2005 من قبل (22) ADPF، التي تضم أكثر من 3000 عنوان. إن ما يلفت النظر في هذه المطبوعات، هو الحضور المكثف ــ الأكثر أهمية مقارنة بالماضي ــ لمؤلفين في العلوم الإنسانية، والاجتماعية، أصولهم من البلدان العربية، وبخاصة من المغرب الأكبر. في الحقل الفكري، أو الأكاديمي، كما في الحقل الأدبي، تجلب الكتابة بالفرنسية مباشرة امتيازات مادية ورمزية بيّنة.

عندما نطلع على بطاقات دليل الترجمات وقوائم الناشرين العرب، نلاحظ أن كل هذا الإنتاج بالفرنسية حول العالم العربي ــ سواء تعلق الأمر بالإنتاج المشرقي بالمعنى الواسع أم بإنتاج المؤلفين الذين يكتبون بالفرنسية ــ مترجم إلى حد بعيد إلى العربية. غير أنه من الصعوبة بمكان بل من المستحيل تقدير أهميته الكمية بدقة، لأنها تعبر أصناف التقسيم

العشري المعتمد من قبل الدليل وجل البيبليوغرافيات، ولكنها دون ريب إحدى أولويات الترجمة العربية المعاصرة. في هذا الباب، أفضى الجرد الذي قمنا به حول قائمة " البرنامج القومي للترجمة" وهو برنامج مصري عمومي كبير انطلق في 1995، إلى النتائج التالية: من مجموع 1000 عنوان التي تتضمنها القائمة المنشورة في 2006، 95 منها تتعلق بمصر (حضارة مصرية، ثقافة ومجتمع معاصران) و110 تعنى بالعالم العربي و/أو الإسلامي و50 عنوانا آخر كتب أصلا بالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، من قبل كتّاب عرب (جلهم مصريون). في المجموع إذن 255 من 1000 (25.5 %) هي من قبيل ما يمكن تسميته بالعودة إلى الأصل: إعادة امتلاك ــ بالعربية ــ لمعارف، وتصورات عن الذات، دونت بلغات أخرى .

الترجمـــة مـــن العربيـــة إلى الفرنســـيـــة:

كما أسلفنا، إن دليل الترجمات هاهنا أداة أكثر مصداقية، من حيث إن المعطيات المقدمة من قبل الإيداع القانوني الفرنسي أكثر اكتمالا. وكما سنراه، فإنها تطرح مشاكل أخرى، ولكننا سنستعملها من أجل إضاءة أولى شاملة. أحد الأبحاث المقترحة من قبل الدليل يدعى Top 10 للبلدان التي تترجم من لغة بعينها. وبشكل دال ولافت، نجد فرنسا على رأس Top 10 للبلدان التي تترجم من العربية، مع 1222 بطاقة، من مجموع 9113، أي 13.4% متقدمة على إسبانيا بـــ 929، وألمانيا بـــ 696. أما الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى فتتبوآن تباعا المرتبتين السادسة والعاشرة. كما نجد أيضا في Top 10 هذا ثلاثة بلدان إسلامية: (تركيا، إيران، أندونيسيا) وهذه مناسبة للتذكير بأنه إذا كانت العربية لغة مهيمنا عليها في المبادلات مع اللغات الأوربية، فإنها توجد في وضعية المهيمن في مبادلاتها مع الرقع اللغوية الأخرى للعالم الإسلامي .

لكن لنعد إلى فرنسا . عند فحص التطور عبر الزمن، نلاحظ تغيرا جليا في حوالي سنة 1990: فإلى غاية هذه السنة، نشرت في فرنسا ما بين 10 و28 ترجمة من العربية سنويا (معدل 20). انطلاقا من1991 ، لم ينشر أبدا أقل من 30، مع بلوغ الذروة بـــ 109 في 2001 (معدل 68 سنويا). وكما يبين ذلك الرسم أدناه، فإن هذا التغير خاص بفرنسا: على الصعيد

العالمي، لم يرتفع عدد الترجمات من العربية بشكل دال في هذه المرحلة، باستثناء حالتين من الذروة في كل من عامي 1999 و2004 واللتين صعب تفسيرهما.

وعلى عكس ما تقدم، نعلم أن عدد الترجمات المنشورة في فرنسا قد ازداد بشكل قوي: فعندما يصدر معدل 20 ترجمة من العربية سنويا بفرنسا (فترة 1979ـ1990)، فإن معدل الترجمات الفرنسية هو 3179 عنوان في السنة. في الفترة التالية (1991ـ2004) حيث لدينا معدل 68 ترجمة من العربية في السنة، يلاحظ أن معدل مجموع الترجمات قد انتقل إلى 7209 عنوان في السنة. بعبارة أخرى، ازدادت "حصة سوق" العربية في الترجمات الصادرة في فرنسا، منتقلة من 0.6 إلى 0.9 % ولكنها تبقى في مستوى ضعيف للغاية .

لكي نفهم الطفرة الكمية الحاصلة في فرنسا في حوالي 1990 لابدّ من تدقيق التحليل، وفحص أنواع الكتب المترجمة، بالاطلاع على القوائم التي يوفرها الدليل في كل صنف.

الأصناف المذكورة أدناه لا تطابق بدقة الأصناف الواردة في الدليل، ومن أجل استنطاق صنف "الأدب"، قمنا بجرد وتوزيع بطاقاته إلى ثلاثة أصناف فرعية: الأدب الحديث، الأدب الكلاسيكي وحكايات ألف ليلة وليلة. في صنف "الدين" اقتصرنا على الإبانة عن ترجمات القرآن. أما الصنف "كتب أخرى" فيضم الأصناف الثمانية الأخرى للتقسيم العشري المتبنى من قبل الدليل. فيما يتعلق بالترجمات العربية، بدت تصنيفات الدليل غير دقيقة تماما. ذلك أن الكتب القديمة لا تنقاد إلى هذا النوع من التصنيف: هكذا نجد بأن ترجمات الفيلسوف الصوفي الكبير ابن عربي تصنف أحيانا في الأدب، وأحيانا أخرى في الدين، وأحيانا في الفلسفة. كما أن الاختيارات التي أجريت بالنسبة إلى الكتب الحديثة مدعاة للاعتراض: من ذلك مثلا السير الذاتية العديدة لكتّاب عرب محدثين، التي صنفت في التاريخ، والجغرافيا، والسيرة، وليس في الأدب. قمنا إذن بإعادة إدراجها في "الأدب الحديث" مع عناوين أخرى أسيء تصنيفها، وقبل تجميع هذا الكل المصطلح عليه بـــ "كتب أخرى" قمنا بفصل المؤلفين الكلاسيكيين عن المؤلفين المحدثين، الأمر الذي كشف الندرة الجمة لترجمات الأبحاث السياسية، أو نصوص العلوم الإنسانية، والاجتماعية العربية المعاصرة، (قرابة خمسة عشر عنوانا على امتداد الفترة1979 ـ2004).

من فترة إلى أخرى، ارتفعت جميع الأصناف والأصناف الفرعية، ولكن أساس الارتفاع أو الزيادة مصدره صنفان من هذه الأصناف: الأدب الحديث (من 177 إلى 345 بطاقة): + 448% وعلى نحو أكثر لفتا للانتباه صنف الدين (من 46 إلى 309 بطاقة: +672%). هذا الرقم الأخير يصور جيدا بروز سوق "الكتاب الإسلامي" في فرنسا وبالفرنسية، انطلاقا من السنوات الأولى للتسعينيات (23)، ويمكننا بسهولة أن نميز ــ ونحن نتصفح هذه الـــ 309 بطاقة لكتب الدين المترجمة من العربية إلى الفرنسية، بين الكتب التي تنتمي للنشر الفرنسي الكلاسيكي في المجال (أساسا ترجمات القرآن)، وكتب الإسلاميات، والتصوف (والكتب التي هي من قبيل هذا النوع الجديد من النشر الموجه لجمهور المسلمين في فرنسا) جل البطاقات). بالفعل، يتعلق الأمر أساسا بكتب التربية، والتنوير الديني الإسلامي، لمؤلفين كلاسيكيين، أو (في أغلب الأحيان) معاصرين، فرضت ترجمتها نفسها في سياق تعاظم الممارسة الدينية في وسط هذه المجموعة أو الجالية التي يتعذر علي الأغلبية الساحقة منها قراءتها بالعربية.

قبل أن نعود مطولا إلى ترجمة الأدب العربي الحديث في فرنسا، نود أن نقول كلمة قصيرة حول الصنف الذي اصطلحنا عليه بـــ "حكايات ألف ليلة وليلة". يتناول الدليل الإصدارات العديدة لألف ليلة وليلة بوصفها، ترجمات، علما بأن جل هذه الطبعات مصورة ومحلاة بحكاية أو عدة حكايات مختارة، (هي نفسها دائما: علاء الدين، علي بابا، السندباد...) وليست في الواقع ترجمات، ولهذا السبب تتبوأ ألف ليلة وليلة المرتبة الأولى في Top 10للمؤلفين الأكثر ترجمة من العربية حسب الدليل، مع 1010 بطاقة متقدمة بكثير القرآن (501)، ونوبل الآداب المصري نجيب محفوظ (361). ولكن وبمعزل عن ألف ليلة وليلة، نجد العديد من الترجمات الفرنسية لحكايات عربية، موجهة هي الأخرى للفتيان. ويتعلق الأمر جزئيا بطبعات مزدوجة اللغة فرنسي ــ عربي، وهذا يوحي بأن الجمهور المعني هو أساسا جمهور الفتيان الفرنسيين ذوي الأصول العربية، الذين سيستأنسون بلغتهم وثقافتهم الأصليتين.

ازدهـــار الأدب العربي الحديث في الترجمة الفرنسية:

لقد شهد الأدب العربي الحديث الذي رأى النور في العقود الأولى من القرن العشرين في المراكز الحضرية لمصر والمشرق وفي العواصم الأوربية والأمريكية للهجرة، ازدهاره الفعلي بعد الحرب العالمية الثانية، وأخذ يشع تدريجيا على الرقعة العربية برمتها. إن الإنتاج الروائي الدال، كما وكيفا، في المغرب، وحديثا في الجزيرة العربية، لم يبرز إلا منذ السبعينيات. إنه أدب فتي، ومن الوجهة المنطقية فإن ترجمته هي الأخرى حديثة جدا.

من 1948 إلى 1968، لم تصدر سوى 19 ترجمة فرنسية لأعمال أدبية حديثة: بالكاد ترجمة واحدة سنويا (24) بعد 1967، وحرب الأيام الستة، أعطى بروز القصة الفلسطينية وبوجه عام التيار الثالثي (نسبة إلى العالم الثالث)(tiersmondiste) حضورا جديدا للثقافة العربية المعاصرة. في السبعينيات، ظهرت الترجمات الأولى الإنجليزية، والفرنسية للكاتب السوداني الطيب صالح (المولود في1929 والمصري نجيب محفوظ (1911 ــ 2006)، والفلسطيني غسان كنفاني (1936 ــ1972)، والمغربي محمد شكري (1935ــ2003)، والشاعرين محمود درويش (فلسطيني، المولود في 1942) وأدونيس (سوريا ــ لبنان، المولود في 1931) إلخ. يتعلق الأمر كما نلاحظ بكتّاب شباب آنذاك، يبدو نجيب محفوظ عميدا بينهم. إن ترجمته المتأخرةPassage des miracles، وهي الترجمة الفرنسية الأولى، التي ظهرت في 1970، (أي 23 سنة بعد صدور الأصل العربي) تبرز الجهل المترتب عن انغلاق فرنسا على الثقافة العربية في الخمسينيات والستينيات .

كما يتجلى البعد النضالي لهذه اللحظة المؤسسة لترجمة الأدب العربي في ملمح الفاعلين (مترجمين، ناشرين، مؤسسات). وأهم ناشر في هذا المجال هو سندباد Sindbad، الدار التي أنشأها في 1972 بيار برنارد، التي تخصصت في المجال العربي، (مع تغلغل طفيف في المجالين التركي، والفارسي). وقد صارت هذه المبادرة ممكنة، بفضل اتفاق مع الحكومة الجزائرية، سمح لسندباد بتصدير ما بين ثلث ونصف إنتاجها للجزائر (25). وفضلا عن سندباد، نجد بعض الترجمات من العربية لدى دار ماسبيرو، ومينوي ومسيدور، (ناشر مرتبط بالحزب الشيوعي الفرنسي)، أو في الدور الصغيرة المنشأة أو الممولة من قبل فاعلين

عرب، مثل (Publisud, Sycomore) ، أما المنشورات لدى كبار الناشرين للأدب الأجنبي فهي متأخرة جدا، ونادرة: لا بد من انتظار 1978 لإيجاد رواية مترجمة من العربية في سلسلة "من العالم بأسره" Du Monde entier، وهي رواية للفلسطينية سحر خليفة " Chronique du figuier barbare"، و1985 بالنسبة إلى سلسلة الإطار الأخضر Cadre vert في منشورات سوي :Seuil رواية جمال الغيطاني " الزيني بركات".

هذا وقد كانت سنة 1985 منعرجا: "(...) بعد 1985، لم تسجل أي سنة اقل من 10 عناوين صدرت في مجال الأدب العربي المعاصر (...) من 1990 إلى 1994، تجاوز المعدل الـــ 17 عنوانا في السنة، ومن 1995 إلى 2000 بلغ 25 عنوانا (26)". كما شهدت سنة 1985 أيضا انطلاق سلسلة (Lettres arabes آداب عربية) في دار لاتيس Lattès، بدعم مالي قوي من معهد العالم العربي...حيث صدرت من 1985 إلى 1990 إحدى عشر رواية، ومجموعات قصصية مترجمة من العربية. نلاحظ هاهنا أهمية الدعم العمومي العربي (تمويل الجزائر لسندباد)، والدعم الفرنسي ــ العربي (معهد العالم العربي) (27) خلال هذه الفترة الرائدة بالنسبة للأدب العربي الحديث في فرنسا.

تسارع هذا المدّ بفضل النجاح التجاري النسبي الذي ظفر به نجيب محفوظ، بعد استلامه جائزة نوبل للآداب في 1988، الجائزة الوحيدة الممنوحة لكاتب عربي إلى يومنا هذا. تحتل مؤلفات محفوظ مكانة مرموقة في المجموع (4 عناوين مترجمة إلى الفرنسية قبل جائزة نوبل، 32 من 1989 إلى 2006). لقد أفادت هذه الحركة خاصة الكتاب المصريين، واللبنانيين، الذين يهيمنون على الإنتاج العربي (28). أما البلدان الأخرى فهي قليلة التمثيل، إما لأنها هامشية في الفضاء الأدبي العربي، (الجزيرة العربية، المغرب) أو لأسباب سياسية، أكثر، (سوريا، العراق). وعلى عكس ذلك، نجد أن الأدب الفلسطيني مترجم نسبيا، وهنا أيضا لأسباب سياسية. من جهة أخرى، انطلاقا من 1990، اختفى الدعم الخاص (الجزائر، معهد العالم العربي) المشار إليه أعلاه، وأعقبه الدعم العادي للترجمة الداخلية للمركز الوطني للكتاب...الذي خصص أيضا لتظاهرات Les Belles Etrangères للآداب العربية : مصر (1994)، فلسطين (1997)، الجزائر (2003)، لبنان (2007).

لقد تبوأ الأدب العربي الحديث اليوم إذن مكانة صغيرة في مجال النشر الفرنسي، وتكون رصيد ذو بال من النصوص. غير أن ما تم يبقى هشا. فحسب التعداد الذي قام به مود ليونهارد سانشين الذي شمل 379 إصدار من 1979 إلى 2000 (بما في ذلك إعادة الطبع) لا نجد سوى قلة قليلة من النصوص المترجمة (10%) قد نشرت أو أعيد نشرها لدى كبار الناشرين) قاليمارد، لوسوي، ألبان ميشال، فلاماريون)، وأن 25 % كانت من صنع ناشرين صغار (ترجمات شعرية أساسا)، بينما 42 % من صنع ناشرين "تتمحور سياستهم النشرية حول القضايا المتعلقة بالعالم العربي، والعالم الثالث"(29). أما البقية، فهي من فعل ناشرين ذوي مشروع سياسي (مسيدور، دي فام، لوسرف). إن أغلبية المنشورات إذن إما غير مرئية كثيرا peu visibles، أو محصورة في شبكات نشرية، تنزع إلى حشر الأدب العربي في رقعته الجغرافية، أو إلى تسييسها فوق اللازم.

ومن حيث التوزيع، يلاحظ أن نجيب محفوظ هو الوحيد الذي بلغ أرقام سحب هامة (أكثر من 10 000 نسخة). هناك بعض المؤلفين يتراوحون اليوم ــ بالنسبة لعناوينهم الأكثر مبيعات بين 5000 و10 000 نسخة: المصريان صنع الله إبراهيم وجمال الغيطاني، واللبنانية حنان الشيخ، ومواطنها إلياس خوري. إن الغيطاني وإبراهيم وخوري مؤلفون متميزون لجيل الستينيات: تظل رواياتهم ــ بتجاوزها النزعة الطبيعية ــ وفية إلى حد بعيد للنموذج المزدوج للواقعية والالتزام. وهذا يصدق أيضا على روايات حنان الشيخ التي تمتاز (من وجهة النظر "التجارية") بتركيزها على وضع المرأة (أنظر أدناه). إن الدواوين الشعرية لمحمود درويش تباع بعدد هائل من النسخ وهو نجاح يغبطه عليه شعراء فرنسيون مشهورون، ولكنه قائم على تلقّ أو استقبال مسيـّس فوق اللزوم. أخيرا منذ 2006 حاز الادب العربي المترجم إلى الفرنسية أول كتاب شهد رواجا منقطع النظير(best seller : L'immeuble Yacoubian عمارة يعقوبيان)، عن منشورات Actes Sud, 2006 وهي أول رواية للمصري علاء الأسواني التي بيع منها حسب الناشر 150 000 نسخة في مدة 18 شهرا...يؤكد نجاح عمارة يعقوبيان النزعة التي أشار إليها المؤلفون المهيمنون على سوق الأدب العربي الحديث

المترجم، من محفوظ إلى إلياس خوري، أي هيمنة القراءة الإثنوغرافية و/أو السياسية لهذا الأدب ــ وهو الوضع الذي يشترك فيه مع آداب أخرى مهيمن عليها.

ثمة سمة أخرى لهذه السوق، وتتمثل في المكانة الخاصة التي خولتها للنساء. في 1961، نشرت لوسوي "أنا أحيا" ! Je vis وهي سيرة ذاتية لفتاة لبنانية ليلى بعلبكي في قطيعة مع الأخلاق السائدة في بلادها: ترجمة استثنائية بالنظر إلى سرعة إنجازها (ثلاث سنوات بعد صدور النص الأصلي) وسياقها، (هي الترجمة الوحيدة لكاتب عربي حديث أصدرها بفرنسا ناشر كبير جدا بين 1948 (طه حسين كتاب الايام، قاليمار) و1978 (سحر خليفة، الرواية المذكورة أعلاه). هذا الاستثناء التاريخي ينمّ عن الاستقبال الخاص للكاتبات العربيات في الفضاءات الأدبية المركزية، وهو استقبال تتمازج فيه الغرائبية(...) والتسييس، التضامن مع قضية المرأة العربية المقهورة.

الثابت أن العقبة اللغوية، سواء بالنسبة للنساء كما الرجال، حاسمة: فمن آسيا جبار التي تنشر منذ الخمسينيات إلى غاية الأجيال الجديدة (نينة بوراوي، مليكة مقدم، ومايسة باي...)، تتمتع الكاتبات ذوات اللسان الفرنسي بمنزلة أفضل من منزلة أخواتهن ذوات اللسان العربي. غير أن هؤلاء افضل حالا من زملائهم من ذوي جنس الذكور. تكشف مقارنة تواريخ صدور الأصول والترجمات بأن مؤلفات النساء تترجم بسرعة أكبر من ترجمة مؤلفات الرجال: ففضلا عن الأمثلة القديمة لليلى بعلبكي، وسحر خليفة (...) يمكن أن نذكر أيضا الجزائرية أحلام مستغانمي، لدى ألبان ميشال في سلسلة الترجمات الكبرى (ذاكرة الجسد2002، وفوضى الحواس، 2006) أو اللبنانية نجوى بركات، في سلسلة Cosmopolite لدى ستوك (Le bus des gens bien, 2002)، ليس هناك كاتب عربي ترجم قبلهن في هاتين السلسلتين.

كما أن الغرائبية والتسييس المشتط يسمان استقبال الكاتبات العربيات: الأكثر ترجمة والأكثر مقروئية هن اللواتي تؤكد أعمالهن أكثر هذه التصورات للمرأة العربية "المقهورة" و/أو الجنسانية sexualité المنحرفة أو الجموحة. إن هذه الموضوعات لم تعن بها الأجيال الجديدة للكاتبات العربيات التي ترجمت بعض أعمالهن إلى الفرنسية (المصريتان سمية رمضان، ومي التلمساني، الفلسطينية أدانية شبلي). وهن بذلك في توافق مع تطورات الفضاء

الأدبي العالمي (...) والحقل الأدبي الفرنسي، حيث تحتل الكتابات الفردانية، لاسيما النسوية مكانة ممتازة. ورغم قيمتهن الأدبية فهن يعانين مصاعب جمة، في سبيل فرض أنفسهن (حركة نقدية ضعيفة، مبيعات هزيلة). وهنا أيضا يبدو أن الفضاءات الأدبية المركزية تسعى إلى إبقاء الآداب المهيمن عليها في دائرة الوثيقة الإثنوغرافية، والشهادة السياسية، أي حصرها في نموذج الواقعية والالتزام، وحرمانها من الحق في استرجاع قيمها الأكثر استقلالية، والأكثر عالمية...

في الخلاصة، يمكن القول ــ في سياق يتزايد فيه عدد الترجمات المنشورة تزايدا دالا، سواء في السوق الفرنسية (بحوالي الضعف) أم السوق العربية (بثلاث مرات) ــ بأن التطورات الحاصلة متباينة. ففي السوق العربية، حيث يسعى الكتاب إلى تغطية أطياف الإنتاج كله، نجد أن حصة الفرنسية في تناقص، غير أن لغتنا تقاوم بشكل جيد في نقاطها القوية التقليدية (الآداب، العلوم الإنسانية)، وأن وجود سياسة دعم قوية للترجمة الخارجية منذ 1990 عامل حاسم في هذه المقاومة. ثمة عنصر آخر يتمثل في النمو القوي لإنتاج الكتاب حول العالم العربي (الحقل الاستشراقي والكتّاب العرب ذوو اللسان الفرنسي)، إنتاج ما فتئ يترجم إلى العربية. وعلى عكس ذلك، تتعاظم الترجمة من العربية في السوق الفرنسية للكتاب، وهذا منذ 1985 1990، جاعلة فرنسا في مقدمة البلدان التي تترجم من العربية في العالم. وهذه الحركة الترجمية تظل محصورة تقريبا في المجالين الأدبي، والديني. ولئن كان الإنتاج العربي الكلاسيكي مهيمنا في السابق، فقد تجاوزه أيما تجاوز الإنتاج المعاصر، سواء في الأدب أم في الدين. وهكذا نرى من خلال مجموع التطورات التي شهدتها حركة الترجمة، بأن وتيرة هذه الترجمة بين العربية والفرنسية تعكس بشكل وفي التطور الراهن للعلاقات الثقافية بين فرنسا، والعالم العربي، المتسم بمضاعفة التبادلات والتشابك المتزايد لحقول الإنتاج الفكري، المباين المغاير لتصاعد الانغلاقات وأشكال التجاهل وسوء التصورات على صعيد المجتمعات الشاملة.

الـــــهـــــــوامـــــــش

* R. Jacquemond, Les flux de traduction entre le français et l'arabe depuis les années

1980 : un reflet des relations culturelles in S.D Gisèle Sapiro, Le marché de la traduction en France à l'heure de la mondialisation, CNRS Editions, Paris 2008.

1. للمسألة، أنظر تاريخي من أجل تصور: R. Jacquemond, translation and cultural hegemony : the case offrench-arabic translation
2. التصنيفات والأرقام تتغير بتغير المصادر معطياتنا هاهنا تظل غير دقيقة ذلك أن.
3. Johan Heilbron, Towards a sociology of translation
4. الاطلاع على قاعدة معطيات اليونسكو الذي اجريناه خلال شهر أفريل جميع المعطيات الصادرة عن الدليل مأتاها 2008
5. حسب تعبير سمير قصير: Considérations sur le malheur arabe, actesSud, 2004
6. UNDP, Arab fund for economic and social development , The arab human development report 2003
7. المرجع السابق، ص 67.
8. شوقي جلال، الترجمة في العالم العربي: 1999 الواقع والتحدي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.
9. Dimitri Gutas, اسمه بالعصر الذهبي للترجمة العربية...أنظرك المأمون هو الخليفة العباسي الذي ارتبط Pensée grecque, culture arabe. Le mouvement de traduction gréco-arabe à Bagdad et la société abbasside primitive, trad. Abdessalam cheddadi, Paris, Aubier, 2005
10. الكتاب للسفارة الفرنسية ببيروت في إطار # مخطط الترجمة # تحرّ أجري في 2004ـ 2005 من قبل مكتب لوزارة الشؤون الخارجية ...
11. Mohamed-Sghir Janjar, L'édition dans le Maroccontemporain, 1955-2003 : Etat des lieux, étude accessible en ligne : www.rdh50.ma/fr/pdf
12. اللغة العربية في المملكة العربية السعودية ودورها في إثراء الإنتاج نورة صالح بن سليمان، ترجمة الكتب إلى الفكري، 1998 الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز.
13. أنظر من أجل عرض مفصل أكثر لهذا التقييم: R.jacquemond, Les Arabes et la traduction : petite déconstruction d'une idée reçue, in La pensée de midi, n°21, juin 2007
14. الاتحاد السوفياتي سابقا بعد طرح الترجمات العربية المنشورة في.

15. ترجمات منها 6% التسعينيات تقدر بـــ 140 000 عنوان في السنة كانت سوق الكتاب الصيني في نهاية:
16. Robert Baensch, The publishing industry in China, transaction publishers, 2003
17. Mohamed-Sghir janjar, op. cit.,p
18. أنظر حول "الكتاب الإسلامي" العربي:Yves Gonzalez-Quijano, Les gens du livre : édition et champ intellectuel dans l'Egypte républicaine, paris, CNRS, 1998
19. Ministère des Affaires étrangères-ADPF, Lire les auteurs français à l'étranger. Les programmes d'aide à la publication. 1990-2005
20. بمناسبة اجتماع مهني حول سياسات دعم الترجمة في العالم العربي قائمة مقدمة من قبل مركز الكتاب الوطني (طنجة، جانفي 2004)
21. Gilles kepel, Synthèse de l'atelier Edition-traduction, actes du colloque Le Monde arabe dans la vie intellectuelle et culturelle en France, 18-20 janvier 1988, Paris, Institut du Monde arabe, 1989, p.112
22. Farouk Maradam Bey (dir.), France-Arabie. Bibliographie sélective des ouvrages français disponibles sur le monde arabe, Paris, ADPF-Ministère des Affaires étrangères, 2005
23. حول هذه الظاهرة، أنظر: Soraya El Alaoui, Les réseaux du livre islamique. Parcours parisiens, CNRS, 2006
24. NadaTomiche, La littérature arabe traduite. Mythes et réalités, paris, Geuthner, 1978, tableaux, p.3 et 6-7
25. سندباد، أنظر حول مسار بيار برنارد وتاريخ منشورات:Maud Leonhardt Santini, paris, Librairie arabe, op.cit. spécialement le chapitre 7 : Leséditions Sindbad de Pierre Bernardà Mardam Bey
26. المرجع السابق، ص 166ـــ167
27. يمول معهد العالم العربي مناصفة من قبل فرنسا والدول 1980 حسب فحوى عقد التأسيس الموقع عليه في تأخر عمليا، ومنذ نشأته، رفضت أغلبية هذه الدول إما تقديم إسهامها أو أنها قدمتها بعد العربية الموقعة. ولكن جم. أنظر: Thierry Fabre, L'institut du Monde arabe entre deux rives, in Vingtième siècle, n°32, 1991
28. Maud Leonhardt Santini, Paris, librairie arabe, op.cit., p.178-179

تجربتي في ترجمة رواية "ليل الأصول" لنور الدين سعدي

أحمد منور

كان آخر النصوص السردية التي قمت بترجمتها إلى اللغة العربية هي رواية (La nuit des origines) للكاتب الجزائري باللغة الفرنسية نور الدين سعدي، وتدخل هذه الترجمة في إطار سنة "الجزائر عاصمة الثقافة العربية"[xxxvii]، وهي رواية الكاتب الثالثة، وآخر ما أصدر، حيث نُشرت هذه الرواية سنة 2005 ضمن منشورات (Aube) بباريس، وأعادت دار البرزخ بالجزائر نشرها موازاة مع الترجمة العربية.

والكاتب نور الدين سعدي ــ لمن لا يعرفه ــ هو من مواليد مدينة قسنطينة، حيث نشأ ودرس، وأكمل تعليمه في سنوات السبعينيات بالجزائر العاصمة، وأصبح بعدها أستاذا للقانون بجامعة الجزائر إلى سنة 1994، ثم هاجر بعد هذا التاريخ إلى فرنسا حيث يقيم حاليا، ويعمل بجامعة أرتوا بشمال فرنسا.

صدر له قبل "ليل الأصول" رواية (Dieu-le-fit) سنة 1996، و(La maison de lumière) سنة 2000. كما نشر أعمالا أخرى ذات طابع فكري، فني، وصحفي.

ورواية "ليل الأصول" تدخلنا في عالم غريب، يوحي لنا كاتبها فيها بالعلاقة الموجودة بين فعل الكتابة وبين مفهوم القدر،

ــ كما يقول أحد النقاد ــ حيث يشترك المفهومان في كلمة واحدة باللغة العربية هي كلمة "مكتوب". و"ليل الأصول" تروي قصة امرأة جزائرية تدعى عبلة، فرت من الجزائر، بتأثير ضغوط قوية من بعض أفراد أسرتها، لتختار باريس منفى لها. ساقها القدر ذات يوم إلى سوق "سانت أوان" للتحف والأشياء القديمة، أو "سوق البرغوث"، ــ كما يسميها الفرنسيون ــ بحثا عمن يشتري منها مخطوطا قديما وثمينا لجدها الأكبر، شيخ طريقة بن

الحملاوي، أتت به معها من الجزائر، وحينما دخلت إلى أحد دكاكين السوق فوجئت بوجود سرير مذهب، من الطراز القديم، شديد الشبه بسريرها الذي ورثته عن جدها، وتركته وراءها في قسنطينة، فتعلقت بهذا السرير، وتعرفت بصاحب الدكان، وبصديقه علي أو "Alain". وحول المخطوط والسرير، اللذين يرمزان إلى الأصل أو الهوية، ينسج الكاتب تفاصيل حكايات متداخلة ومتقاطعة عن كائنات وأشياء، وشخصيات، تلتقي كلها حول موضوع حب مستحيل، ينتهي نهاية مأساوية، ينشأ بين عبلة وبين علي، الذي جاء إلى الوجود نتيجة علاقة سفاح بين جندي فرنسي أثناء الثورة التحريرية، وامرأة جزائرية تدعى "عائشة"، ومن هنا جاء اسمه المزدوج علي، وألان.

أما الفضاء الذي تجري فيه حوادث الرواية فهو سوق التحف والأثاث القديم في شمال باريس من جهة، ــ كما سبقت الإشارة ــ ومدينة قسنطينة من جهة أخرى، حيث يرسم الكاتب، لهاتين المدينتين صورة حقيقية، ولكنها في الوقت نفسه صورة خيالية، وغريبة، ومدهشة، وذلك بعد أن أعاد اختراع المدينتين من جديد، ووضع لهما ديكورا من نسج خياله، وبعث فيهما الحياة والحيوية من رصيد ذكرياته، ومن خلال شخصياته وأحداث روايته، وخلق من كل ذلك عالما مدهشا، متعدد الألوان، منسجم الأجزاء، مطبوعا بطابع الغرابة، ومثيرا للفضول.

وهكذا، ومن هذا التقابل، أو الازدواجية التي نراها في المكان، وفي الشخصيات، وفي الألوان الثقافية، واختلاف القيم الاجتماعية، التي صورها الكاتب، يمكننا القول بأن رواية "ليل الأصول" هي رواية "مثقفة"، ــ إن صح التعبير ــ تغترف من ثقافتين كبيرتين، ولغتين، وفضائين، مختلفين اختلافا كبيرا، متوازيين حينا، ومتداخلين حينا آخر، ومتصادمين في بعض المرات، بين فضاء قسنطينة وفضاء باريس، بين مجتمع قسنطينة البورجوازي الذي خرجت منه عبلة هاربة، بسبب تحكم التقاليد فيه إلى حد إلغاء المشاعر الشخصية، وقتل الرغبات الإنسانية، وبين المجتمع الباريسي المتحرر من كل القيود، الذي يشعر فيه الإنسان بحريته الشخصية إلى حد الإشباع والضياع، ويبحث فيه عبثا عن علاقات أسرية دافئة، مثل ألان ابن ملجإ الأيتام، الذي كان يحلم بالعثور في يوم ما على حقيقة والده. وليس

ألان في الرواية، إلا عينة من العديد من العينات التي قدمها الكاتب والمتكونة أساسا من المهمشين، المنحدرين من أصول غير فرنسية، ومن الغجر، والعرب، والمنبوذين اجتماعيا، والفاشلين في حياتهم العاطفية، أو المهنية، وما إلى ذلك.

كل هذه الخصائص في الرواية جعلتني أعجب بها، وأفكر في ترجمتها منذ قراءتي للصفحات الأولى فيها، بل وأتحمس لترجمتها، خاصة أن الأجواء التي يصورها الكاتب في روايته كانت كلها مألوفة بالنسبة إلي، وأعرفها حق المعرفة، حيث أنني نشأت، مثل الكاتب، في مدينة قسنطينة، وأعرف كل شبر فيها، كما كانت لي، من جهة أخرى، فرصة الدراسة في ثمانينيات القرن الماضي في باريس، لمدة تزيد عن ثلاث سنوات، وهذا أيضا أفادني بمعرفتي لكل الأماكن التي صورها الكاتب في روايته. لهذا قررت أن أرفع التحدي.

غير أنه، يجب الاعتراف أنني حينما باشرت الترجمة، بدا لي أن المسألة ليست بالسهولة التي كنت أتصورها، ففضلا عن مواجهتي لبعض الإشكالات العامة التي تواجه أي مترجم لعمل روائي غير عادي، وأعني بغير العادي : التقنية الروائية التي اتبعها الكاتب، وأسلوب الحكي عنده، الذي يحتاج إلى وقت لكي يستأنس به المترجم، ويعرف خصائصه، واجهتني إشكالية التعامل مع قاموس لغوي نوعي استعمله الكاتب في الجزء الباريسي من الرواية، وأعني به أسماء التحف القديمة التي يزخر بها النص، الذي يجري قسم كبير منه بسوق الأشياء القديمة، المعروف باسم سوق "سانت أوان" (Le marché aux puces de Saint-Ouen)، فشكّل هذا الجانب تحديا كبيرا لي، حيث كان علي أن أقرِّب إلى القارئ بالعربية، مفردات ذلك القاموس ــ التي لا أجد لها في معظم الأحيان مقابلا باللغة العربية ــ مرة بترجمة المعنى، و مرة بتعريبه، وأخرى بنحته أو اختراعه ، مراعيا في الوقت نفسه أن لا أبتعد عن الأصل، وأن لا يؤثر ذلك سلبا على النسيج الروائي، فيجعله غامضا، أو غريبا، ولم يكن الأمر سهلا، ولم تكن المحاولة تكلل دائما بالنجاح.

في البداية، واجهتني مشكلة ترجمة عبارة (Le marché aux puces) ، هل علي أن أترجمها بـ"سوق الأشياء القديمة"، أم بـ"سوق التحف القديمة"، أم بعبارة أكثر "فصاحة" وهي سوق "سقط المتاع"، وفي جميع الحالات، وجدت العبارة غير دقيقة، فإذا استعملت

عبارة "الأشياء القديمة" أو "سقط المتاع" فإني أكون قد نزعت عنها الجانب القيمي، فليس كل قديم ذا قيمة، وإذا استعملت عبارة "التحف القديمة"، أكون قد أسبغت على كل الأشياء القديمة قيمة كبيرة، أما إذا ترجمت عبارة (Le marché aux puces) بـــ "سوق البرغـــوث" فـــإن هـــذا سيكون شيئا مضحكا، لأنني لم أراع ثقافة اللغة المنقول إليها.

الصعوبة نفسها وجدتها في ترجمة كلمة "Antiquaire" التي نجد لها باللغـــة الفرنســـية معنيـــين، الأول يقـــول: Personne qui s'adonne à l'étude, à la recherche des objets antiques. Archéologue ➔ والثاني يقول: Collectionneur d'antiquités. . وقد بحثت في قاموس مـــزدوج اللغة فرنسي/عربي، فلم أجد فيه إلا كلمتين هما antique التي شرحها بـــالمترادفتين : قـــديم، وعتيق، و Les antiquités التي شرحها بـــ: الفنون القديمة. ونلاحظ هنا أن المعنى الأول قديم، أو عتيق عام جدا، والثاني الفنون القديمة ضيق، لأنه يحصر المعنى في الفنون وحدها. وكان علي أن أترجمها في السياق الذي جاء في الرواية بـــ "بائع التحـــف"، أو "جـــامع التحـــف"، وتصبح كلمة "قديمة" معها زائدة.

كذلك الشأن في لفظة Brocanter التي يشرحها القاموس الفرنسي بعبارة: Faire commerce d'objets anciens، و لفظة Brocanteur التي يشـــرحها بعبـــارة: Personne qui brocante ويوســـع في معنى اللفظة، فيضيف إليها مترادفات أخرى أكثر اختصاصا، فنجد أن معنـــى Brocanter ينطبق على: Antiquaire, bouquiniste, fripier, revendeur، بحيث يصبح معناها "بائع التحف"، أو "جامع التحف"، و"بائع الكتب"، و "بائع الثياب القديمة"، و"معيد البيع"، وفي جميـــع الأحـــوال يكون لزاما علينا أن نترجمها بألفاظ مختلفة، فبائع الكتب، وبائع الثياب لا يجمعهما في الواقع إلا اشتراكهما في البيع. ولا نجـــد هـــذه المترادفـــات مجتمعـــة فـــي القـــاموس المـــزدوج فرنسي/عربي، ولكننا نجدها في أماكن متفرقة بحسب الحروف التي تبدأ بها.

وهناك كلمة عامية شائعة في بعض البلاد العربية تؤدي معنـــى "التحـــف القديمـــة" أو "الأشياء القديمة" وهي كلمة "روبابيكيا"، وهي لفظة أعجمية، كما هو واضح ــ وأرجح أنهـــا كلمة إيطالية ــ وهي جامدة لا يمكننا الاشتقاق منها، ولا تتماشى وميزان الصرف العربـــي، ونجد في اللغة الفرنسية كلمة قريبة منها لفظا ومعنى، وهي كلمة (Se rebecter) بمعنى تعافى

صحيا أو ماليا، أو (rebecter) بمعنى:à Redonner du courage, de la force, de la santé. والعلاقة هنا واضحة بين معنى أعاد له قوته، أو صحته، وبين إصلاح الشيء القديم، وإعادة استعماله.

هذا على مستوى التسميات العامة للتجارة في الأشياء القديمة، أو جمعها، أو إصلاحها، وقد أتيت بها على سبيل المثال، وبطبيعة الحال، لا يمكننا في مثل هذا المقام، أن نحصر قاموس هذه الممارسة التجارية، أو المتعلقة بالهواية وفن اقتناء التحف القديمة. ورواية "ليل الأصول" تزخر بهذا القاموس، وتتوزع على عدة ميادين، منها: الألبسة، والحلي، وأدوات الزينة النسوية، والأثاث المصنوع من الخشب، والخزف، والمصنوعات النحاسية، والرخامية، والتماثيل من مختلف المواد، والمصابيح الكهربائية، والساعات الحائطية، واللوحات الفنية، والتصوير الفوتوغرافي، والأفلام السينمائية، والآلات الموسيقية، والبطاقات البريدية، والكتب، والمخطوطات، والخرائط، والأدلة السياحية، وما يتفرع عن كل مجال من هذه المجالات من أنواع، ومسميات، وأوصاف، بحيث يشكل قاموسا قائما بذاته. والكاتب يمتلك ثقافة واسعة في هذا المجال، وقد كانت لي فرصة للقاء به في أكتوبر الماضي، على ما أتذكر، بالمركز الثقافي الفرنسي، وسألته عن ثقافته في هذا المجال، فأخبرني أن له صديقا بسوق التحف في بباريس، وأنه تعلم منه أشياء كثيرة في هذا المجال.

وأسارع هنا إلى القول أن الروائي كان شديد البراعة في تعامله مع كل هذه الأشياء الجامدة، والغريبة على معظم القراء، بحيث استطاع في كل مرة أن يضفي عليها لمسات فنية مليئة بالمشاعر الدافئة، لا يتقنها إلا من يتمتع بقدر عال من الحس الفني، وقد وزع كل ذلك بشكل متناسب، وبلمسة فنية تبعث الحياة في تلك الأشياء الجامدة. يقول مثلا على لسان أحد أبطاله المشتغلين بتجارة التحف: *((إن هناك اتصالا خفيا بين الكائنات الحية وبين الأشياء.. فالناس يأتون إلى السوق لكي ينظروا ويلمسوا ، ويجسوا، ويلاطفوا الأشياء، ويقلبوها وجها وظهرا، ويحسوا بها، وفجأة يحدث في داخلهم شيء، فيرغبون في الحصول على هذه الأباجورة، أو هذه المنضدة التي تكسوها طبقة من أوساخ السنين، لأنها ببساطة أثارت فيهم*

ذكرى ما... وفي المبيعات يحدث لي الشيءَ نفسه، فأتألم كثيرا لفراق بعض القطع الأثرية، بحيث يمكننا القول أن بعض الأشياء لا تريد أن تفارقنا...)). ص 74.

وعلى العكس من هذا، حينما رحت أترجم الجزء المتعلق بقسنطينة، وحديث الكاتب على لسان بطلته عن العادات والتقاليد، وحفلات الأعراس، والملابس، وطقوس المآتم، وما إلى ذلك، لم أجد أية صعوبة، خاصة أن العديد من مسميات الأشياء يذكرها الكاتب بلفظها العربي، مثل أسماء الملابس، كالبرنوس، والقندورة، والحنة، وبعض الألقاب مثل "نينة" (الجدة) و"سيدي"(الجد)، وما إلى ذلك. ولم أجد صعوبة أيضا في توظيف الكاتب في روايته للموروث الصوفي، ولبعض طقوس الطريقة الشاذلية، التي يعود منشؤها إلى عبد السلام بن مشيش في المغرب الأقصى في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، والتي نقلها تلميذه أبو الحسن الشاذلي إلى تونس، والشرق الجزائري، لتنتهي عند أسرة الشيخ بلحملاوي في قسنطينة، وهو جد عبلة بطلة الرواية، التي ورثت عنه مخطوط أسرار وأذكار الطريقة، وفكرت في بيعه للمكتبة الوطنية بباريس، بسبب ظروفها المادية الصعبة، وكان ذلك مصدر صراع داخلي حاد بالنسبة إليها، انتهى بها إلى الانتحار دون أن تتجرأ على بيعه.

وبخصوص الأذكار والمدائح التي أوردها الروائي، وبذل جهدا واضحا في نقلها إلى الفرنسية، فقد فضلت من جهتي أن أعود إلى أصلها بالعربية، ونقلتها من كتاب "الصلاة المشيشية" المنسوبة إلى عبد السلام بن مشيش، غير أنني، بطبيعة الحال، اكتفيت بما أخذه الكاتب منها.

وحتى ما تعلق بالمخطوط أيضا، وقد أسهب الروائي في وصفه على لسان خبيرة المكتبة، وكان الحديث عنه وعن مواصفاته، يتكرر باستمرار، لم أجد فيه أية صعوبة تذكر، لأن المفردات المتعلقة بالمخطوطات متوفرة عندنا، ودقيقة، ومن ثمة لم يعوزني فهمها، ولا تعبت في البحث عنها، حول نوعية الخط مثلا، والزخارف التي زخرف بها الخطوط، والورق الذي خط عليه، ونوعية الصمغ، والألوان التي احتوى عليها، وما إلى ذلك، مثال ذلك :

((وأخرجت (أمينة المكتبة) المخطوط من غلافه المخملي، وراحت تختبر بإصبعها جلد التغليف، ثم فتحت بحذر هامش الطي، بعد أن وضعت قفازها الأبيض، وظلت مدة طويلة تختبر رسوم التجليد المدمقسة، وتجس الزخارف المذهبة، البالية لتقول: إنه من جلد الجدي، والرسوم فيه منقوشة على البارد ... إنني لم أر من قبل أبدا مثل هذه الزوايا المقوسة، وهذا الوشي، وهذه النقوش ، إلخ...))

ونلاحظ هنا كيف يقدم الكاتب المخطوط بطريقة سردية تتضمن التفاصيل، ولكنها لا تبعث على الملل.

ولا أريد أن أثقل عليكم هنا بتقديم أمثلة أخرى، ولكنني لا أريد أن أمر، دون أن أقف عند عنوان الرواية. فعندما شرعت في ترجمتها لم أفكر طويلا في العنوان، فترجمته حرفيا تقريبا: (La nuit des origines) ترجمته: "ليل الأصول"، واعتبرت ذلك مسألة مؤقتة، على أن أعود إليه بعد الانتهاء من الترجمة، لأدقق في معناه، وأجعله أكثر جاذبية، ما استطعت، حتى ولو جاء مخالفا للأصل، وغير متطابق معه، وهذا شيء معمول به، ومعروف لدى المترجمين، لأسباب تتعلق بجمالية العنوان، وجاذبيته في الثقافة المنقول إليها، وحتى لأسباب تجارية، وهذا بعد التشاور ــ بطبيعة الحال ــ مع المؤلف، ومع الناشر أحيانا، إلا إذا جاءت الترجمة الحرفية للعنوان مناسبة، ولها من قوة الدلالة والوضوح، بالقدر الذي هو عليه في الأصل، وهذا لا يحدث ــ في الواقع ــ إلا نادرا، لأن الترجمة، كما يعلم أهل الاختصاص، ليست نقلا لمفردات وتراكيب لغوية، وإنما هي بالأساس نقل لثقافة، إلى ثقافة أخرى مغايرة.

وهكذا اختزلت العنوان وجعلته هكذا: "ليل الأصول"، أي في كلمتين، عوضا عن ثلاث كلمات كما هو في الأصل (La nuit des origines)، مراعيا بالخصوص أن لا يكون ثقيلا على اللسان، ولكن، ومع المضي في الترجمة، ومع الوقت، تعودت على هذا العنوان، وأصبح مألوفا بالنسبة إلي، وصار في الأخير هو العنوان النهائي الذي ظهر على غلاف الرواية. وهذا عيب التعود على الشيء، فحين يتعود المرء على رؤية شيء ما تضعف معه تدريجيا دقة الملاحظة، وينصرف الذهن عما فيه من نقص، وهذا ما حدث لي، فاختزالي للعنوان،

تجنبا لثقل العبارة، جعلني أغفل عما في العنوان الأصلي باللغة الفرنسية من دلالة على معنى الزمن، ففي اللغة الفرنسية يستعمل "الليل" للدلالة على الزمن البعيد الذي لا يمكـــن تحديـــده، فيقال *La nuit des temps* التي يشرحها القاموس بقوله: Une époque très reculée, dont on ne sais rien. . وعلى ضوء هذا، كان ينبغي أن يترجم العنوان بـــعبارة أدق، مثل: "ثقل الماضـــي"، أو "قيود إرث الأسلاف"، وهذا يحقق لنا، من جهة، مبدأ دقة النقل، واحترام النص الأصـــلي، ولكنه وحتى وإن كان أكثر دقة من "ليل الأصول"، فإنه يخل بجماليـــة العنـــوان، وجاذبيـــة العبارة في اللغة العربية.

وعلى أية حال لدي الكثير مما أود أن أقوله عن ترجمتي لهذه الرواية الجميلة، ولكـــن أكتفي بما قدمته، وبالقول: إن كل نص نقدم على ترجمته يعطينا فرصة، لاختبـــار أدواتنـــا، ويشعرنا بالمتعة، ونحن نذلل تلك الصعاب التي تجابهنا فيه، ويكسبنا تجربة جديدة، ويـــدفعنا إلى البحث عن تجربة أخرى أكثر إثارة، وأكثر تحديا لقدراتنا. خاصة إذا كان نصا جيدا، من مثل رواية "ليل الأصول"، التي أؤكد مرة أخرى، على أنها رواية متميزة، استطاعت بلمســـة سحرية من كاتبها، أن تجعل الشرق والغرب يلتقيان، رغم تأكيد "كيبلينك" أنهما لا يلتقيان.

الرأي العام غير موجود

لـــ: بيار بورديو
ترجمة: رضوان بوجمعة.

أود في بداية هذا العرض أن أوضح و أدقق ما أريد قوله، إنني لا أهدف من خلال مداخلتي إلى التنديد وبشكل ميكانيكي وباستسهال عمليات سبر الآراء، لكنني أسعى للقيام بتحليل معمق وجدي لاستخدامات ووظائف هذه العمليات. وهو الأمر الذي يفترض التساؤل الأول عن المسلمات الثلاث التي تتضمنها عمليات سبر الآراء.

يفترض كل تحقيق لسبر الآراء، على أن كل الناس بإمكانهم أن يكون لهم رأي، أو بمعنى آخر؛ أن إنتاج رأي ما، هو أمر في متناول الجميع. و حتى وإن كان موقفي هذا، قد يحرك شعورا ديمقراطيا ساذجا، فإنني أرفض هذه المسلمة الأولى.

المسلمة الثانية: تفترض هذه العمليات أن كل الآراء تتساوى، ولها القيمة نفسها، يمكننا نفي ذلك، من منطلق أن مجرد تراكم مجموعة من الآراء التي لا تمتلك القوة الفعلية نفسها، تنتج آراء مصطنعة خالية من أي معنى.

المسلمة الثالثة: يعتبر مجرد طرح السؤال ذاته على جميع الناس، تأسيسا لافتراض وجود إجماع حول المشاكل الموجودة، بمعنى آخر الإقرار بوجود اتفاق حول الأسئلة التي تستحق الطرح.

تتضمن المسلمات الثلاث حتما كما يظهر لي مجموعة من الاختلالات والتفاوت، والتي تلاحظ حتى وإن اجتمعت كل شروط الصرامة المنهجية في جمع و تحليل المعطيات.

غالبا ما تنتقد عمليات سبر الآراء من الجانب التقني، من ذلك، ما تعلق بمسألة تمثيلية العينات.

أعتقد أنه في ظل الوسائل المستخدمة حاليا من قبل معاهد سبر الآراء، فإن هذا الاعتراض غير مؤسس.

كما تنتقد هذه العمليات، على أساس أنها تطرح أسئلة متحيزة، أي صياغة الأسئلة بشكل متحيز، وهذا الأمر أكثر من حقيقي، خاصة وأن الإجابة عن السؤال تأتي متضمنة في الشكل الذي يتم به طرح السؤال.

وهكذا، وعلى سبيل المثال، ومع تخطي القاعدة الأساسية لبناء استمارة استبيان، التي تفرض إعطاء كل الحظوظ الممكنة، ولكل الأجوبة الممكنة كذلك، فإنه يتم إغفال خيارات أجوبة و أسئلة ممكنة في الأسئلة أو في الأجوبة المقترحة. أو يتم اقتراح الخيارات نفسها عدة مرات بصياغات متعددة.

هناك أشكال متعددة من الانحياز من هذا الصنف، ومن المهم جدا التساؤل حول الظروف الاجتماعية لظهور هذا النوع من الانحرافات. في غالب الأحيان تكون لهذه الانحرافات علاقة بالظروف التي يعمل فيها الناس، الذين يقومون بإنتاج هذه الاستبيانات، ولكن كثيرا ما تكون الإشكاليات التي تنتجها معاهد سبر الآراء متعلقة بطلبات من نوع محدد.

ومن ذلك مثلا، ما قمنا به من تحليل لتحقيق وطني كبير حول آراء الفرنسيين فيما يتعلق بالمنظومة التعليمية، وسجلنا في أرشيف بعض مكاتب الدراسات، كل الأسئلة المتعلقة بالتعليم. وهو ما سمح لنا بالإطلاع على أكثر من مائتي سؤال متعلق بالتعليم، تم طرحها منذ ماي 1968، مقابل أقل من عشرين سؤالا تم طرحها بين 1960 و1968 . وهو ما يعني أن الإشكاليات التي تفرض على بعض المؤسسات، ترتبط وبشكل عميق بسيطرة نوع من الطلب الاجتماعي. فقضية التعليم على سبيل المثال لا يمكن أن تطرح من قبل معهد لسبر الآراء، إلا إذا ما أصبحت مشكلا سياسيا.

ولذلك نرى مباشرة الفارق الذي يفصل هذه المؤسسات مع مراكز البحث، التي حتى وإن كانت لا تولد إشكالاتها في سماء صافية، فإنها تؤسسها مع مسافة أكبر عن الطلب الاجتماعي في شكله المباشر و الآني.

مكننا التحليل الإحصائي الموجز للأسئلة المطروحة من نظرة، مفادها أن الأغلبية المطلقة لهذه الأسئلة كانت على علاقة مباشرة بالانشغالات السياسية لـــ"رجال السياسة".

إذا ما تسلينا هذا المساء باللعب بالأوراق الصغيرة، وإذا ما طلبت منكم أن تكتبوا الأسئلة الخمسة التي تعتقدون أنها الأكثر أهمية في مجال التعليم، فإننا و بالتأكيد سنحصل على قائمة، مختلفة كثيرا عن تلك التي نقوم برصدها من خلال الأسئلة المطروحة في تحقيقات سبر الآراء.

تم طرح السؤال التالي عدة مرات: "هل يمكن إدخال السياسة في مؤسسات التعليم الثانوي؟"، في حين أن السؤال: "هل يجب تعديل البرامج؟" أو: "هل يجب تعديل نظام توصيل المضامين؟"، لم تطرح إلا نادرا. وهو الأمر نفسه بالنسبة لهذا السؤال: "هل يجب رسكلة الأساتذة؟". والكثير من الأسئلة المهمة جدا، في أفق آخر على الأقل.

ترتبط الإشكاليات المقترحة من قبل معاهد سبر الآراء بالمصالح السياسية، وهو ما يوجه وبشكل قوي دلالة الأجوبة، والدلالة التي تعطى لها عند نشر الأجوبة في آن واحد.

تعتبر عمليات سبر الآراء في الوقت الحالي أداة للعمل السياسي، ووظيفتها الأساسية ربما في الوقت الحالي تتمثل ربما في فرض الوهم بوجود رأي عام، يجمل بشكل خالص مختلف آراء الأفراد، كما تسعى هذه العمليات لفرض فكرة ما يشبه معدل الآراء أو معدل الرأي.

إن "الرأي العام" الذي يظهر على واجهات الصحف في شكل نسب مئوية (60 بالمائة من الفرنسيين يؤيدون كذا وكذا....)، هذا الرأي العام هو فقاعة مصطنعة، حيث أن وظيفتها الأساسية التستر بحالة الرأي العام في زمن معين، على أنه نظام قوى وتوترات، وبأنه لا يوجد ما هو ملائم أكثر، عن توجهات الرأي العام من هذه النسب المئوية.

نعلم أن كل ممارسة للقوة، يترافق معها خطاب يهدف إلى إعطاء شرعية لقوة من يمارسها، بل ويمكننا حتى الإقرار بأنه من خصوصية كل ميزان قوى مهما كان، هو أن لا تكون له كل قوته، إلا في حال ما إذا ظهر وبرز بذلك الشكل، باختصار، وحتى نتكلم ببساطة، فالرجل السياسي هو ذلك الذي يقول: " إن الله معنا"، ومرادف: "إن الله معنا" اليوم

هو: "الرأي العام معنا". هذا هو التأثير الأساسي لتحقيقات سبر الآراء: تركيب فكرة مفادها أنه يوجد رأي عام مجمع عليه، الهدف إذن، إعطاء شرعية لسياسة ما، وتدعيم موازين القوى التي تشكلها أو تمكنها من أن تصبح ممكنة.

وما دمت قد قلت في البداية ما كنت أود قوله في النهاية، فإنني سأحاول الإشارة وبسرعة إلى مختلف العمليات التي يتم من خلالها إنتاج **أثر الإجماع هذا.**

العملية الأولى، ونقطة بدايتها، المسلمة التي مفادها، أن كل الناس يجب أن يكون لهم رأي، ولذلك فهذه العملية تقوم على تجاهل "**الممتنعين عن الإجابة**". فعلى سبيل المثال، تطلبون من الناس: "هل أنتم مؤيدون لحكومة بومبيدو؟"، تسجلون 30 بالمائة من الممتنعين عن الإجابة، 20 بالمائة من المجيبين بـــ"نعم"، و50 بالمائة بـــ"لا"، تستطيعون القول: نسب الناس الرافضين أكثر من المؤيدين، ولكن هناك هذه البقية من 30 بالمائة. يمكنكم إعادة حساب نسب المؤيدين والرافضين، بإقصاء الممتنعين عن الإجابة. هذا الاختيار البسيط هو عملية نظرية لها أهميتها الخارقة، والذي أود أن أفكر فيها معكم.

إقصاء الممتنعين عن الإجابة، هو القيام بالشيء نفسه في الانتخابات، حيث يكون هناك أوراق ملغاة، وأوراق بيضاء: إنها عملية لإخضاع تحقيق سبر الآراء لفلسفة تضمينية للتحقيق الانتخابي.

إذا ما رأينا عن قرب، نلاحظ أن نسب الممتنعين عن الإجابة، أكثر ارتفاعا عند النساء، أكثر مما هو عليه عند الرجال، والفارق بين النساء والرجال مرتفع إلى درجة أكبر من المشاكل المطروحة، والتي هي مشاكل سياسية خالصة.

الملاحظة الأخرى: كلما كان السؤال متعلقا بمشاكل المعرفة، والعلم، كلما زاد الفارق اتساعا بين الممتنعين عن الإجابة من بين أكثر المتعلمين، ومن بين الأقل تعليما. وعلى العكس من ذلك، عندما تتعلق الأسئلة بمشاكل الأخلاقيات، فإن متغيرات الممتنعين عن الإجابة حسب المستوى التعليمي تصبح ضعيفة،(مثال عن ذلك: "هل يجب أن نكون صارمين مع الأطفال؟").

ملاحظة أخرى: كلما كان السؤال يطرح مشاكل لنزاعات، أو يحمل عقدا من التناقضات (كالسؤال مثلا عن تشيكوسلوفاكيا بالنسبة للناس الذين ينتخبون لصالح الشيوعيين)، كلما كان السؤال مولدا للتوترات لدى فئة محددة، وكلما كان الممتنعون عن التصويت كثيرين لدى هذه الفئة.

وبناء على هذا، فإن التحليل الإحصائي البسيط للممتنعين عن الإجابة، يعطينا معلومة عما يعنيه السؤال، وعن هذه الفئة كذلك، لأنها محددة من خلال الاحتمال المقرون بكونها تملك رأيا، ومن خلال الاحتمال المرتبط بملكية رأي مؤيد أو معارض.

يظهر التحليل العلمي لعمليات سبر الآراء، بأنه لا توجد فعليا مشاكل جامعة وموحدة، لا يوجد أي سؤال لا يمكن إعادة تأويله بناء على مصالح الناس الذين يطرح عليهم، ولهذا فإن التصور الدقيق يتمثل في التساؤل حول طبيعة السؤال، الذي تظن مختلف الفئات المجيبة أنها أجابت عنه.

من بين أهم التأثيرات وأكثرها ضررا لعمليات سبر الآراء، تتمثل بشكل دقيق في وضع الناس موضع المجيبين عن أسئلة لم تطرح أصلا، وكمثال على ذلك، الأسئلة التي تدور حول مشاكل الأخلاق، كالأسئلة المتعلقة بصرامة الأولياء، العلاقات بين الأساتذة والتلاميذ..إلخ، مشاكل ينظر إليها على أنها ذات طبيعة أخلاقية، نظرة تبرز كثيرا كلما نزلنا في السلم الاجتماعي، في حين تراها الفئات العليا أنها مشاكل سياسية: وواحدة إذن من تأثيرات تحقيقات السبر؛ هو تحويل الإجابات الأخلاقية إلى إجابات سياسية، بسبب التأثير البسيط لقلب الإشكالية.

إذن، يوجد عدة أسس يتم من خلالها توليد إجابة ما، هناك أولا ما يمكن تسميته بـــ "**الكفاءة السياسية**"، بالرجوع إلى تعريف اعتباطي وشرعي في الوقت ذاته، بمعنى تعريف مسيطر ومتباين كما شأن السياسة.

هذه الكفاءة السياسية ليست شائعة عالميا، لكنها متغيرة تماما مثل المستوى التعليمي، بتعبير آخر، احتمال وجود رأي حول كل الأسئلة المطروحة، يفترض وجود معرفة سياسية، وهو ما يمكن مقارنته باحتمال الذهاب إلى المتحف.

نلاحظ وجود فروق هائلة: فهناك، حيث طالب ما ملتزم في حركة يسارية يدرك خمسة عشر تقسيم لليسار، لكن بالنسبة لإطار متوسط، الأمر ليس كذلك إطلاقا. ففي المستوى السياسي(اليسار المتطرف، اليسار، الوسط، وسط اليمين، اليمين، اليمين المتطرف...إلخ) حيث تستخدمها تحقيقات"علم السياسة" كمسلمات، تستخدم بعض الفئات الاجتماعية بشدة ركنا صغيرا لليسار المتطرف، الفئات الأخرى تستعمل الوسط فقط،وفئات أخرى تستخدم كل ما هو موجود في سلم الإجابات. والخلاصة أن الانتخابات هي إدماج وتجميع لفضاءات مختلفة كلية: نجمع أناسا يقيسون بالسنتيمترات بأناس آخرين يقيسون بالكيلومترات، وأكثر من هذا، نجمع بين أناس ينقطون من 0 إلى 20، مع أناس ينقطون بين 9 و11. تقاس الكفاءة من بين ما تقاس عليه، على أساس درجة دقة الإدراك(وهو الأمر نفسه بالنسبة لعلم الجمال، فالبعض يمكنه أن يفرق بين خمسة أو ستة أشكال متتالية لرسام واحد فقط).

يمكن لهذه المقارنة أن توسع أكثر، ففيما يتعلق بالإدراك الجمالي، هناك شرط مباح: يجب أن يفكر الناس بأن العمل الفني هو عمل فني، ثم وبعد أن يتم إدراكه كعمل فني، لا بد أن يكون لديهم فئات من الإدراكات التي تمكنهم من بنائه، وهيكلته...إلخ، لنفترض وجود سؤال تمت صياغته بهذا الشكل: "هل أنتم مع نظام تربوي قائم على الأوامر، أم أنتم مع نظام تربوي غير قائم على الأوامر؟"، بالنسبة للبعض، يمكن اعتبار السؤال كتركيبة سياسية، من منطلق تمثلات العلاقات بين الأولياء والأبناء، كتمثلات مندمجة في نظرة ممنهجة داخل المجتمع، في حين أنه بالنسبة للبعض الآخر، فهو سؤال أخلاقي محض.

لذلك، فإن استمارة الاستبيان التي قمنا بصياغتها، والتي من خلالها نطلب من الناس، إذا كان من السياسة أم لا القيام بالإضراب؟ و هل من السياسة أم لا ملكية شعر طويل؟ وهل من السياسة أم لا المشاركة في مهرجان البوب،...إلخ، فهذه الأسئلة ستكشف عن اختلافات كبيرة بين مختلف الطبقات الاجتماعية.

إن الشرط الأساسي للإجابة بشكل ملائم عن سؤال سياسي، هو إذن أن تكون قادرا على تركيبه وإدراكه على أنه سؤال سياسي، وأن تكون قادرا على أن ترسم له فئات سياسية محضة، تكون ملائمة بشكل أو بآخر...إلخ. هذه هي إذن الشروط النوعية لإنتاج الآراء،

الشروط التي تفترض تحقيقات سبر الآراء أنها متوفرة عالميا، وبشكل متماثل، بناء على الافتراض الأول، الذي ينص على أن كل الناس يمكنهم أن ينتجوا رأيا.

الأساس الثاني الذي من خلاله يمكن للناس أن ينتجوا من خلاله رأيا، هو ما أسميه بـــ"**روح الطبقة**"، (حتى لا أقول" أخلاق الطبقة")، بمعنى منظومة القيم الضمنية، والتي يكون الناس قد استبطنوها منذ الطفولة، ومن خلال هذه المنظومة يولدون أجوبة لمشاكل مختلفة كلية.

إن الآراء التي من المكن أن يتبادلها الناس وهم يخرجون من مشاهدة مقابلة في كرة القدم بين فريقي روبي؛ وفالانسيان، هي آراء يعود جزء كبير من اتساقها ومن منطقها، إلى روح الطبقة. فالعديد من الأجوبة التي يتم اعتبارها كإجابات سياسية، ليست في الواقع إلا أجوبة تم إنتاجها من روح الطبقة، وفي الوقت نفسه يمكن أن تلبس دلالة مختلفة تماما، عندما يتم تأويلها في الساحة السياسية.

وهنا من الواجب علي أن أعود إلى مرجعية التقليد السوسيولوجي، المنتشر كثيرا لدى بعض علماء علم الاجتماع السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية، والذين يتحدثون بشيوع إيديولوجية محافظة، وعن تسلط الطبقات الشعبية. هذه الأطروحات مؤسسة على المقارنة الدولية لتحقيقات سبر الآراء أو مقارنة دولية للانتخابات، وهي المقارنة التي تسعى لتوضيح فكرة مفادها؛ أنه كلما سألنا الطبقات الشعبية في أي بلد كان، حول المشاكل المتعلقة بعلاقات السلطة، والحرية الفردية، وحرية الصحافة...إلخ، فإن هذه الطبقات تقدم إجابات أكثر "تسلطية" من الطبقات الأخرى، ويتم استخلاص عام مفاده؛ أنه يوجد نزاع بين القيم الديمقراطية (عند الكاتب الذي أفكر فيه وهو ليبتز، يتعلق الأمر بالقيم الديمقراطية الأمريكية) والقيم التي استبطنتها الطبقات الشعبية، قيم ذات طبيعة تسلطية وقمعية.

من هذا؛ نستنتج نوعا من النظرة الأخرى: لنرفع مستوى المعيشة، لنرفع المستوى التعليمي، وبما أن الميل إلى القمع، وإلى التسلط...إلخ، مرتبطة بالدخل المتواضع، وبالمستويات التعليمية المحدودة...إلخ، فإننا ننتج مواطنين صالحين للديمقراطية الأمريكية. وحسب اعتقادي؛ فإن الإشكال الأساسي، يتمثل في دلالة الأجوبة الخاصة ببعض الأسئلة.

لنتصور مجموعة من الأسئلة من هذا النوع: هل أنتم مع مبدإ المساواة بين الجنسين؟ هل أنتم مع الحرية الجنسية للأزواج؟ هل أنتم مع منظومة تربوية غير قمعية؟ هل أنتم مع المجتمع الجديد؟...إلخ.

لنفترض مجموعة أخرى من الأسئلة من نوع: هل يجب على الأساتذة القيام بإضرابات عندما تكون حالتهم مهددة؟ هل يجب على الأساتذة التضامن مع الموظفين الآخرين في مراحل النزاع الاجتماعي؟...إلخ.

تعطي هذه الأسئلة في المجموعة الأولى والثانية، إجابات بنيوية، معاكسة تماما لعلاقة الطبقة الاجتماعية: المجموعة الأولى من الأسئلة، والتي تتعلق بنوع من التجديد في العلاقات الاجتماعية، وفي الشكل الرمزي للعلاقات الاجتماعية، وهي أسئلة تثير إجابات أكثر تأييدا، كلما صعدنا في السلم الاجتماعي، وفي سلم المستوى التعليمي، وعلى خلاف ذلك، فإن الأسئلة التي تتعلق بالتحولات الفعلية لموازين القوى بين الطبقات، فهي أسئلة تثير إجابات غير مؤيدة أكثر فأكثر، كلما صعدنا في سلم المستوى الاجتماعي.

باختصار، فإن اقتراح "الطبقات الشعبية طبقات قمعية"، هو اقتراح ليس لا صحيحا ولا خاطئا. هو اقتراح صحيح، من منطلق أنه أمام مجموعة من المشاكل كالتي تمس الأخلاقيات المنزلية، أو تلك المتعلقة بالعلاقات بين الأجيال أو بين الجنسين، هناك توجه للطبقات الشعبية لأن تظهر بأكثر صرامة، من باقي الطبقات الاجتماعية.

وعلى العكس من ذلك، وفيما يتعلق بالمشاكل الخاصة بالبنية السياسية، والتي تضع كرهان المحافظة أو تحول النظام الاجتماعي، وليس فقط المحافظة أو تحول أنماط العلاقات بين الأفراد، فالطبقات الشعبية هي الأكثر تحمسا وتأييدا للتجديد، بمعنى أكثرها تأييدا للتحولات في البني الاجتماعية.

ترون كيف أن بعض المشاكل التي طرحت في ماي 1968، والتي طرحت غالبا بشكل سيئ، وهو الشأن مثلا بالنسبة للنزاع بين الحزب الشيوعي واليساريين، فهي مشاكل ترتبط بشكل مباشر بالمشكل المركزي، الذي حاولت طرحه هذا المساء، وهو مشكل طبيعة الأجوبة، بمعنى بالمبدإ الذي على أساسه تم إنتاجها.

التعارض الذي وضعته بين مجموعة الأسئلة التي طرحتها، تعكس في الحقيقة التعارض بين مبدأين اثنين لإنتاج الآراء، مبدأ سياسي خالص، ومبدأ أخلاقي، فلذلك، فإن مشكل النزعة المحافظة للطبقات الشعبية ما هو إلا نتاج جهل بهذا التفريق.

إن أثر ترتيب الإشكالية، الممارس من قبل كل تحقيقات سبر الآراء، ومن قبل كل تساؤل سياسي (بداية من الانتخابي)، ناتج من أن الأسئلة المطروحة في تحقيق سبر الآراء ليست الأسئلة نفسها التي تطرح على كل المستجوبين، وبأن الأجوبة لا تؤول، بالنظر إلى الإشكالية التي أجابت عنها فعليا مختلف الفئات المجيبة.

ولهذا فإن **الإشكالية المسيطرة**، بما فيها قائمة الأسئلة المطروحة منذ سنتين من قبل معاهد سبر الآراء، تعطي صورة، بمعنى أنها تعطي الإشكالية التي تهم أساسا الناس الذين يتحكمون في السلطة، والذين يكونون على علم بوسائل تنظيم نشاطهم السياسي، وهي إشكالية مسيطر عليها بشكل غير عادل من قبل مختلف الطبقات الاجتماعية. وهذه الأخيرة لها القدرة نسبيا على إنتاج إشكالية مضادة.

وفيما يخص المناظرة التلفزيونية بين سرفان شرايبير، وجيسكار ديستان، طرح معهد سبر أراء أسئلة من نوع: "هل النجاح المدرسي مرتبط بالموهبة، بالذكاء، بالعمل، أو بالجدارة؟"، إن الأجوبة التي تم جمعها كشفت عن معلومة (تم تجاهلها من قبل منتجيها) متعلقة بدرجة وعي مختلف الطبقات الاجتماعية بقوانين الانتقال الوراثي لرأس المال الثقافي: الانخراط في أسطورة الموهبة، والارتقاء عن طريق المدرسة، حول العدالة المدرسية، والإنصاف في توزيع المناصب حسب الشهادات...إلخ، كلها مسائل موجودة بقوة لدى الطبقات الشعبية.

يمكن للإشكالية المعاكسة أن تكون موجودة لدى بعض المثقفين، لكنها لا تملك القوة الاجتماعية، رغم أنه تم إعادة ذكرها، من قبل بعض الأحزاب والجماعات.

تخضع الحقيقة الاجتماعية لنفس القوانين التي تخضع لها قواعد النشر الإيديولوجي، فالاقتراح العلمي يشبه فقاعة البابا حول ضبط وتحديد النسل، فلا يخاطب به إلا المهتدين.

نربط فكرة الموضوعية في تحقيق سبر الآراء بمسألة طرح السؤال بالعبارات الأكثر حيادية، حتى نعطي كل الحظوظ الممكنة لكل الأجوبة بالظهور.

في الواقع، فإن تحقيق سبر الآراء يمكن أن يكون أقرب لما يحدث في الواقع، إذا ما أعطينا للناس الوسائل التي تمكنهم من التموقع، كما يتموقعون في الواقع اليومي، بمعنى عوض أن نقول للناس: "هناك من الناس من يؤيد تحديد النسل، ومن يعارضه، وأنتم؟..."، نقوم بعرض سلسلة من المواقف الصريحة، لمجموعات مؤهلة لبناء الآراء ولنشرها، بشكل يمكن الناس من التموقع، بالنظر إلى إجابات مشكلة مسبقا.

نتحدث غالبا بلغة "اتخاذ المواقف"، فهذه العبارة تشير إلى عمل "الأخذ"، ومشتقة من فعل "أخذ"، وهو ما يعني أنه هناك مواقف موجودة مسبقا، ثم نأخذها و نتخذها. غير أننا لا نأخذها بشكل عشوائي، بل نأخذ المواقف التي نكون ميالين لاتخاذها، بالنظر لموقعنا في حقل معين.

يهدف التحليل المعمق إلى شرح العلاقات الموجودة بين بنية المواقف التي يتم اتخاذها أو أخذها، وبنية حقل المواقع المحتلة موضوعيا.

إذا كانت تحقيقات سبر الآراء تفهم بشكل سيئ الحالات الافتراضية للرأي العام، وبشكل أدق حركات الرأي العام، فإن ذلك يعود من بين ما يعود إليه، يعود إلى الوضعية التي يتم بها إدراك الآراء، وهي وضعية اصطناعية.

في الوضعيات التي يتم فيها تشكيل الرأي، خاصة في أوضاع الأزمة، نجد أن الناس يكونون أمام أراء مشكلة، آراء مدعمة من قبل جماعات، وهو ما يبرز على أن الاختيار بين مجموعة من الآراء هو اختيار بين هذه الجماعات. وهو أساس **أثر التسييس** الذي تنتجه الأزمة: لابد من الاختيار بين جماعات تعرف نفسها سياسيا، كما تحدد أكثر فأكثر اتخاذ المواقف، من منطلق مبادئ سياسية صريحة.

في الحقيقة، ما يظهر مهما بالنسبة لي، هو أن تحقيقات سبر الآراء تعالج الرأي العام كمجرد مجموعة آراء فردية، يتم جمعها في وضعية تكون في عمقها وضعية عزلة، حيث

يقوم الفرد بشكل متملص التعبير وفي عزلة رأيا معزولا في الوضعيات الواقعية، تعتبر الآراء قوى وموازين الآراء هي نزاعات قوى بين الجماعات.

قانون آخر، يستخلص من هذه التحاليل، كلما زاد اهتمامنا بمشكل ما، كلما كثرت وتعددت آراؤنا حوله، بمعنى أنه لدينا مصلحة ما أكثر في هذا المشكل، مثال ذلك متعلق بالمنظومة التعليمية، فنسبة الإجابات متعلقة حميميا بدرجة القرب من المنظومة التعليمية، واحتمال امتلاك رأي يتفاوت، بالنظر لاحتمال امتلاك السلطة على ما يرى.

الرأي الذي يبرز كرأي، بشكل عفوي، هو رأي الناس الذين يكون لرأيهم وزنا كما نقول. إذا كان لوزير للتربية الوطنية التصرف بناء على سبر للآراء (أو على الأقل من قراءة سطحية لسبر الآراء)، فإنه لن يفعل ما يفعل عندما يتحرك فعليا كرجل سياسي، بمعنى من خلال المكالمات الهاتفية التي يتلقاها، ومن خلال زيارة هذا المسؤول النقابي أو ذاك، أو هذا العميد أو ذاك...إلخ. في الواقع، هو يتحرك بناء على قوى الرأي المشكلة فعليا، والتي لا تبرز لإدراكه إلا في حال ما إذا كان لهذه القوى القوة، وبأن ملكيتهم لهذه القوة يعود سببها لكون هذه القوى هي قوى مجندة.

وفيما يتعلق باستشراف ما يمكن أن تكون عليه الجامعة في العشر سنوات القادمة، أعتقد أن **الرأي المجند** يشكل أحسن قاعدة لذلك. ومع ذلك، فإن الحقيقة المعبر عنها من قبل الممتنعين عن الإجابة، والتي لا تمكنهم أحكام بعض الفئات من الولوج إلى موضع الرأي، بمعنى الولوج إلى خطاب مشكل يسعى إلى الاتساق، ويسعى لأن يسمع، ولأن يفرض نفسه،...إلخ، لا يجب أن يوصلنا إلى خلاصة مفادها، أنه في وضعيات الأزمة، أن الناس الذين لم يكن لديهم أي رأي، سيختارون عشوائيا: إذا كان المشكل بالنسبة لهم مشكل سياسيا (مشاكل الأجور، وكثافة العمل بالنسبة للعمال)، فإنهم يختارون من حيث الكفاءة السياسية، أما إذا كان الأمر يتعلق بمشكل غير مشكل –بضم الميم و فتح الشين والكاف– سياسيا بالنسبة لهم (العلاقات القمعية داخل المؤسسة)، أو مشكل في طريق التشكيل، فإنهم سيكونون موجهين من النسق اللاشعوري بعمق، للإجراء الذي عادة ما يوجه خياراتهم في مختلف المجالات، من ميدان الجمال إلى مجال الرياضة، وإلى غاية ما يفضلونه اقتصاديا.

تتجاهل تحقيقات سبر الآراء التقليدية جماعات الضغط، والمعطيات الافتراضية التي من الممكن أن لا تعبر عن نفسها على شكل خطاب صريح. لهذا السبب؛ فإن هذه التحقيقات عاجزة عن الإجابة عن أي استشراف منطقي، لما يمكن أن يحدث زمن الأزمة.

لنفترض مشكلا، كذلك المتعلق بمنظومة التعليم. يمكننا أن نطلب: "ما هو رأيكم في سياسة إدغار فور؟"، إنه سؤال يقترب كثيرا من عمليات سبر الآراء الانتخابية، بمعنى أنه في ظلام الليل، كل الأبقار تكون سوداء: فكل الناس موافقة عموما، دون أن تعرف أنها موافقة على ماذا، نعرف ماذا يعنيه التصويت بالإجماع، كما جاء في قانون فور بالجمعية الوطنية. بعد ذلك نطلب ما يلي: "هل تؤيدون إدخال السياسة في مؤسسات التعليم الثانوي؟"، هنا نلاحظ انشقاقا مكشوفا، وهو الأمر نفسه عندما نطلب: "هل يمكن للأساتذة القيام بالإضراب؟"، ففي هذه الحالة فإن أفراد الطبقات الشعبية، وبتحويل لكفاءتهم السياسية النوعية، يعرفون كيف سيجيبون. يمكننا كذلك أن نطلب:"هل يجب تغيير البرامج؟ هل تؤيدون فرض الرقابة المستمرة؟ هل أنتم مع السماح لأولياء التلاميذ بالانضمام لمجالس الأساتذة؟ هل أنتم مع إلغاء التجميع؟...إلخ"، تحت السؤال: هل أنتم مع إدغار فور؟، كانت هناك كل هذه الأسئلة، والناس اتخذوا موقفا على مرة واحدة، حول مجموعة من المشاكل التي لا يمكن لاستبيان جيد أن يطرحها في أقل من ستين سؤالا، وحيث نلاحظ وجودا لمتغيرات في كل الاتجاهات. ففي الحالة الأولى، تكون الآراء مرتبطة ايجابيا بموقع المجيبين في السلم الاجتماعي، أما في الحالة الأخرى، يكون الارتباط سلبيا، ففي بعض الحالات يكون ذلك بشكل قوي، وفي حالات أخرى بشكل ضعيف، أو لا يكون الارتباط أصلا. يكفي التفكير في أن الاستشارة الانتخابية تمثل حدود سؤال كهذا:"هل أنتم مؤيدون لـــ إدغار فور؟" لنفهم أن علماء علم الاجتماع السياسي يمكنهم تسجيل العلاقة التي تلاحظ عادة في كل مجالات الممارسة الاجتماعية، بين الطبقة الاجتماعية والممارسات والآراء، بأنها علاقة ضعيفة جدا، عندما يتعلق الأمر بالظواهر الانتخابية، إلى درجة أن البعض لا يتردد في الوصول لاستنتاج مفاده، أنه لا توجد أية علاقة بين الطبقة الاجتماعية، وواقع الانتخاب لصالح اليمين، أو لصالح اليسار.

إذا كنتم تعتقدون أن استشارة انتخابية تطرح في سؤال تلفيقي واحد، ما لا يمكننا فهمه بعقلانية إلا في حدود مائتي سؤال، وفي أن ما يقيسه البعض بالسنتيمترات، يقيسه الآخرون بالكيلومترات، وبأن إستراتيجية المرشحين تسير على مبدإ طرح الأسئلة بشكل غير صحيح، وعلى اللعب على إخفاء الاختلافات قدر المستطاع، من أجل اصطياد الأصوات التي تطفو وغيرها من الآثار الكثيرة. فإنكم ستستخلصون؛ بأنه يجب ربما طرح السؤال التقليدي حول العلاقة بين الانتخاب والطبقة الاجتماعية بشكل مقلوب، والتساؤل في الوقت ذاته، لماذا نلاحظ وجود هذه العلاقة حتى وإن كانت ضعيفة، والتساؤل في الوقت نفسه حول وظيفة النظام الانتخابي، هذه الأداة التي تسعى بطبيعتها التخفيف من النزاعات والخلافات. ما هو مؤكد، هو أنه من خلال دراسة سير سبر الآراء، يمكننا أن نأخذ فكرة حول الطريقة التي يسير بها هذا النوع من تحقيقات الرأي، ألا وهي الاستشارة الانتخابية، والآثار التي تنتجها.

ببساطة وباختصار، كنت أود القول بأن الرأي العام غير موجود، على الأقل بهذا الشكل الذي يقره هؤلاء الذين لهم مصلحة في إقرار وفرض وجوده.

قلت بأنه، توجد من جهة آراء مشكلة، وآراء مجندة، وجماعات ضغط مجندة حول نسق من المصالح المعلن عنها صراحة، ومن جهة أخرى، توجد إجراءات ليست من الناحية المبدئية آراء، إذا كان المقصود بالرأي –كما فعلته طوال هذا التحليل– شيئا يمكن أن يعبر عنه بخطاب يسعى لتحقيق نوع من الاتساق. تعريف الرأي هذا ليس رأيي حول الرأي، بل هو ببساطة شرح للتعريف الذي وضعه حيز التنفيذ رواد عمليات سبر الآراء، من خلال مطالباتهم الناس باتخاذ موقف حول آراء معبر عنها، ومن خلال إنتاج تجميع إحصائي بسيط لآراء أنتجت هكذا، هذا الشيء المصطنع الذي هو الرأي العام.

أقول وببساطة، إن الرأي العام في قبوله الضمني من قبل الذين يقومون بعمليات سبر الآراء، أو الذين يستخدمون نتائجه، أقول ببساطة إن هذا الرأي العام غير موجود.

العلوم في بلاد الإسلام: "من إرث الأولين إلى التلقي الأوروبي"

(القرن الثامن- القرن السابع عشر)

لـــ : أحمد جبار

ترجمة: إبراهيم سعدي

انطلاقا من القرن الثامن، وبعد فترة طويلة من الاختمار، بدأت حضارة أصيلة قوية، تحملها ديانة جديدة، هي الديانة الإسلامية، ناطقة أساسا باللغة العربيةّ[xxxvii]، تبرز في إطار فضاء جغرافي- سياسي واقتصادي، يمتد من تخوم آسيا الوسطى إلى غاية خاصرة جبال البرانس. وكان النشاط الفكري من ضمن العوامل المكونة والمميزة لهذه الحضارة. وقد كانت متعددة الأشكال وعظيمة الثراء. بعضها اغترف من المخزون الثقافي المحلي، أي من (النثر والشعر العربيين)، أو من مدونات الديانة الجديدة (القرآن والحديث). والبعض الآخر تأثر بالإرث القديم لليونان، والهند، وفارس، وبلاد ما بين النهرين، مواصلا مضامينه بمختلف الأشكال، وأحيانا بالتحرر من هذا الميراث، عبر نقد خلاق، وتجديد ذي مغزى.

وقد وصف القسم الأول من هذه النشاطات، من طرف مؤرخي هذه الحضارة ب "علوم النقل". وهي تتعلق إذن بميادين ندرجها اليوم ضمن "علوم اللغة" (النحو، صرفمية[xxxvii]، اللسانيات، المعجمية، علم العروض، والإيقاع)، وأيضا ضمن "علوم الدين" (علم الأصول، الفقه وعلم الكلام)[xxxvii]، وبصورة عامة ضمن كل ما يتعلق ب"العلوم الإنسانية". وكون هذه المواد قد تم تمييزها بوضوح في التصنيفات العربية عن "العلوم الدقيقة"، أمر لا يعني على الإطلاق أنها فصلت عنها عمليا. وسنقدم في الصفحات التالية أمثلة ذات دلالة، تبين على العكس أنه كانت توجد جسور تربط بين هذين الميدانين الكبيرين، وفي بعض الأحيان تبادل التأثير بما يخدم تقدم المعرفة.

يوصف القسم الثاني من النشاطات الفكرية في بلاد الإسلام بـــ"العلوم العقلية" أو "علوم الأولين". وتتطابق عناوينها مع المواد الكلاسيكية للتراث اليوناني، أعني الرياضيات، الفيزياء والفلسفة. لكن ضمن كل فصل من هذه الفصول الكبيرة، كان يوجد تنوع كبير في المعارف النظرية، والتطبيقات العالمة أو النفعية ببساطة. ففي الرياضيات والهندسة والحساب والفلك والموسيقى، وهي تخصصات كانت تشكل التصنيف اليوناني، تم إيجاد مكان لمواد جديدة أو لفصول مستحدثة، مثل الجبر، والتحليل التوافقي، وحساب المثلثات، والمربعات السحرية. وفي الفيزياء، كانت جميع علوم "الحياة والأرض" محل دراسة. ويتعلق الأمر بمختلف ميادين الفيزياء بالمعنى الدقيق (الأثقال الخاصة، الميكانيكا، والديناميكا المائية...)، وبالطب بمختلف فروعه (علم التشريح، علم وظائف الأعضاء، أقراباذين[xxxvii])، وعلم النبات، الكيمياء (التجريبية والباطنية)، علاوة على علم الحيوان.

أما الفلسفة؛ فقد كانت في نظر علماء اليونان المجال الذي بوسعه أن يحاضر حول العلوم العقلية الأخرى، وخاصة حول أسسها. ولن يحيد رجال العلم في بلاد الإسلام، بوصفهم تلاميذ نجباء، عن هذه النظرة. كان هنالك، عمليا، نشاط فلسفي، يتناول قضايا كبرى سبق وأن درسها أرسطو، أفلاطون، وشارحوهما، مع توسع في مجال المنطق. وبعد أن بلغت العلوم تطورها الأقصى، لوحظ وجود تداخل مباشر أو غير مباشر للفلسفة والمنطق، في الرياضيات، وذلك في معرض المناقشات حول أسس الهندسة، والفلك، مما أدى إلى توجيه أولى الانتقادات للأنظمة الكوكبية، كما تصورها بطليموس ptolémée.

مرحلة النضج:

المعلومات التي وصلتنا عن بدايات الأنشطة العلمية الإسلامية خلال القرن الأول من تاريخ بلاد الإسلام (632-750) نادرة وغير مؤكدة. وعلاوة على ذلك؛ فهي غير كافية لمعرفة المصادر والعوامل والأحداث التي كانت الأصل في ميلاد التراث العلمي العربي (أعني مجمل المدونة المنتجة باللغة العربية منذ أواخر القرن الثامن إلى بداية القرن الخامس عشر في مختلف مدن الخلافة الإسلامية). لكن ولحسن الحظ؛ فإن صمت المصادر الكلاسيكية (حوليات، تراجم ومؤلفات تاريخية وأدبية) قد تم تداركه، بفضل النتائج التي

حققتها الدراسات المقارنة لمحتويات بعض الكتابات العربية بالمصادر السابقة على الإسلام التي وصلت إلينا.

لقد أصبح الآن من المسلم به أن الفترة الطويلة الممتدة من سنة 632، وهي سنة موت الرسول، إلى غاية ظهور أول عمل علمي باللغة العربية، حوالي 775، كانت فترة غنية بالمعارف والمهارات، وإن لم تكن هذه المعارف تتخذ دائما شكل مؤلفات، ولا كانت تتمتع بتعليم "أكاديمي". يمكن أن نضيف أيضا بأن هذه المرحلة كانت مرحلة أساسية بالنسبة لمسار العلم في الإمبراطورية الجديدة، لأنها سمحت بإرساء البنيات التي سوف تضمن نجاح المبادرات الأولى المتخذة في هذا الميدان. ففي هذه الفترة بدأ بالفعل تبلور تعليم اللغة العربية، الذي لم يكن دائما متداخلا مع تدريس القرآن، ثم انتشر بعد ذلك هذا التعليم في كامل أرجاء الخلافة. ويبدو أن المساجد وحدها أمكنها، في بداية هذه الظاهرة، احتضان هذا التعليم، ولكن توسع التعريب ساهم في تكاثر أماكن التعليم الدنيوي. وقد ظهرت في هذه الفترة أيضا أولى المكتبات المحتوية على كتابات بالعربية (حوليات، نسخ للقرآن، الترجمات الأولى للمؤلفات النفعية مثل البحوث المتعلقة بعلم الفلك أو بفن الحرب).[xxxvii]

لقد كان الأمر يتعلق أيضا بمرحلة نضج وإعداد شروط الممارسة العلمية التي عرفت مبادرات كانت نتائجها هامة جدا لتقدم العلوم. أولى هذه المبادرات، التي كانت سياسية وإيديولوجية في آن واحد، تتمثل في قرار الخليفة الأموي عبد الملك (685- 705) تعريب إدارة الخلافة. وإلى غاية صدور هذا المرسوم ولأسباب متعلقة باستمرارية النشاطات؛ وذلك لفائدة الموظفين، كانت الفارسية، والسريانية، واليونانية، لغات العمل في مختلف دواليب الدولة المركزية. وكان تطبيق هذا المرسوم يعني في الأخير تعريب كل المعارف والمهارات الضرورية للسير الحسن للمؤسسات. يبدو إذن أن هذا الأمر أنتج ظاهرة نقل قسم من المعارف القديمة، قبل بداية ظاهرة الترجمة التي استفادت هي نفسها من هذا الظرف المناسب[xxxvii].

المبادرة الثانية لم تكن سياسية ولا فردية، غير أنها لم تكن مستقلة عن العامل الأول.

لقد ترتبت عن المكانة المكتسبة للغة العربية بعد انتصار الإسلام. فبعدما أصبحت لغة العبادة والسلطة السياسية وإداراتها المركزية والإقليمية، تحول دور اللغة العربية من وسيلة تعبير إلى موضوع دراسة. وفتح ذلك الطريق للأبحاث الأولى حول هذه اللغة. ليس من نافل القول أن أحد الرواد في هذا المجال، وهو الخليل بن أحمد (ت. حوالي 786) قد دشن طرقا علمية حقيقية، بأن سعى إلى تحليل البنيات الداخلية للنثر والشعر العربيين، واستخلاص نظريات متناسقة من ذلك. وقد حملته بعض أبحاثه إلى تناول مسائل رياضية لم تجد حلا كاملا ومرضيا لها إلا في حوالي نهاية القرن الثاني عشر، في مراكش[xxxvii].

أما فيما يخص محتوى المعرفة المتداول خلال هذه المرحلة الطويلة من اختمار مجيء العلم، فقد كان ذا غاية نفعية بالأساس. نجد فيه نتائج ملاحظات في الفلك، والرصد الجوي، تم جمعها واختبارها بتأن، وإجراءات في الحساب، وفي حل مسائل متعلقة بالأنشطة اليومية للمساحين والمحاسبين، وموظفي التسجيل العقاري، وموزعي الميراث. وفي هذه المرحلة، كان الطب أحد الميادين النادرة المنتهجة بطريقتين مختلفتين. لقد كان هناك طب يعرف بالطب التقليدي، يعتمد على وصفات ذات ركيزة من الأعشاب، مرفقة أحيانا بطقوس سحرية. وبالنسبة للفئات الاجتماعية المرفهة، كان هناك طب عالم، وهو وريث التقاليد اليونانية الكبيرة، التي كانت لا تزال تدرس في القرنين السابع والثامن في بعض المراكز النادرة، مثل الإسكندرية بمصر، وجنديسبور في بلاد فارس.

ظاهرة الترجمة:

وحسب مصادر كتاب التراجم وبعض شهادات رجال العلم، فإن الترجمة إلى العربية قد بدأت قبل القرن الثامن، واستمرت إلى غاية القرن العاشر. ونقرأ في المؤلف المشهور، *الفهرست*،لابن النديم (ت.995) بأن الدفع الأول الذي أعطي لهذه الظاهرة جاء نتيجة منام للخليفة المأمون (81- 833)، يكون قد رأى فيه أرسطو ذاته. وتكون المحاورة القصيرة التي تمت بينهما حول مفهوم "الخير"، قد أقنعته بأن يرسل إلى بيزنطة بعثة من المترجمين بحثا عن مخطوطات علمية وفلسفية يونانية. هذه "الأسطورة المؤسسة" تأتي في الواقع لتؤكد الدور الحاسم لهذا الخليفة، في إرساء وتقدم حركة الترجمة. لكننا نعرف اليوم أن مبادراته تندرج

ضمن تقليد دشنه والد جده، المنصور، (754- 775). نعرف أيضا أن عاملا أهم من هذه الرعاية من قبل الخليفة، ساهم في نجاح هذه الحركة الجماعية. ويتعلق الأمر، وهذا منذ القرن الخامس على الأقل، باستمرار وجود مراكز علمية ناطقة باليونانية، أو السريانية، أو الفارسية، ألفت نفسها واقعة تحت حكم السلطة الجديدة.

وفي مصر، كان المركز العلمي موجودا في الإسكندرية بطبيعة الحال، متمثلا في ما كان متبقيا فيها من مكتبات خاصة. أنشطة فلسفية، وطبية كان يشار إلى وجودها هناك في القرن السادس. أحد ممثلي هذا التقليد اليوناني كان يوحنا فيلوبون Jean Philopon، الذي شرح أعمال أرسطو، والمعروف بموجزه حول الإسطرلاب (أقدم نص معروف خاص بهذه الأداة[xxxvii]). أثناء وصول الفرسان العرب الأوائل، كان لا يزال هناك أطباء يواصلون فن جالينوس Galien، من خلال تعليمهم ومؤلفاتهم. لقد كان ذلك شأن بولس الإيجيني Paul d'Egine، والقس هارون[xxxvii] Ahrun.

وفي بلاد فارس، كانت مدينة جنديسبور، التي أصبحت تابعة للخلافة، لا تزال تحتفظ بتراث طبي، وإن لم تعد تشهد نفس حيوية عصر الإمبراطور كسرى أنوشروان khusru Anushrwan (521- 579) مؤسسها وراعيها. لقد كان هذا الأخير باعث سياسة ثقافية وعلمية، تجسدت من خلال استضافة علماء أجانب، وتشجيع ترجمة المؤلفات العلمية من اليونانية والسنسكريتية إلى الفارسية[xxxvii]. بل يكون قد أرسل أحد أطبائه، وهو برزويه، إلى الهند، للحصول على مخطوطات من هناك.

وفي بلاد وادي الرافدين، وآسيا الصغرى، كانت توجد مراكز أنتيوش، ونصيبين، وحران، ورأس العين، وقنسرين. كانت هذه المراكز، وذلك أحيانا منذ القرن الخامس، تشكل مواطن فكرية قوية ناطقة بالسريانية. كان تعليم أساتذتها ومؤلفاتهم يتعلق أساسا باللاهوت، والفلسفة، والنحو. غير أن الرياضيات وعلم الفلك لم يكونا غائبين، إذ وصلتنا ترجمة جزئية إلى السريانية لكتاب *العناصر* *Les Eléments* لأوقليدس، وكتابات أصلية، تدور حول موضوعات فلكية[xxxvii]. من بين العلماء البارزين لهذا التقليد نجد سيفر سيبوخت Sévère Sebokht (ت. عام 667)، الذي عمل في دير قنسرين. وهو معروف بشرحه لكتاب أرسطو

التحليلات Analytiques، وبمؤلفاته العلمية، لاسيما كتابه حول الإسطرلاب (الذي وصلنا)، وبكتاباته حول الجغرافية[xxxvii]. يمكن حتى أن يكون أحد الرواد في تدريس المبادئ الأولى لعلم الفلك، والحساب الهندي، الذي وصل إلى المنطقة عبر بلاد فارس[xxxvii]. غير أن تلاميذه هم الذين شكلوا حلقة الوصل الحقيقية مع التقليد العلمي العربي الناشئ، إذ أنهم عاشوا ودرسوا كرعايا الإمبراطورية الجديدة. من بينهم كان يوجد جاك الإيديسي Jacques d'Edesse (633- 708)، الذي ترجم قسما من المؤلفات الطبية لجالينوس (ت. حوالي 200)، وأثناسوس، Athanase (ت. 686) وجورجيوس العرب Georges des Arabes، الذين نقلوا إلى السريانية كتاب *l'Isagoge* لبورفيريوس Porphyre، و*الآلة l'Organon والمقولات* لأرسطو.

يعود الفضل إلى هذه التقاليد الثلاثة، وإلى ما أمكنها المحافظة عليه من ميراث الأولين، وإلى ما تبقى من نشاطات، في تحقق حيازة العلوم الدقيقة بصورة دائمة. فالذين لعبوا أولا دور حلقة اتصال بأن وضعوا أنفسهم تحت خدمة الحكام الجدد والنخب الجديدة (لاسيما في مجال المحاسبة والتسيير الإداري والطب وعلم الفلك)، هم رجال تتلمذوا وتكونوا في هذه أو تلك من الثقافات الثلاث. وبالنظر إلى مستوى تكوينهم، كانوا ضروريين، بل ولا غنى عنهم، لضمان سير الإدارة. ثم إن البعض منهم عرضوا، بعد انتشار استعمال اللغة العربية، خدماتهم للمساهمة في نقل المعرفة. وموازاة مع ذلك، ساهم بنشاط أعضاء آخرون، من المنتمين إلى هذه الفئة المتعلمة، في رعاية المخطوطات الواجب ترجمتها، والبحث عنها[xxxvii].

وفي هذا البحث عن المخطوطات، لعبت المكتبات دورا أساسيا. نحن نعلم الآن من خلال مختلف الشهادات؛ أنها كانت موجودة عند وصول الفرسان العرب الأوائل إلى المناطق المستولى عليها حديثا. غير أننا نجهل كل شيء عن مواقعها، وعن محتوياتها بالضبط. من الراجح أن البعض منها أثرى غنائم الجيوش الإسلامية، الرامية إلى تزويد المكتبات الجديدة، المنشأة من طرف الخلفاء الأمويين، ثم خلفائهم العباسيين الأوائل من بعدهم[xxxvii]. لكن يبدو أن معظم المكتبات التي كانت موجودة في المشرق، قد استمرت تعمل، كأمكنة دراسية خاصة.

كانت المبادرات الأولى للخلفاء هي التي كانت الأصل في نشأة المكتبات العمومية ونصف العمومية الأولى. وقد احتوت الكتب المستعارة لغرض الترجمة وصياغاتها الجديدة بالعربية، فضلا عن الكتابات التي سبق نشرها، والتي لم تنتظر ترجمة المؤلفات القديمة. ويبدو بهذا الشأن؛ أن الخليفة الأموي الوليد (705- 720) هو أول من مول تأسيس، وتسيير، مكتبة تابعة للخلافة.

وحسب ابن النديم، ظهرت في هذا العصر أيضا أولى الترجمات بالعربية. ويعتبر الأمير خالد بن يزيد (ت. 704) أحد باعثي هذا النشاط الجديد. وحتى وإن كان قد أعيد النظر في هذه المعلومة، يبدو حقا أن الترجمات قد أنجزت قبل عام 750. الاسمان اللذان جاء ذكرهما من طرف علماء التأليف العرب هما ابن قسطنطين ومسرجويه، وكان هذا الأخير يترجم من السريانية للخليفة عمر بن عبد العزيز (717– 720)[xxxvii].

ابتداء من حكم المنصور (754- 775)، الخليفة الثاني في العهد العباسي، عرفت ظاهرة الترجمة دفعا جديدا، وعنت أكثر فأكثر عددا أكبر من المحسنين والمستعملين للنصوص المترجمة. ويكون جورجيوس بن جبريل، والبطريق، هما من قاما بترجمة المؤلفات الطبية، وابن المقفع المترجم الذائع الصيت لحكايات كليلة ودمنة، هو من كلف بإنجاز الصيغة الأولى لكتاب *إيزاغوج* *Isagoge* لبورفريوس، وثلاثة مؤلفات في المنطق لأرسطو. بالنسبة للرياضيات لا نملك معلومات دقيقة، لكن فيما يتعلق بعلم الفلك، لدينا شهادة ثمينة لمختص في هذا الميدان، وهو ابن الأعظمي الذي يروي بأنه" *في عام 156ه، حضر عند الخليفة المنصور رجل من الهند كان عالما في حساب السندهند، المتعلق بحركة الكواكب بمعادلات معدة من جداول محسوبة من نصف درجة إلى نصف درجة، مع مختلف العمليات الفلكية، الكسوف والخسوف، وصعود انقسامات البروج، وأشياء أخرى < محتواة > في كتاب يضم اثني عشر فصلا (...)، فأمر المنصور بترجمته إلى العربية، وتحرير كتاب يستخدمه العرب كقاعدة في < دراسة> حركات الكواكب*"[xxxvii].

وفي عهد الخليفتين المهدي (775- 785)، وهارون الرشيد (785-809)، استمرت الترجمات، مستفيدة من رعاية جديدة، يعود الفضل فيها إلى شخصيات نافذة، مثل تلك

المنتمية إلى عائلة البرمكيين. حوالي 742 كان كتاب *طوبيقا* *Topiques* لأرسطو، هو الذي عرّب، انطلاقا من السريانية من طرف مسيحيين نسطوريين، وهما تيموثي Timothy I I وأبو نوح[xxxvii]. وبعد وقت قليل من ذلك، ترجمت الصيغ الفارسية لمؤلفات فلكية وفلسفية من قبل ابن النوبخت. ثم جاء دور *المقولات والتحليلات لأرسطو*، لكي تحظى بالترجمة من طرف سالم الحراني[xxxvii]. وكما نلاحظ، فإن الأمر لا يتعلق دائما بمؤلفات نفعية تستجيب لحاجيات الحياة اليومية. الشيء الذي يعني أنه كانت توجد منذ ذلك الوقت أولى مكونات طائفة جديدة، بلغت مستوى معينا من التكون المعرفي، يسمح لها بالطموح إلى دراسة أبحاث صعبة، كتلك المتعلقة بالفلسفة اليونانية.

هذا الواقع يؤكده بطريقة غير مباشرة قرار هارون الرشيد بتأسيس مؤسسة تسمى *"بيت الحكمة"*، التي تكون قد ضمت مثقفين ذوي مستوى عال في مختلف التخصصات. وقد اشتغلت هذه المؤسسة في بدايتها كمكتبة تخزن فيها وثائق نادرة تتعلق بمرحلة الرسول، وبمؤلفات متحصل عليها بواسطة الغنائم، وبترجمات لمخطوطات قديمة ذات أصل يوناني، فارسي، أو سرياني، أو بنسخ لأولى المنشورات بالعربية[xxxvii]. من بين المؤلفات اليونانية التي أودعت على الأرجح صيغها العربية بيت الحكمة، كانت توجد تلك التي كانت قد طلبت من طرف شخصيات هامة، تنتمي إلى حاشية الخليفة، أو التي أهديت إلى الخليفة نفسه. ذلك كان حال *المجسطي* *Almageste* لبطليموس، الذي كانت ترجمته ممولة من طرف يحي بن خالد البرمكي، و*العناصر* لأوقليدس، الذي أهديت صيغته العربية الأولى، المنجزة من طرف الحجاج بن مطر، إلى هارون الرشيد[xxxvii]. لكن هذا لا يعني أن الترجمات كانت تنجز في بيت الحكمة. بل يبدو أن أكثر من مولوا عملية النقل هذه، كانوا أشخاصا لا علاقة لهم بهذه المؤسسة.

وسوف تتطور الظاهرة في عهد المأمون (813-833)، الذي انخرط فيها بشكل أساسي، من خلال قيامه بعدد من المبادرات لصالح ترجمة مؤلفات علمية وفلسفية يونانية. و حسب ابن النديم، فإن الخليفة نفسه يكون قد اتصل كتابيا، قبيل عام 815، بإمبراطور بيزنطة ليون الخامس (813-820)، طالبا منه استقبال بعثة تتألف من مترجمين من بينهم سليم، وهو أول

مدير لبيت الحكمة، وأيضا يحي البطريق، والحجاج. ومن المحتمل أن يكون هذا الأخير قد أنجز الصيغة العربية الثانية لكتاب *العناصر*، الذي أهداه إلى المأمون، بعد عودته من هذه المهمة[xxxvii]. هذه الفترة شهدت أيضا ظهور كبار المترجمين العرب، وعلى رأسهم حنين بن إسحاق (ت. 873)، الذي كان يشرف على فريق حقيقي، يتألف من ابنه إسحاق، ومن ابن أخته حبيش، ومن مختصين آخرين أقل شهرة، مثل إتيان بن بازيل، وموسى بن خالد، ويحي بن هارون.

هذه المبادرات المتخذة من طرف الخلفاء الثلاثة الذين جئنا على ذكرهم، قد أكملتها وبقوة مبادرات أخرى أكثر عددا، صادرة عن "المجتمع المدني" في ذلك العصر. وهو الأمر الذي أتاح لمدة عقود طويلة التكفل المالي بالبحث عن المخطوطات، وفي آن واحد، بالمنح الخاصة بها (عندما يحدث اكتشاف نسخ عديدة لمؤلف واحد)، وبترجمتها وحتى بنسخها أحيانا. من بين هؤلاء المحسنين الكثيرين، يذكر علماء التراجم موظفين سامين، مثل طاهر بن الحسين، الذي طلب الصيغ العربية لعدد من الشروح الخاصة بمؤلفات أرسطو، أو إسحاق بن سليمان، حاكم مصر، الذي مول ترجمة أربعة مؤلفات طبية لجالينوس، أو علي بن يحي بن أبي منصور، الذي طلب بالأساس ترجمة المؤلفات الطبية، والرياضية، والموسيقية[xxxvii].

كان هناك أيضا علماء ميسرون بحاجة إلى الصيغ العربية للمؤلفات اليونانية لانجاز أبحاثهم. كان ذلك حال الكندي (ت. 850) فيما يخص الأعمال الفلسفية، التي ترجمت له من طرف عبد المسيح بن نعمة المسيحي، وخصوصا الإخوة أبناء موسى (القرن التاسع)، الذين كانوا مختصين في الهندسة، والميكانيكا. وقد وظفوا المترجمين الأكثر شهرة في زمنهم، وهم حنين بن إسحاق وحبيش وابن أبي هلال وثابت بن قرة. ويتحدث ابن النديم عن هؤلاء الإخوة الثلاثة المحسنين بالعبارات التالية: "*هؤلاء الناس سعوا أكثر من غيرهم وراء العلوم القديمة، مضحين في سبيلها بالمال والجهد. لقد أرسلوا إلى أرض بيزنطة من عثروا عليها لصالحهم، وجلبوا مترجمين من مختلف الأقطار والأمصار، وأجزلوا لهم العطاء واستخرجوا نفائس العلوم*".

وفي ختام هذا العرض السريع لظاهرة الترجمة، ليس من غير المجدي أن نجري حصيلة كمية ونوعية لهذه الحركة معتمدين على المعلومات المقدمة من طرف كتاب التراجم. إذا ما حصرنا الأمر في المترجمين الذين ورد ذكرهم في الفهارس، نجد أن عددهم يتجاوز المائة. يذكر ابن النديم وحده ما يزيد عن 60 اسما، 45 منهم قاموا بالترجمة من اليونانية أو من السريانية، و16 من الفارسية، و2 من الفارسية، وواحد من النبطية. ويذكر آخرون من كتاب التراجم أسماء مغايرة أو ترجمات لم تذكر أسماء أصحابها بوضوح. ويمكن أن نضيف إلى هذه الجماعة التي عملت بالمشرق وغالبا في بغداد، مترجمي الأندلس الذين أنجزوا ترجمات من اللاتينية إلى العربية. ذلك هو شأن القس نيكولاس الذي ترجم *كتاب النباتات* لصاحبه ديوسكريد Dioscride، والمجهولين الذين ترجموا في القرنين التاسع والعاشر *الحكم لإبقراط* Hippocrate، وكتاب التاريخ لبولوس أوروسيوس Paulus Orosius (ت. سنة 417)، و*حوليات* سان جيروم Saint Jérome (القرن الرابع)، و*علم الاشتقاق* لإيزيدور الصقلي Esidore de Séville (570- 636)[xxxvii]. يجب أن نذكر أخيرا عددا من النصوص اليونانية والسنسكريتية وحتى اللاتينية التي حظيت بترجمات غير معروف أصحابها أو التي تم تداولها بطريقة مباشرة، من خلال مستخدمين كان بوسعهم معرفة محتوى هذه النصوص والذين اكتفوا بالاحتفاظ بأفكارها وتقنياتها دونما حاجة إلى ترجمتها.

على الصعيد النوعي، يعبر كتاب التراجم والعلماء أنفسهم عن أحكام تارة مادحة وتارة ناقدة حول عمل هذا أو ذاك من المترجمين. وإذا ما أردنا أن نأخذ الرياضيات وعلم الفلك كمثالين، نلاحظ أن بعض المؤلفات الهامة حظيت بترجمات عديدة. لقد أتينا سابقا على ذكر ترجمتين لكتاب " *العناصر*" لأوقليدس، أنجزهما الحجاج بن مطر. لكن ينبغي التوضيح أن الثانية قد أثارت، على ما يبدو، بعض التحفظات في أوساط المشتغلين بالهندسة. الشيء الذي حدا بابن حنين إلى إعادة ترجمتها. ولم تلبث هذه الترجمة بدورها أن تعرضت للمراجعة على يد عالم الرياضيات الكبير ثابت بن قرة، الذي كان متمكنا من اللغة اليونانية. وقد وقعت حالة مشابهة في مجال علم الفلك، كما يظهر ذلك مثال كتاب *المجسطي*[xxxvii] لبطليموس (القرن الثالث)، الذي كان المرجع الأساس لعلماء الفلك في بلاد الإسلام خلال عدة قرون.

لقد رأت النور الترجمة الأولى ابتداء من منتصف القرن الثامن. ثم لم تلبث أن عوضت بترجمة أخرى، طلبها جعفر البرمكي، وقد تعرضت مرتين للمراجعة: الأولى على يدي أبي الحسن وسالم، والثانية على يدي ثابت بن قرة. كما يشير علماء الفلك إلى وجود ترجمتين مستقلتين عن الترجمات السابقة، الأولى للحجاج، والثانية لإسحاق بن حنين[xxxvii].

لسنا مطلعين على الجانب النوعي للترجمات من اللغة السنسكريتية إلى العربية. وينبغي التوضيح أن علماء التراجم لا يتحدثون لا بإسهاب ولا بدقة عندما يتعلق الأمر بهذه الظاهرة. نحن نعرف أسماء المترجمين، لكننا نجهل الترجمات المنجزة من طرف كل واحد منهم. وبعد أن أوضحنا هذا، فإنه يبدو أن رجال العلم العرب الأوائل الذين اطلعوا على الكتابات الهندية لم يكتفوا بالترجمات العربية الرديئة، المنجزة من طرف أشخاص لم يكن لديهم نفس التمكن من اللغتين المتوفر لدى زملائهم المترجمين من اليونانية، أو من السريانية. هذا على الأقل ما يؤكده على ما يبدو البيروني، عالم الفلك المشهور، (ت. عام 1058)، الذي يتحدث عن إحدى الترجمات التي وقعت بين يديه بالعبارات التالية: *"لقد صححت زج الأرقند، وكتبته بعباراتي، لأن الترجمات الموجودة كانت غير مفهومة، والمفردات الهندية بقيت على حالها"*[xxxvii].

ويبدو أن تعدد الترجمات لم يكن نتاج مجرد منافسة بين محترفين. أحد أسباب ذلك يجب البحث عنه في التطورات الأولى التي عرفتها الأنشطة العلمية في نهاية القرن الثامن، والتي أدت إلى استيعاب أفضل لمفاهيم مختلف المجالات المدروسة. وقد ساهم ذلك في تحقيق تقيد أكبر بالمصادر، والبحث عن أفضل صيغ التعبير بالعربية. السبب الثاني يمكن أن يكون مرتبطا باكتشاف المخطوطات الجديدة، التي اعتبرت محتوياتها أكثر اكتمالا وأكثر دقة. ذلك ما يؤكده حنين بن إسحاق، الذي يبرر مراجعته لترجمته الأولى المنجزة حول *كتاب النفس* لأرسطو بالعبارات التالية:" *لقد قمت بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، انطلاقا من نسخة فاسدة. وبعد ثلاثين سنة، عثرت على نسخة أكثر جودة. قارنت إياها حينئذ بالترجمة الأولى*"[xxxvii]. من ناحيته، يكون نازف المتطبب قد اتخذ قرار إعادة ترجمة فصل

واحد من كتاب *العناصر*، الكتاب العاشر، لأنه اكتشف نسخة تتضمن قدرا من المقدمات أكبر من كل ما استخدم لإنجاز الترجمات العربية السابقة [xxxvii].

المرحلة الأولى من الإنتاج العلمي العربي:

دون انتظار تعدد الترجمات وانتشارها، شرع مؤلفون في نشر مؤلفات علمية حول مختلف الموضوعات، ملبين بذلك حاجات بدأت تتبلور أو لم تفتأ تتفاقم نتيجة بروز فئات اجتماعية أكثر تعريبا. وفي عهد المنصور، ظهرت أولى المؤلفات العربية في الطب، مثل كتاب جورجيوس أبو بختيشوع[xxxvii]، وفي علم الفلك، مثل *السندهند الكبير*، لصاحبه محمد الفزاري (القرن الثامن)، أو في علم التنجيم، مثل *رسائل ما شاء الله*[xxxvii]. انطلاقا من هنا، وعلى أساس العلاقة المباشرة مع محتوى الكثير من الموروثات التي سبق وأن أتينا على ذكرها، نشأ تقليد علمي حقيقي، بمؤسساته التعليمية، وإنتاجه المتخصص، ومجالات بحثه، وتطبيقاته، وبطائفة الممارسين له، بطبيعة الحال، الذين سيتميزون عن غيرهم، بنوعية أنشطتهم، وشبكة علاقاتهم.

لكن، وبعد أن ذكرنا الظرف الذي انبثق منه هذا التقليد، وقبل أن نصف بخطوط عريضة التوجهات الأساسية التي عرفها، يتعين علينا أن نقول بعض الكلمات حول العوامل الأكثر أهمية، التي رافقته خلال تطوره طوال القرن التاسع إلى غاية القرن الثالث عشر. هناك أولا العوامل الاقتصادية. لقد كانت الخلافة الإسلامية الناجمة عن الفتوحات التي جرت بين سنة 632 وسنة 750، تظهر أثناء قيام الحكم العباسي كأراض شاسعة، تتحكم في أهم المصادر، وطرق وأسواق التجارة الدولية. وابتداء من القرن التاسع، كان تجارها يتواجدون في كل مكان، في البحر الأبيض المتوسط، وفي البحر الأحمر، وفي المحيط الهندي، وحتى في الصين، داخل الموانئ الإستراتيجية، مثل كانتون. وبالإضافة إلى ذلك؛ فإن توحيد الأراضي في ظل سلطة سياسية واحدة، وهي سلطة الخليفة، قد أتاح للتجارة الاستفادة من شبكة مواصلات موحدة، محمية و نشطة.

العامل الثاني ذو طابع مادي، وهو يمثل ثورة حقيقية بالنسبة لكل الذين كانت مهنتهم تتمثل في الكتابة، والذين سيصبح عددهم متزايدا باستمرار، إلى حد تشكيل طبقة اجتماعية حقيقية. ويتعلق الأمر بظهور الورق، كدعامة لنشاطات التعليم والنشر، دون الحديث عن دوره في كل الإدارات المركزية، والإقليمية التابعة للخلافة. ويمثل تعدد أماكن إنتاج هذه الأداة، والذي تؤكده العديد من الشهادات، دليلا واضحا على تبنيه بسرعة نسبيا. ويشكل العدد المعتبر للكتابات المنجزة على الورق، ابتداء من القرن التاسع، دليلا آخر على ذلك[xxxvii].

العامل الثالث، الذي ما كان لأي معرفة أن تصبح متداولة بدونه، هو تطور مؤسسات التعليم. وعلى الرغم من عدم وجود أي شك بشأن وجودها وتنوعها وأهميتها، فإننا لا نملك غير قدر قليل من المعلومات بشأن ما كان يدرس فيها من العلم، فيما يتعلق بكل مستوى من مستويات التكوين. فيما يخص المستوى الابتدائي (أو ما يتطابق معه)، كانت الدروس تلقى في مساجد الأحياء وعند الخواص. وكان يتم فيها تدريس اللغة العربية، وحفظ القرآن، والمبادئ الأساسية للدين، ثم النحو، والحساب. وكان النظام المعمول به في تعليم هذه المواد يتوقف على المنهج التربوي الساري في كل منطقة، وفي كل مدينة معنية. وكان التلاميذ، حسبما ذكر ابن خلدون (ت: 1406)، يتعلمون، في بعض الأوساط، الشعر، والخط أيضا[xxxvii].

والواقع أنه لم يكن يوجد قط برنامج موحد، لأنه لم تكن توجد مؤسسة مكلفة بإعداد البرامج وتطبيقها. لا نعلم إلى أي سن كانت تستمر المرحلة الابتدائية، ولا أحد يشير إلى وجود مرحلة وسيطة، تكون متطابقة مع مرحلة التعليم الثانوي، يكون دورها التحضير إلى التخصص في إطار تكوين عال. وكان هذا الأخير يتم في مؤسسات متنوعة، وذلك وفق طبيعة الاختصاص المدروس، في الجوامع الكبيرة بالنسبة للمواد المتعلقة بالدين واللغة العربية، وفي المستشفيات بالنسبة للطب، *دار العلم*، وفي المكتبات الخاصة والبيوت الشخصية، للأساتذة فيما يتعلق ببعض الاختصاصات العلمية.

بصورة عامة، وذلك إلى غاية القرن الحادي عشر بالنسبة لمركز الخلافة، كان التعليم العالي تعليما خاصا بصورة أساسية. وكان يمنح مكانة لا يستهان بها للمواد العلمية، وللفلسفة. وقد انجر عن استيلاء السلاجقة على الحكم في عام 1055 تجديد هام، من خلال

تأسيس المدارس، وهي نوع من المعاهد العليا، كانت تضمن التعليم والإيواء في آن واحد للطلبة. وعلى خلاف مؤسسات الفترة السابقة، كانت هذه المؤسسات ممولة حصرا من طرف الدولة، التي أصبح لها حق النظر في تعيين المدرسين، وبالتالي في مضمون تعليمهم، أو على الأقل، في توجهاته الكبرى. وبما أن السلاجقة كانوا سنيين، فقد حددوا للمدرسة مهمة ترقية المذهب السني، وكنتيجة لذلك محاربة التيارات الشيعية، أو الحد على الأقل من رواجها. وقد عرف هذا التصور انتشارا واسعا، بهذه الدرجة أو تلك، ابتداء من القرن الثاني عشر، على مستوى جميع مناطق الخلافة. كانت البداية في المركز، ثم في آسيا الوسطى، اللذين استفادا من إنشاء العشرات من هذا النوع من المدارس. ثم جاء دور مصر، والمنطقة المغاربية، والأندلس، لكن بدرجة أقل بالنسبة للمنطقتين الأخيرتين على الأرجح، لكون المذهب السني بات راسخا فيهما، منذ نهاية القرن العاشر[xxxvii].

ينبغي قول بعض الكلمات حول دور المكتبات في تنمية النشاطات العلمية. كثيرا ما يشار بهذا الصدد إلى المؤسسات الممولة من طرف الخلفاء، مثل *بيت الحكمة* في بغداد، في عهد المأمون، أو إلى مكتبة الحاكم II (967- 976) في قرطبة. لكن مهما كانت أهميتها؛ فإن هذه المؤسسات ما كان بإمكانها لوحدها أن تنشط، وبالخصوص أن تحافظ على النشاط العلمي، وذلك لعدة أسباب: أولا لأنها لم تعمر بما فيه الكفاية لكي تطمح، رغم وضعها القانوني وإمكانياتها، إلى التأثير بصورة دائمة على محتوى وتوجهات العلم. ثم إن كونها من تأسيس وتمويل شخص أو شخصين، يجعل محتواها غير قادر على تمثيل كل توجهات وكل جوانب التطبيقات العلمية في تلك الأيام. وينبغي التذكير أخيرا؛ بأنها كانت مؤسسات نصف عمومية، حيث كان ارتيادها حكرا على نخبة وقع فرزها بدقة. لكن هذا لا يمنع أن دور هذه المكتبات كان حاسما على عدة مستويات. فبفضل الرعاية الكريمة لأصحابها، قد أدى ذلك إلى وضع تحت تصرف الباحثين الذين كان بوسعهم ارتيادها ترجمات خاصة بالمؤلفات اليونانية، والهندية، وكذلك المؤلفات الأصلية العالية المستوى، التي كان تداولها محدودا في زمنهم. وقد أتاح ذلك، في مرحلة لاحقة، إلى عدد أكبر من رجال العلم، الإطلاع على هذه المصادر، من خلال النسخ أو المنشورات الجديدة. والراجح أنها لعبت أيضا دور النموذج

الواجب الاقتياد به، وتبعا لذلك تدعيم توجه صار محسوسا ابتداء من القرن التاسع، في الأوساط الموسرة والمثقفة، والتي لم تفتأ تنمو وتتسع لتشمل الأوساط الأقل ثراء، حتى إنها أصبحت تمثل نوعا من السلوك الثقافي تجاه المعرفة المدونة. هذه العشرات الآلاف من المكتبات، المتواضعة جدا في بعض الأحيان، هي التي شكلت المستودع الحقيقي للإنتاج العلمي، وأداة انتشاره.

أما فيما يخص المكتبات في بلاد الإسلام، من حيث علاقتها بنمو الأنشطة الفكرية في مختلف الأوجه، ابتداء من القرن التاسع، ومن حيث التحولات الإيديولوجية التي عرفتها الأجيال المتعاقبة، يكفي أن نذكر هنا الجوانب الأكثر بروزا. لقد بينت الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع، أن مفهوم المكتبات عرف تطورا تبعا لعدة عوامل. بعد المرحلة الريادية، القصيرة نسبيا، وهي مرحلة الأمراء والخلفاء الأمويين، الذين سبق وأن أتينا على ذكر بعض مبادراتهم في هذا المجال، وبعد إنشاء بيت الحكمة، نشهد، مع التطور في مختلف العلوم، تعدد المكتبات الخاصة، الممولة من طرف العلماء، ورجال الأدب أو الدين، وكذا من طرف الموظفين الموسرين. بعض هذه المكتبات كان متخصصا طبقا لانشغالات وميول أصحابها. غير أن القانون الخاص بمعظمها كان لا يسمح بحرية ارتيادها. لقد تعين انتظار مجيء القرن العاشر لكي نشهد تبلور نوع آخر من المؤسسات، تسمى *دار العلم*، يخضع تسييرها لنظام الوقف. وكان ذلك يضمن لها تمويلا منتظما، وبالتالي نوعا من الاستقرار، في التسيير. وبالمقابل، تعين أن تكون في متناول كل القراء. من بين أكثرها ذيوعا، يمكن أن نذكر مكتبة ابن حمدان (القرن العاشر)، في الموصل، ومكتبة ابن سوار في البصرة (القرن العاشر)، وسيبيور في بغداد (القرن الحادي عشر)، ومكتبة جلال الملك في طرابلس (القرن الحادي عشر) وخصوصا مكتبة الخليفة الفاطمي الحكيم في القاهرة، التي ظلت مشتغلة طوال القرن الحادي عشر، وقسما من القرن الثاني عشر[xxxvii]. وابتداء من نهاية القرن الحادي عشر، أصبحت المدارس، وبالتالي المكتبات التابعة لها، مسيرة حسب نفس نظام الوقف. إذن لم يكن هناك تبدل كبير قي نظام عملها.

التوجهات الكبرى للنشاطات العلمية:

بالنظر إلى اتساع امتداد الخلافة الإسلامية وتاريخ مؤسساتها، لم يمر العلم في مختلف أرجائها بنفس الأطوار. لم تعرف أيضا نفس مستوى التقدم في كل المناطق وفي ذات العصر. ثم إنه، بعدما بدأت ظاهرة الانحطاط تستقر بصورة دائمة، لم تفعل فعلها بنفس الطريقة في جميع المراكز العلمية التابعة للخلافة. لكن ولئن أقررنا بهذا الوضع، إلا أننا لا نجد من يحتج اليوم على وجود عصر ذهبي للعلوم، بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر، ساهمت فيه بدرجات متفاوتة كل المراكز الهامة في الخلافة، مهما كان بعدها عن العاصمة بغداد. نعرف أيضا أنه بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر، شهدت مناطق بأكملها، مثل الأندلس، وصقلية، وآسيا، الوسطى وقسم من الهلال الخصيب، توقف حيويتها، وحتى تحطمها، نتيجة مختلف الهجمات العسكرية التي قادها القشتاليون في شبه الجزيرة الإيبيرية، والنورمان في صقلية، والصليبيون في شرق البحر الأبيض المتوسط، والمغول، والفرس. ومع ذلك لم يؤد كل هذا إلى تباطؤ عام للنشاطات العلمية، ولا إلى نضوب روح الإبداع فيها. يمكن أن نفسر الظاهرة باتساع الخلافة؛ التي استطاعت امتصاص مثل هذه الصدمات، وبشبكة مكتبات المناطق غير المتضررة، التي استطاعت الحفاظ على قسم من المعارف التي اختفت في جهات أخرى، وأخيرا بحيوية استمرت متقدة في مراكز ظلت بمنأى عن الحرب. لقد كان ذلك بالخصوص شأن مراكش، ودمشق، والقاهرة، وسمرقند.

من الصعب اختصار تاريخ كل الميادين العلمية الممارسة خلال العصر الذهبي وما بعده. دراسات بأكملها لن تكفي بهذا الشأن. سوف نقتصر إذن على ذكر الاتجاهات الأساسية للعلوم، التي مورست في بلاد الإسلام، وعندما يتعلق الأمر بتلك التي يتطرق إليها العرض، سنحيل في الهوامش إلى المقالات التي خصصت لها في هذا الفهرس.

العلوم الرياضية:

لقد استجاب الإنتاج في مجال الرياضيات لمطلبين. الأول كان يتمثل في وسطه العلمي، الاجتماعي، والاقتصادي، الذي لعب لصالحه دور أداة تسمح بحل مشاكل ملموسة. وقد عاد علماء الرياضيات بهذا الصدد إلى إجراءات قديمة (ما بين النهرين، الهند واليونان)، مع

تطويرها في بعض الأحيان، كما أوجدوا إجراءات أخرى ملائمة لمتطلبات جديدة. وهكذا تكونت شيئا فشيئا مجموعة من الأدوات، مثل تلك التي تتعلق بعلم المثلثات، والإنشاءات، والحساب، والمقاربات، و كذا حل المعادلات. أما المطلب الثاني فهو مطلب طائفة العلماء. وهو لا يسعى وراء أي مصلحة، عار من أي غرض نفعي، ولا يرمي سوى إلى الإجابة عن أسئلة مستعصية الحل. وقد تكون هذه الأخيرة قديمة، مثلما يمكن أن تكون مستوحاة من البحوث الجديدة التي شرع فيها، انطلاقا من القرن التاسع. وينبغي التوضيح أن هذين الاهتمامين كانا دائما حاضرين في الممارسة العربية للرياضيات، وقد سمحا بتطور المسعيين العلميين المتمايزين كل التمايز، وأحيانا بالتركيب بينهما. وقد سمي الأول بحساب الخوارزمي algorithmique. وهو يرمي إلى حل المسائل بالحرص على التجريب أو التحقق من صواب النتائج، يعني التأكد من صحة الإجراءات، بطريقة غير مباشرة. وينبغي البحث عن أصوله أساسا، في التطبيقات الهندية، والرافدين، والصينية. وأما الثاني فيسمى فرضي استنباطي، hypothético-déductive وذلك سيرا على التقليد الفلسفي اليوناني الذي كان منبعه. وهو يتمثل في تقديم فرضيات المسألة أو الخاصية الواجب التثبت منها، ثم "استنباط" النتيجة المرجوة، انطلاقا من هذه الفرضيات، وذلك باعتماد إجراء صارم متمثل في البرهان. ومن المفيد الإشارة إلى أن هذين المسعيين قد علما واستخدما في كل المراكز العلمية في العالم الإسلامي؛ مما يعني أنه، من قرطبة إلى سمرقند، مرورا بمراكش، والقيروان والقاهرة وبغداد، مورست الرياضيات بنفس الطريقة، وفقا لهذا المسعى أو ذاك، وطبقا للمسائل المطروحة. وهذا ما يفسر لماذا رأت الإسهامات الأصيلة، في الهندسة، والحساب، والتحليل التوافقي، النور في مختلف المراكز الثقافية للخلافة.[xxxvii]

وقد أصبح علم الفلك وفي وقت قصير، وذلك بالنظر إلى علاقته القريبة والمستمرة بالرياضيات، الميدان الأثير، خصوصا بسبب ما حظي به منذ البداية وخلال قرون، من دعم السلطة السياسية، والنخب. فقد كان علم الفلك هو العلم الذي بوسعه تلبية طلبات الدولة المركزية، ثم مختلف الدول المحلية، فيما يخص حساب المواقيت. وهو أيضا الذي يسمح بأحسن معرفة لأراضي الخلافة، فيما يخص تحديد خطوط الطول، وخطوط العرض، ثم

بصناعة الخرائط. ثم إنه هو أيضا الذي يمنح التزكية لعلم التنجيم في تنبؤاته المتعلقة بمصائر الأفراد، والجماعات، والحكام. غير أن علم الفلك كان له كذلك اهتماماته النظرية البحتة التي شغف بها الباحثون، والتي غذت الاجتهادات، والمجادلات. وفي هذا المجال، كانت توجد بالطبع مختلف المساهمات لتطوير نماذج أنظمة الكواكب الموروثة عن اليونان، ولكن أيضا نقدها بشدة، ومحاولة تجاوزها.[xxxvii] كانت هناك أيضا مساهمات عديدة لإنجاز أدوات رياضية ضرورية لصنع الجداول الفلكية. وقد اعتبر بعضها من الأهمية، بحيث إنها أثارت مناقشات بين العلماء، كما يذكرنا بذلك البيروني عندما يتحدث عن صراع الأولويات الناجمة عن استخدام أداة رياضية جديدة، والمعروفة *بالنظرية التي تغني*[xxxvii] التي كانت تسمح بتوفير الكثير من الوقت في حساب الثوابت الفلكية، فكتب يقول:" *هكذا كان الحال إلى غاية عصرنا الحالي، عصرنا البالغ العجب، البالغ الخصوبة، لكن ليس العاري من التناقضات. وأعني هنا أنه إذا كان معاصرونا يشهدون تعددا في ميادين المعرفة، وإذا كانوا ينزعون بالفطرة إلى البحث في كل علم عن الكمال، و إذا كان قد أمكنهم النجاح حتى، بفضل أهلية متزايدة، حيث أخفق أشهر الأولين، فإننا نجد لديهم تصرفات تتناقض مع ما سبق أن ذكرناه. هناك تزاحم حاد بين المتنافسين. إنهم يغارون من بعضهم البعض. مشاجرات وخصومات تغلب عليهم، إلى حد أن كل واحد يحسد الآخر، ويمجد نفسه بما ليس له*[xxxvii].

العلوم الفيزيائية:

لقد نهل الطب العلمي في بلاد الإسلام أساسا من إرث جالينوس، وإبقراط، حتى ولو كانت بعض إسهامات فارس، والهند، لا يستهان بها. وبفضل التعليم الذي حظي به، وكذا إنتاجه ومكانة متعاطيه، ما لبث الطب العلمي أن تميز عن الطب التقليدي، الذي استمر العمل به عند الطبقات الأقل حظوة في المجتمع. ومن دون انتظار مرحلة الترجمة، ظهر جيل جديد من الأطباء، يستعملون العربية، إلى جانب أطباء من فارس، وسريانيين، كانوا يحتلون موقع الصدارة. أما على مستوى المنشورات، فسوف تفرض العربية تدريجيا نفسها، وستنشأ مصطلحات جديدة، تغترف من اشتقاقات هذه اللغة، وأحيانا تستعير كلمات يونانية، أو فارسية، مع الاكتفاء بالتعريب الصوتي لها. وقد عنت هذه المرحلة الرائدة أساسا مركز

الخلافة، غير أن المواطن العلمية الأخرى ما لبثت أن استفادت منها، بفضل توحيد مستوى التعليم. وهكذا تسنى في المغرب الشرقي، ثم في الأندلس، ابتداء من القرن العاشر، تشكيل تقاليد راسخة، نهلت أولا من ينابيع الترجمة، ومن المؤلفات الأولى المنجزة في المشرق، قبل أن تنتج أعمالها الخاصة. نفس الظاهرة نشاهدها في آسيا الوسطى، كما تظهر ذلك بحوث المجوسي (ت.1010)، وابن سينا (ت. 1037).

ولأنه ليس من الممكن الحديث بالتفصيل عن مساهمات الطب العربي التي لا يمكن تجاهلها، نكتفي بالتركيز على بعض خصوصياتها[xxxvii]. وينبغي أن نلاحظ، بادئ ذي بدء، أنه لم يتم الاعتراف بهذا الميدان كعلم منذ البداية، على الرغم من حضوره القوي، ومكانته في المجتمع. فهو غائب في التصنيفات الأولى، مثل تصنيف الكندي، والفارابي. ينبغي انتظار القرن العاشر حتى يكتسب لدى كتاب التراجم، مثل ابن النديم، مكانة مادة فرعية تابعة لعلم الفيزياء. وتمثل هذه الظاهرة نموذجا للتفاوت الذي لاحظناه في كل الأوقات بين التطبيقات العلمية الحقيقية، والاعتراف بها من جانب المتحدثين عنها. نفس الملاحظة تنطبق من ناحية أخرى على فرع من هذا الميدان، الذي لم يذكر في التصنيفات المتعلقة بالعلوم المعروفة، ألا وهو الطب العلاجي. وقد ظهر هذا الأخير مبكرا نسبيا، أولا في بغداد في القرن التاسع وفي بعض الحواضر. وقد قدر عدد المستشفيات التي اشتغلت منذ هذا التاريخ بالثلاثين، ولكن لوحظ أيضا أن معظمها كانت واقعة في مركز الخلافة (الهلال الخصيب والقاهرة). وقد ذاع المفهوم خارج هاتين المنطقتين، كما يمكن إثبات ذلك من خلال مؤسسات شيراز بفارس، ومراكش بالمنطقة المغاربية، وغرناطة في الأندلس، لكن ولأسباب لا تزال مجهولة، لم تقم هناك نفس السياسة العلاجية. والغرب الإسلامي مثال على ذلك. نلاحظ هنا نفس ما سبق أن أشرنا إليه بشأن المدارس. وهذا ما يبين مرة أخرى؛ أنه من المجازفة والخطأ تعميم أوضاع أو أحداث محددة في المكان، والزمان، على كل الخلافة.

ومن بين الميادين التقليدية الأخرى التابعة للفيزياء، نجد علم الزراعة. وقد استعارت عناصرها القاعدية بالطبع من التطبيقات المحلية العريقة، سواء من خلال الملاحظة المباشرة، أم بالرجوع مرة أخرى إلى مؤلفات الأولين، التي كان أهمها كتاب *الزراعة النباتية*

الذي ترجمه من السريانية إلى العربية ابن وحشية (القرن الثامن). في هذا الميدان أيضا كان لاختفاء الحدود السياسية والتقدم الاقتصادي نتائج إيجابية. فالحواجز الزراعية التقليدية ما لبثت أن انهارت تحت تأثير تكاثر المدن، وارتفاع مستوى المعيشة (على الأقل بالنسبة لقسم من سكان الخلافة)، وكذا ظهور فئات اجتماعية جديدة شديدة الإقبال على المنتجات الجديدة أو النادرة. وقد أدى ذلك إلى أكبر تنقل عرفه التاريخ البشري: تنقل الفواكه والبقول والأشجار والزهور. أنواع غير معروفة في مركز الخلافة، وفي الأندلس، تم توطينها وإخضاعها للملاحظة والتجريب والدراسة. وقد برزت وتطورت تقاليد البحث والدراسة في المرحلة الأولى بالشرق. غير أن الأندلس ما لبث أن أخذ المشعل، متخصصا أكثر من أي منطقة أخرى من مناطق الخلافة، في مختلف ميادين علم الزراعة[xxxvii].

وقد مثلت الميكانيكا الهيدرومائية البعد التكنولوجي في علم الزراعة. وكان الكتاب المؤسس في هذا الميدان بالنسبة للتقاليد العربية هو *كتاب الحيل* للأخوة الثلاثة أبناء موسى (القرن التاسع). وتحتل فيه تكنولوجية المياه مكانة كبيرة، مع وصف مختلف الإجراءات المعقدة بدرجة أو بأخرى، ولكن جميعها قابلة للاستعمال. وقد استمر هذا التقليد في تصور الآلات النفعية وإنجازها خلال القرون التالية، مثلما ظهرت إسهامات جديدة، مثرية بذلك هذا الفصل من الميكانيكا العربية. ومن الجدير بالملاحظة، أن أهمية الهندسة العربية لا تعود فقط إلى طابعها النفعي، وإلى جوانب المهارة في آلياتها. إنها تعود أيضا إلى جوانب التقدم النظري، الكامنة خلف هذا التجديد التكنولوجي أو ذاك. يظهر ذلك بوضوح؛ عندما نحاول إعادة إنشاء بعض الآلات الهيدرومائية. ولكن يظهر ذلك أيضا في ميدانين آخرين ل "*علم الحيل*"، هما ميدانا الآليات وأدوات الحرب[xxxvii].

من بين مواد الفيزياء (التي تستحق جميعها التقديم)، أكبرها مكانة، وأكثرها غموضا بلا شك هي الكيمياء. انطلاقا من ميراث قديم جدا، تشكل ببطء من استعارات متتالية من تقاليد الأولين (مصر، ما بين النهرين، اليونان)، عرف هذا الفصل، منذ القرن الثامن، دفعا حاسما، بفضل نشاطات جابر بن حيان (ت. حوالي 815) وتلاميذه. ونجد أن هذه النشاطات، وكذلك امتداداتها خلال القرون التالية، بفضل مساهمات الكندي (ت.873)، والرازي (ت.925)، وابن

أميل (ت. 950)، والطغرائي(ت. 1120)، والجلداكي (ت.1342)، (وهذا من باب الاكتفاء بأكثرهم أهمية)، قد تمت على مستويين. الأول، تجريبي وتطبيقي، وهو مستوى التعامل مع المنتجات المنجمية، والنباتية، وحتى الحيوانية، من خلال عمليات متعددة، وتركيبات ترمي إلى تحليلها وإلى تحويلها وإلى الحصول على منتجات جديدة. ومن بين القطاعات التي استفادت من هذه التطبيقات، نجد مواد التجميل، الأصباغ، الورق، المداد، الفخار، الزجاج، وآلات الحرب، والمعادن. المستوى الثاني، المعد بتعاون وثيق مع المستوى الأول، هو تركيب من الأفكار الفلسفية والباطنية والصوفية حتى، وهو يرمي إلى تأويل التطبيقات الكيميائية العملية، وإلى مواصلتها من خلال استعمالات ترمي إلى تحقيق ما كانت بعض النظريات تؤكده: إمكانية تحويل بعض المعادن الخسيسة إلى ذهب، وإلى دواء يشفي جميع الأمراض. هذا الوجه الثاني من الكيمياء العربية هو الذي شاع في أوروبا، من خلال ترجمات القرن الثاني عشر[xxxvii].

العلوم و الفنون:

لا يمكن أن نختم هذا العرض السريع للتطبيقات العلمية العربية، دون العودة من خلال مثال معبر إلى المسالة المهمة المتعلقة بالعلاقات التي تكون قد وجدت بين بعض العلوم وبيئتها. لقد سبق أن أشرنا، بالنسبة لكل ميدان من الميادين التي ذكرناها في هذا المدخل، إلى الجوانب النفعية، وإلى الجوانب النظرية في أنشطته، وليس من الضروري الرجوع إليها. لكن يوجد ميدان لا يزال يثير الحيرة، لأنه لم يكشف بعد عن كل مكنوناته، إنه مجال الفن، أو على وجه التدقيق، مجال العلاقات المعقدة بين العلوم والفنون. كيف أمكن المهندسون المعماريون في بلاد الإسلام العمل من أجل بلورة تصميمات منجزاتهم، إن على الورق وإن في خيالهم؟ كيف أمكنهم التحكم في قوانين الميكانيكا ومقاومة المعادن؟ ما هو الحد الأدنى للمعرفة النظرية الواجب توفرها عند فنان، حتى يتسنى له تجسيد إلهامه في شكل تجميل وفي مناظر أصيلة بالنسبة لمزخرف، أو في شكل تأليف جديد بالنسبة لموسيقار؟ ما هو القدر من الإلهام والحدس والخيال الخلاق المطلوب وجوده لدى الفنان، للوصول إلى نتائج أو إلى خصائص لم يكن بوسع الإجراءات العلمية إتاحة الوصول إليها، باعتماد أدواتها البحثية

وحدها؟ كل هذه الأسئلة مشروعة بالنسبة لمن أتيحت له فرصة الوقوف معجبا أمام الروائع المعمارية، وأمام مختلف أساليب فن الخط، والفسيفساء، والمقرنصات، أو تذوق سحر موسيقى ذات التجليات المتعددة.

كيف كان الأمر بشأن الموسيقى بالذات؟ نحن نعرف أن الموسيقى، في التقليد العربي الإسلامي، قد نمت كفن وكعلم في آن واحد. وفيما يخص الجانب العلمي، فقد نهلت من معين الميراث اليوناني (حيث كانت تعتبر فرعا من الرياضيات)، قبل أن تعرف تطورا معتبرا بفضل دراسات نظرية ذات قيمة كبيرة[xxxvii]. بيد أن صفحاتها المشرقة حققتها بوصفها فنا، من خلال مواكبتها للأحداث الأكثر بهجة منها، مثل أكثرها حزنا، مساهمة بذلك في صياغة نمط عيش نخبة المجتمع، وإنتاج أعمال لا تزال تهز النفس وتؤثر فيها. ومن نفس الزاوية الفنية دائما، تتبدى لنا الأدوات الموسيقية الكثيرة التي كانت قد صنعت، أو طورت في إطار هذه الحضارة. ولئن كان بوسع المختصين في الصوتيات أن يجدوا، قبليا، تفسيرات نظرية للإنجازات التقنية لهذه أو تلك من الآلات، إلا أنه ليس بالإمكان دائما، في الوضع الحالي للمعارف، التأكيد بأن هذه الإنجازات قامت على دراسات نظرية.

الحالة مختلفة بعض الشيء عندما نتطرق إلى فنون التجميل التي أزهرت في بلاد الإسلام. فالتطبيقات الهندسية المستعملة في هذا المجال، وكذلك ما تعلق منها بالقياس، وحساب التناسب، تغترف بلا جدال من المعارف الرياضية الملقنة[xxxvii]. يمكن أن نفترض أيضا أن مستوى هذه التطبيقات كان يرتفع، كلما ازداد تطور الأدوات النظرية. إلا أننا ما زلنا لا نعرف كيف يتم التبادل، في الحياة اليومية، بين حاملي المعرفة والمبدعين في مجال الفن. وينبغي القول بأن الشهادات نادرة بهذا الشأن، مما لا يتيح كتابة تاريخ هذه المبادلات المباشرة أو غير المباشرة، التي بقي لدينا مع ذلك أدلة ساطعة عنها، من خلال العديد من الروائع، مثل مقرنصات المدارس، وجوامع آسيا الوسطى، وزخارف قصر الحمراء بغرناطة، أو نماذج فن الخط على الكتب والواجهات.

من بين التطبيقات الفنية التي حفظت لنا أدلة قاطعة على علاقتها بالمعرفة الهندسية، نجد تصور وإنجاز المقرنصات، والقباب، والفسيفساء. وتبين لنا النصوص التي وصلتنا؛ بأن

الحرفيين لم يكونوا يركنون إلى حدسهم فقط، أو إلى مهارة جامدة موروثة عن أصحاب الصنائع، ليعاد إنتاجها كما هي. في فصل من كتابه *مفاتيح الحساب* يعرض عالم الرياضيات الكاشي (ت. 1429) بقوة التفصيل، الإجراءات الدقيقة الواجب إتباعها، لتصور الأشكال المسطحة القاعدية التي ستعطي، في ثلاثة أبعاد، النماذج المختلفة للأقواس، والقباب، والمقرنصات[xxxvii]. وبما أنه لم يقم بأي نقد لعالم الحرفيين؛ وإلى طرق عملهم في هذا المجال، يمكن أن نفترض بأنه لم يفعل غير تعميم الإجراءات التي كان يستخدمها المهندسون المعماريون، والمزخرفون. ليس الأمر كذلك بالنسبة لعالم آخر في الرياضيات، وهو أبو الوفاء (ت. 997)، الذي ميز بين منهج كل من الحرفيين، والعلماء. ففي كتابه حول "*ما يحتاج إليه الصانع من علم الهندسة*" يتحدث عن طرق أرباب الحرف في تقطيع وإعادة تركيب أبلطة الخزف الفني، ويبين أنها لا تتماشى دائما مع معايير الضبط والدقة المعتمدة لدى رجال العلم. ثم يقدم حلولا للمشاكل، وفق إجراءات علماء الهندسة، ويبين أنها أكثر تطابقا مع الصرامة العلمية. ولكن إذ يفعل ذلك، يكشف لنا أبو الوفاء بطريقة غير مباشرة بأن خطابه مفهوم من طرف المتحاورين معه. الشيء الذي يعني أنهم كانوا يتمتعون بمستوى معرفي في الرياضيات محترم تماما. وهذا ما يستنتج أيضا من الحجج التي يرد بها عليه الحرفيون: فبالنسبة لهم لا تمثل الصرامة الرياضية العامل الحاسم في اختياراتهم الملموسة، التي تعترضهم، فالمهم بالنسبة لهم؛ هو اعتماد المسعى الأكثر قدرة على الوصول إلى نتيجة مرضية للرائي[xxxvii]. ينبغي في الأخير؛ الملاحظة أيضا بأن المبدعين يجددون ويبدعون بابتعادهم عن تصورات علماء الهندسة، وبأن الحلول التي يتصورونها ويجسدونها في أعمالهم تظهر كفتوحات جديدة للبحوث المستقبلية. ذلك هو شأن كل البناءات التي ليس بوسع هندسة المسطرة والحساب إتاحتها (لأسباب نظرية) والتي أغنت، بفضل مبادرات الحرفيين في الزخرفة، مجال الرياضيات، بحلول وبناءات عن طريق التخمين. كان ذلك أيضا شأن تقنيات التبليط، المتمثلة في تغطية السطح بأشكال منتظمة تتكرر بلا انقطاع إلى ما لا نهاية. هنا كذلك سبق الإبداع الفني بحوث علماء الرياضيات (الذين لم يصلوا، بالمناسبة، إلى نتائج إلا في حوالي القرن التاسع عشر).

وكما نرى، فقد أقام الفن في بلاد الإسلام مع العلوم (لاسيما الرياضيات) علاقات غنية ومعقدة، لم تنحسر إلى مجرد استعارة تقنيات غايتها تجسيد إلهام الفنان. لقد حدث أن كان هذا الأخير، في بعض الحالات، يستشرف بخياله وحدسه سبلا جديدة، لم يكتشفها رجال العلم بعد. واقتحامه للمجهول لم يتم تحت توجيه معارف عصره. بل هو الذي كان بفضل وحيه، يدل أحيانا على الطريق.

العلوم العربية في أوروبا:

في ختام هذا التقديم السريع، يتعين علينا الحديث أخيرا عن جانب مهم من العلوم العربية، وهو المتعلق بتنقلها ودورها في ميلاد تقاليد علمية جديدة. لم يتوقف الباحثون، منذ القرن التاسع عشر، عن تقديم شهادات عن أهمية الإضافة العربية، في إعادة تنشيط العلوم في أوروبا. وقد زادت أعمال السنوات العشر الأخيرة في إثراء معارفنا بشأن هذه الظاهرة. ومع ذلك لا يزال هنا وهناك من يقصر هذه الإضافة على مجرد "نقل" المعرفة اليونانية. وينبغي القول فورا؛ أن رجال العلم في بلاد الإسلام لم يفكروا قط، في حدود علمنا، في "نقل" معارفهم إلى أوروبا المسيحية. وقد كان هناك سببان على الأقل لهذا الموقف: الصراعات المستمرة التي سممت العلاقات بين العالمين، خلال قرنين (نهاية القرن الحادي عشر- نهاية القرن الثالث عشر)، واعتقاد رعايا هذه البلدان بأن مسيحيي الغرب لم يبلغوا درجة "التحضر" التي تسمح لهم بالانشغال بالعلم.

بل الأحرى، الحديث عن "حيازة" المعارف اليونانية، والعربية، من قبل جماعات لا تزال تمثل أقلية في مجتمعات أوروبا القرون الوسطى. لقد كانت حقا مبادرات صادرة عن بضع عشرات من الأشخاص، من مختلف الديانات والآفاق والبلدان، الذين كانوا أصل هذا الحدث المعتبر، المتمثل في ترجمة كل ما كان في متناول اليد، في مجال العلوم، والفلسفة، إلى اللغة اللاتينية، والعبرية، وأحيانا حتى إلى اللغات المحلية. ولم ينحصر الأمر فقط في المؤلفات اليونانية، إذ أن العديد من المؤلفات العربية المتعلقة بكل العلوم ترجمت أيضا. بل كان هناك حتى طور أول، بدأ في نهاية القرن الحادي عشر، واستمر لبعض الوقت، كان فيه علماء أوروبيون يعيدون في لغتهم إنتاج ما كانوا قد تعلموه واستوعبوه بالعربية. كان ذلك

شأن أبراهام بار هيا Abraham Bar hiya في إسبانيا، وفيبوناتشي Fibonacci (ت. بعد عام 1240) في صقلية[xxxvii].

ينبغي التوضيح بأن هذا الجيل من الرواد لم يستفد فقط من معارف ومهارات بلدان الإسلام. فبحيازتهم قسما من محتوى العلوم المنتجة بين القرنين التاسع والثاني عشر، فإن أعضاءه تعلموا أيضا طريقة أخرى في تعاطي العلم، لينتهوا إلى تبني نظرة أخرى حول الطبيعة، وحول قوانينها. فبعد مرحلة طويلة كان فيها اكتساب المعرفة يرمي بالدرجة الأولى إلى تمجيد الرب، جعلوا من ناحيتهم يتعاطون العلم بطريقة دنيوية، لغرض وحيد، هو أن يفهموا عقلانيا الظواهر، يعني كما طبقها وعلمها العلماء العرب، كان أديلار دو باث Adélérd de Bath وهو أحد مترجمي القرن الثاني عشر، يعني ذلك حين أجاب أحد المدافعين عن المدرسة القديمة، قائلا: "أنا تعلمت بالفعل من أساتذتي العرب، أن أتخذ من العقل دليلا لي، أما أنت فتكتفي بإتباع، شأنك شأن الأسير، قيود سلطة واهمة[xxxvii].

النخبة والعقيدة الاندماجية: " دراسة تقويمية في المراجع والأدبيات"

لـــ: نيكولاي دياكوف

ترجمة:عبدالعزيز بوباكير

يشكّل النضال الطويل الذي خاضه الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي صفحة مشرقة، في سجل حركة الشعوب من أجل التحرر الوطني. فقد انتزعت الثورة الجزائرية (1954-1962) أكبر "الممتلكات الفرنسية وراء البحر" من براثن العبودية الاستعمارية، وأكدت نهائيا أن الجزائر ليست فرنسا، وأن سكانها ليسوا ولن يكونوا فرنسيين، بصرف النظر عن روابطهم التاريخية بفرنسا، واحترامهم للتقاليد الثورية للشعب الفرنسي. كما أسهم الكفاح المناهض للاستعمار في الجزائر، بوصفه حلقة لا تتجزأ في سلسلة ثورات التحرر الوطني في مرحلة الأزمة العامة للرأسمالية، إسهاما رفيعا في ذخيرة تجربة الحركة الثورية العالمية .

غير أن خصوصيات التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الجزائر، باعتبارها مستعمرة من النوع الانتقالي، كان الرأي العام في المتروبول وخارج حدود الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية يعتبرها "امتدادا لفرنسا" و"مقاطعة لها وراء البحر"، أوجبت تميّز طرق تشكّل الوعي الوطني للشعب الجزائري.

ويمكن تقديم صيرورة هذا التطور في سماته العامة كحركة في ثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى: وتمتد من الوطنية الإقطاعية – العشائرية والوطنية الدينية البحتة، التي جرت تحت لوائها المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين، بعد احتلال الجزائر في 1830 وإلى غاية الانتفاضات الكبرى الأخيرة التي قامت بها بعض القبائل بين 1881-1883.

- المرحلة الثانية: هي مرحلة تكوّن الوطنية الليبرالية – الإصلاحية للبورجوازية الجزائرية الفتية التي كانت سائدة بين تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، إلى جانب الوطنية الإسلامية التقليدية أو ما يسمى "بالعمائم القديمة."

- وأخيرا المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الانتقال إلى الوطنية الثورية الديمقراطية للجماهير الواسعة، التي أدت في نهاية المطاف إلى انتصار ثورة التحرير الوطني.

وقد خصصنا هذه الدراسة للمرحلة الثانية، حين فسحت الانتفاضات العفوية ضد الفرنسيين، التي قامت بها بعض القبائل أو مناطق معينة من الوطن، المجال لأشكال سياسة جديدة في الكفاح، تسلّح بها ممثلو قسم نشيط سياسيا من البورجوازية الوطنية الفتية، والانتليجنتسيا البورجوازية التي دخلت التاريخ تحت اسم الفتيان الجزائريين.

والهدف من هذا العمل الذي نقترحه على القارئ؛ هو تقديم تحليل واف، في حدود الإمكان، للشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لظهور حركة الفتيان الجزائريين، وتتبع تطورها وارتباطها بالمجموعات الأخرى للوطنية الجزائرية، وكذلك بالقوى السياسية التي حددت نهج سياسة المتروبول الاستعمارية. وغرضنا الأساسي هو إبراز الطابع المناهض للاستعمار لانطلاقة الفتيان الجزائريين، وكفاحهم ضد "الأسياد الاستعماريين"، وضد السلطات المحلية في سبيل حقوق مواطنيهم. وأخيرا الكشف عن أهميتها للتطور المطرد لحركة التحرر في الجزائر.

فالموضوع المباشر لدارستنا، إذن، هو تطور حركة الفتيان الجزائريين منذ نشأتها في1891-1892 إلى غاية 1918 ، حين دخلت الحياة الاجتماعية والسياسية في الجزائر، غداة انتهاء الحرب العالمية الأولى "مرحلة جديدة تميزت بتغييرات مطردة وتعقد أشكال الكفاح المناهض للاستعمار، ونمو مستوى نضجه وتنظيمه"...

لقد اقتضى نمو الاستعمار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتغلغل الاحتكارات في اقتصاد الجزائر، إعادة بناء جذرية للبنية التقليدية للمجتمع المحلي، فظهرت طبقات جديدة ومجموعات اجتماعية، بما فيها البورجوازية الوطنية الفتية، التي كان من الطبيعي أن" تبرز كقائدة وزعيمة في بداية كل حركة وطنية."

وفي الوقت نفسه تشكلت بتشجيع من السلطات الانتليجنتسيا الجزائرية الجديدة، التي كان الاستعماريون "ينوون أن ينيطوا بها دور الوسيط في علاقتهم بجماهير الأهالي". لكن الشبان الجزائريين، بعد أن تحصلوا على تعليم حديث، وتشربوا بالمثل العليا للجمهورية- مثل المساواة والإخاء والحرية- أصبحوا يطرحون على أنفسهم أسئلة عن أسباب تجاهل هذه المبادئ في ديارهم .فالإجراءات التمييزية والقهرية التي اتخذتها المتروبول لم تنسحب فقط على القبائل التي كانت تنذر دائما بانتفاضات مسلحة، والفلاحين ومربي الماشية والبدو المتخلفين على المستوى الاجتماعي والثقافي، بل انسحبت أيضا على الجزائريين "المتطورين "المتخرجين من المدارس الكولونيالية والذين كانوا مستعدين لوضع المعارف الحديثة التي حصلوا عليها في خدمة شعبهم. وكان سخط هذه الفئات الوسطى في المجتمع الإسلامي هو المقدمة الاجتماعية والسياسية الرئيسية لانطلاقة الوطنيين الجزائريين في نهاية القرن الماضي.

ويرجع الفضل في إعداد المطالب الأولى ذات الطابع الوطني الشامل وفي رفعها إلى السلطات الفرنسية إلى الشبان الجزائريين. وقد رمزت حركة الفتيان الجزائريين لظهورها بعرائض وجهتها في 1891-1892 إلى لجنة مجلس الشيوخ الخاصة بالجزائر. وبلغت مداها الواسع في بداية القرن العشرين. آنذاك تحددت الأشكال الأساسية لنشاطهم الاجتماعي: كالجمعيات الثقافية التنويرية، والنوادي، والصحافة، والأعمال السياسية في شكل عرائض جديدة، والتجمعات والمظاهرات. وكان الحدث الرئيسي في هذه المرحلة هو رحلة وفد عن الفتيان الجزائريين في جويلية 1912 إلى باريس، حيث نشروا بيانهم، والتقوا رئيس الحكومة الفرنسية. وفي السنوات التالية وغداة الحرب العالمية أصبحت مطالب الفتيان الجزائريين أحد الأسباب الرئيسية للشروع في مناقشات في البرلمان الفرنسي، حول إمكانية إحداث تغييرات سياسية وإدارية في الجزائر. ورغم أنه لم تتحقق ولو نقطة واحدة من برنامجهم إلى غاية الإصلاحات الجزئية التي تمت في 1914-1919، إلا أن الفتيان الجزائريين أدوا رسالتهم التاريخية، واغنوا ترسانة الكفاح التحرري للشعب الجزائري بأشكال متقدمة جديدة، ولفتوا انتباه الرأي العام في المتروبول، إلى مشكلة الأهالي في الجزائر.

والفتيان الجزائريون، كما هو واضح من تسميتهم، يشتركون في بعض السمات مع الحركات الاجتماعية والسياسية الوطنية الأخرى في الشرق. فالمؤرخ الفرنسي شارل روبير أجيرون، وهو حجة متعمق في هذا المجال، يضعهم في صف واحد مع "حركات التجديد التي تحمل طابعا سياسيا وإيديولوجيا" مثل ألمانيا– الفتاة وايرلندا – الفتاة في أوربا والهند – الفتاة وتركيا – الفتاة إلخ... في آسيا .

لا تجوز دراسة حركة الفتيان الجزائريين، وخاصة في بداية القرن العشرين، بمعزل عن العملية العامة "لصحوة آسيا"، حيث "تفجر منبع جديد للعواصف العالمية العظمى". فقد ارتفعت في الجزائر، مثل بلدان الشرق الأوسط، أصوات تنادي بالنهضة الوطنية والثقافية مع الأخذ بالمكاسب الطليعية في الحضارة الغربية. ومثل المستعمرات الأخرى وشبه المستعمرات حيث "كانت البورجوازية الامبريالية تسعى إلى تغذية الحركة الإصلاحية بكل ما أوتيت من قوة"، فإن الوطنية الناشئة في الجزائر حملت في صلبها طابعا إصلاحيا. غير أن الظروف الاجتماعية والسياسية الملموسة للهيمنة الفرنسية الطويلة جعلت الإصلاح عند البورجوازية الجزائرية الفتية يتخذ، بصفة خاصة، شكلا مشوّها للاندماج أضحى هو المبدأ الأيديولوجي الرئيسي، وفي الوقت ذاته، الأداة التكتيكية الهامة للفتيان الجزائريين.

بيد أن الدراسة المعمقة لحركة الفتيان الجزائريين في سياق سياسة فرنسا الاستعمارية، مع أخذ درجة تطور الاتجاهات الجزائرية الأخرى المناهضة للاستعمار بعين الاعتبار، تبيّن التسويغ التاريخي للمطالب الاندماجية للفتيان الجزائريين الذين كانوا يسعون، كما لاحظ المستشرق الروسي روبرت لاندا إلى "أن يتكيفوا مع ميزان القوة الذي فرضه الاستعماريون، ويندمجوا بعد تبنيه، وبهذه الطريقة يتساوون مع الفرنسيين". إن تحليل مثل هذا التكتيك على درجة كبيرة من الأهمية لفهم المسيرة المطردة لحركة التحرر في الجزائر. كما لا يجوز تجاهل التأثير الذي مارسته النزعة الاندماجية للفتيان الجزائريين على رسم التأثيرات المتبادلة بين التيارات الأساسية في كفاح الشعب الجزائري المناهض للاستعمار.

أفرز الاهتمام الطبيعي بالتاريخ الاستعماري في الجزائر، والذي برز إبان سنوات الحرب الثورية التحريرية (1954-1962) ومازال مستمرا إلى الآن، مجموعة كبيرة من

الأدبيات الجديدة، كالمذكرات السياسية والمقالات والمؤلفات العلمية العميقة ، التي تقدم في غالب الأحيان تأويلات جديدة تماما، وغير متوقعة لأحداث وظواهر كانت تبدو مدروسة بما فيه الكفاية. ومع ذلك، فإن أحداثا كثيرة معينة، بل وحتى مراحل كاملة من التاريخ الاستعماري في الجزائر، تحتاج كما في السابق إلى معالجة مستفيضة. والمثال الواضح على ذلك مشكلة تطور الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار، بين تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، وبصفة خاصة حركة الجزائر – الفتاة نفسها. فنحن لا نجد في الأغلبية الساحقة من الدراسات المتوفرة سوى تذكير وجيز بالفتيان الجزائريين، وفي أفضل الأحوال وصف سطحي لهم. ولم تصدر حتى الوقت الحاضر ولو دراسة واحدة مخصصة مباشرة للفتيان الجزائريين.

وتكتسي من الناحية النظرية والمنهجية مقالة كارل ماركس "النتائج المستقبلية للسيطرة البريطانية على الهند" أهمية خاصة بالنسبة لهذا الموضوع. ففي هذه المقالة يشير المؤلف إلى عملية نشوء الانتليجنتسيا الوطنية الفتية "تحت رقابة" السلطات الاستعمارية.

كما أن ملاحظات ماركس للواقع الجزائري، والتي عبر عنها في رسائله من الجزائر إلى فريدريك أنجلز، وبول لافارج، تنطوي على قيمة كبيرة. وأولى أنجلز كذلك اهتماما كبيرا لتطور التوسع الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وبلدان المغرب الأخرى. وقد تطرق إلى ذلك بالدرجة الأولى في مقالته "الجزائر" التي كتبها "للموسوعة الأمريكية الجديدة" سنة 1857. كما أشار أنجلز في رسائله إلى برنشتاين وكاوتسكي وكذلك في إضافاته إلى المجلد الثالث من "رأس المال"، التي كتبها سنة 1895 قبيل موته، إلى الظواهر الجديدة في السياسة الاستعمارية للدول العظمى ومنها فرنسا، إلى الاستعمار الامبريالي الذي "يخدم مصالح البورصة". ويفكر أنجلز في رسالته المشهورة لكاوتسكي المؤرخة بـــ 12 سبتمبر 1882 في سبل التحرر الوطني في مختلف البلدان الخاضعة للاستعمار، ملاحظا بهذا الصدد إمكانية قيام ثورات تحررية في الهند، والجزائر، ومصر، وغيرها من البلدان...

وتكتسي أقوال لينين عن العدوان الايطالي على ليبيا 1911-1912 أهمية كبيرة لفهم الوضع العسكري والسياسي في بلدان المغرب. وكذلك الأمر بالنسبة لملاحظاته في "كراسات

عن الامبريالية" بخصوص التوسع الاستعماري الفرنسي في المغرب، وطابع الأعمال الممكن قيامها في المغرب، والجزائر، ضد فرنسا.

وقد استخدمنا في معالجتنا لهذا الموضوع وثائق سياسية ومقالات ومذكرات المشاركين في حركة التحرر الوطني، وكذلك مذكرات بعض الشخصيات السياسية والاجتماعية المنتمية إلى "المعسكر الاستعماري"، والتي صدرت بفرنسا في فترات مختلفة.

وتمثل المعلومات التي خلفها الجزائريون أنفسهم المجموعة الرئيسية لمصادر الموضوع. ونذكر منها الكتاب الذي صدر سنة 1894 في قسنطينة، بقلم أحد أبرز شخصيات الفتيان الجزائريين الدكتور مرسلي بعنوان: "مساهمة في مسألة الأهالي في الجزائر". والدكتور مرسلي هو ابن ملازم في وحدات السبايس الفرنسية، تخرج من ثانوية ثم معهد في مدينة الجزائر. وكان ممثلا نموذجيا للانتليجنتسيا الجزائرية الجديدة، التي نشأت في ظروف النظام الاستعماري. ويضم الكتاب المذكور المقالات المنشورة في أسبوعية " laliberté coloniale ". وكان الهدف من وراء نشرها، حسب رأي المؤلف نفسه، هو "إنارة العقول المحرضة ضد الأهالي، وإظهار حالة هؤلاء المتدهورة، وبيان الوسائل الممكنة لإصلاح ذلك". ويشير المؤلف إلى أمثلة عديدة عن التعسف في استعمال السلطة "تحت غطاء الراية ذات الألوان الثلاثة". ويخاطب فرنسا مطالبا إعطاء "ضمانات جدية" لقومه وتحسين وضعهم المعنوي والمادي المزري، وتسهيل دخولهم في الأسرة الفرنسية العظيمة". كما عرضت في هذا الكتاب مطالب سياسية واجتماعية واقتصادية، تخص توسيع تمثيل المسلمين، وإلغاء محاكم الصلح، والعمل بالمساواة في جباية الضرائب..

ولإسناد هذه المطالب؛ يورد الدكتور مرسلي مقتطفات من كتيب وضعه محام من عنابة يدعى خوجة، وهو أحد ممثلي الصفوة المتفرنسة، وجهه إلى لجنة مجلس الشيوخ في 1891، وكذلك نص عريضة وجهتها في نفس السنة مجموعة من مسلمي قسنطينة إلى البرلمان الفرنسي. وقد اعتبر صدور كتاب الدكتور مرسلي في ذلك الوقت حدثا بارزا في توسيع كفاح المسلمين الجزائريين في سبيل حقوقهم، ويدل أيضا على نشوء شكل هام من النشاط

الاجتماعي والسياسي للانتليجنتسيا الليبرالية المحلية، انتشر بشكل خاص في مطلع القرن العشرين.

وترك كتاب "المسلمون الفرنسيون في شمال أفريقيا" الذي وضعه السيد حامت، الترجمان الرئيسي للحاكم الفرنسي العام في الجزائر، صدى واسعا. فقد كتب هذا المؤلف، وهو يتحدث عن التغييرات التي أحدثها الاستعمار في الجزائر عن "التطور الاجتماعي والفكري والأخلاقي" للمجتمع الإسلامي، وعن "التوحيد" التدريجي لكل عناصر العرقية اختلاطها مستقبلا بالسكان الأوروبيين. ويضيف حامت: "إن الشعبيين يكملان بعضهما البعض، إلى درجة أن تطور أحدهما بدون الآخر مستحيل تماما".

ويورد المؤلف، وهو اندماجي راسخ العقيدة، حقائق ملموسة ومعطيات إحصائية عن اندماج الصناعة والتجارة والثقافة" الأهلية" في القطاعات الاستعمارية. وتكتسي أهمية كبيرة المعلومات التي ذكرها المؤلف من سير الكثير من الفتيان الجزائريين، مثل أحمد بن بريهمات والعربي فخار، والدكتور مرسلي، والدكتور ابن التهامي، وآخرين . . . وقد لقي كتاب حامت رواجا واسعا في أوساط الاندماجيين الجزائريين، وفي الوسط الليبرالي الفرنسي "المحب للعرب"

ومن بين الوثائق الرئيسية في تاريخ حركة الجزائر – الفتاة نجد، بلا شك، عريضة "عن الإجراءات التي يطالب بها المسلمون الفرنسيون في الجزائر لقاء الخدمة العسكرية" التي وجهها يوم 26 جوان 1912 وفد عن المسلمين الجزائريين يرأسه الدكتور بن التهامي إلى الوزير الأول الفرنسي بوانكاري، والتي اشتهرت في علم التاريخ "ببيان الفتى الجزائري". وتضم هذه الوثيقة عمليا المطالب الأساسية للفتيان الجزائريين. ونجد عرضا مفصلا لهذا البيان، مع بعض التعليقات عليه في النصوص التي أصدرها المؤلفان الفرنسيان كولو، واندري، سنة 1978 بعنوان "الحركة الوطنية الجزائرية" نصوص (1912- 1954).

وانعكس البرنامج السياسي للفتيان الجزائريين في المرحلة الختامية من نشاطهم في الكتاب الذي أصدره سنة 1914 الشريف بن حبيلس تحت عنوان: "الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي". وكان الشريف بن حبيلس شخصية اجتماعية ودينية بارزة، شغلت

منصب قاض في قسنطينة. ويتوجه في كتابه هذا إلى السلطات الفرنسية بمطالب من أجل وضع حد لدونية المسلمين الجزائريين .وكتب يقول "أنه من أجل تحطيم عدم المساواة ينبغي لفرنسا أن تحقق بحزم التقارب بين عنصري سكان الجزائر، عن طريق ضمان الأمن الاجتماعي بالدرجة الأولى، وتوسيع نظام التعليم... الخ. ويلاحظ بن حبيلس أن إحدى وسائل بلوغ هذا الهدف هي محاربة الأمية والأفكار المسبقة. ويتحدث عن "النخبة الأهلية" وهي "كوكبة من الشباب تخرجت من الجامعات الفرنسية، واستطاعت أن تسمو فوق الجماهير، وتصبح في صفوف حملة الحضارة الحقيقيين وتتحمل على عاتقها مسؤولية خاصة". وكنموذج لهذا النشاط التنويري يقدم بن حبيلس "نادي صالح باي" للفتيان الجزائريين في قسنطينة. وتستحق الاهتمام الخاص تلك الخطب والمحاضرات التي ضمنه الكتاب بين دفتيه تحت عنوان "محاربة الجهل" والتي ألقاها في "نادي صالح باي" نائب رئيس النادي المفتي محمد المولود بن موهوب. ويعتبر كتاب الشريف بن حبيلس العلامة البارزة الأخيرة في النشاط الفكري والأدبي للفتيان في مرحلة صعود نشاطهم الاجتماعي والسياسي.

وقد استقينا وثائق هامة (نصوص عرائض، مقتطفات من مقالات، برامج أعمال نوادي الفتيان الجزائريين..الخ) من مختلف الأعمال المكرسة للقضية الجزائرية، والتي ظهرت في فترة الحملة من أجل إصلاح النظام الاستعماري في مطلع القرن العشرين. لكن لم تتح لنا، للأسف، إمكانية الاطلاع المباشر على مصدر هام في تاريخ الفتيان الجزائريين؛ وهو صحافتهم التي لعبت دورا ثقافيا وتنويريا هاما، وعكست مباشرة طابع المطالب السياسية للفتيان الجزائريين في كل مرحلة ملموسة من نشاطهم. واستطعنا أن نستمد الكثير من المعلومات عن محتوى وهيكل صحافة الفتيان الجزائريين وتوجهاتها الرئيسية وكذلك عن جوانب أخرى من نشاطهم من دراسات متخصصة مثل :

- ✓ "صحافة الثورة الجزائرية" (لتراسكونوفا) موسكو 1979.
- ✓ "تاريخ صحافة "الأهالي" منذ نشأتها إلى غاية 1930 لزهير احدادن.

ومن دوريات علمية كالمجلات التاريخية والاستشراقية، ونشرات الجمعيات العلمية مثل :

- ✓ نشرة ديوان الحكومة العامة للجزائر (الجزائر 1902-1914)
- ✓ نشرة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (لندن)
- ✓ المجلة الأفريقية (الجزائر 1900-1916)
- ✓ مجلة تاريخ وحضارة المغرب (الجزائر1968-1970)

وينبغي الإشارة أيضا إلى بعض المصادر الأساسية كمقالات ومذكرات الشخصيات الاجتماعية الجزائرية التي اشتهرت في مرحلة متأخرة، وعكست المصير اللاحق لأفكار الفتيان الجزائريين .

في سنة 1924 صدرت في الجزائر عن دار النشر"Trait d union" تحت إشراف الكاتب سبيلمان مجموعة الخطب التي ألقاها الأمير خالد في ديار الغربة أمام الرأي العام الفرنسي في جويلية 1924. وتضم هذه المجموعة، بصفة خاصة، الرسالة المفتوحة التي وجهها الأمير خالد إلى الوزير الأول الفرنسي الجديد إدوارد هيريو، والتي عرض فيها برنامجا واسعا للمطالب السياسية، بدءا من التمثيل التناسبي للمسلمين الجزائريين والأوروبيين في البرلمان الفرنسي، وانتهاءا بالمطالبة بالحرية التامة لهجرة العمال "الأهالي" إلى فرنسا. ويتضح في هذا الكتاب موقف الجناح الثوري – الديمقراطي للوطنيين المنحدرين من أوساط الفتيان الجزائريين.

أما مؤلفات فرحات عباس فتتميز بطابع مختلف. فكتابه "من المستعمرة نحو الإقليم" ينتمي إلى المرحلة الاندماجية من نشاط المؤلف، الذي يعتبر نفسه من أتباع الفتيان الجزائريين. ويخاطب فرنسا مصرحا "يمكنها الذود عن مصالحها فقط بواسطة "سياسة العتق الصادق" و"النهوض الاجتماعي بالجزائريين الأصليين". ويناشد فرحات عباس حكومة المتروبول قائلا" :علّموا الجزائري، شدّوه إليكم اقتصاديا وإداريا". والأطروحة الرئيسية لهذا الكتاب، الذي مارس تأثيرا كبيرا آنذاك على الشباب الجزائري، هي على حد تعبير شارل روبير أجيرون، "ضرورة الانتصار على الاستعمار من أجل تحقيق الوفاق المرجو بين الفرنسيين والمسلمين".

غير أن عشرات السنين من النضال حملت هذا "الفتى الجزائري" على إعادة النظر في آرائه في "الدور الحضاري" لفرنسا. فعند تقييمه لحصيلة فترة 130 سنة من "الفضائع والقوانين العنصرية فى تاريخ الجزائر الاستعماري" كتب عباس فرحات في مذكراته "حرب وثورة الجزائر –الليل الاستعماري": "إن الفرنسي المنتصر حكم على الجزائري "المهزوم" أن يصبح أداة لازدهار غيره.."

ويمكن، بكل تأكيد، أن نسمي كتاب الزناتي "المشكلة الجزائرية كما يراها أحد الأهالي" عقيدة الاندماجية الجزائرية. وكان الزناتي معلما قبائليا، أشرف على مدى عشر سنوات على جريدة(voix indigène) ، التي كانت لسان حال المثقفين ذوي النزعة الاندماجية. ويستخلص الزناتي في كتابه هذا "صيغة مستقبل" الجزائر، المتمثلة في رأيه في "التعاون المؤدي إلى الاندماج" .وهو يرى أن مهمة الصفوة "الأهلية" تكمن في أن تتطور في أطر وطنية، وتقترب أكثر فأكثر من معلميها الفرنسيين".

لقد اكتسبت النزعة الاندماجية للصفوة هذا الشكل "الراديكالي" بعد الحرب العالمية الأولى، غير أن هذه الإيديولوجية أصبحت في الظروف الاجتماعية، والسياسية الجديدة عضوا متخلفا، متبق في الجسم المتنامي بسرعة للحركة الجزائرية المعادية للاستعمار .

وتميز برنامج الوطنيين الجزائريين بقوة حيوية أكبر بكثير. ويسترعي الانتباه في هذا المجال عمل مالك بن نبي "خطب عن شروط النهضة الجزائرية". فالمؤلف يعتبر أن أهم هذه الشروط هو تطوير الثقافة الأصيلة الخاصة: "شعب بلا ثقافة هو شعب بلا تاريخ !". ويلقي مالك بن نبي الضوء في "مذكراته" على تاريخ نشأة التيارات المناهضة للاستعمار في الجزائر. ويضع في هذا المجال حدا فاصلا بين حركة "حزب المحظوظين"، الذي تنتسب إليه الشخصيات البارزة من الفتيان الجزائريين، وحركة الإصلاح الإسلامية، التي ينتمي أعضاؤها، وكذلك المؤلف، إلى "أسرة روحية واحدة".

ويحتل البحث الذي كتبته الشخصية السياسية الإسلامية المشهورة في فترة احتلال الجزائر، حمدان بن عثمان خوجة مكانة خاصة، ضمن المصادر الوطنية التي درسناها. وقد نشر هذا البحث المعروف "بالمرآة " باللغة الفرنسية سنة 1883. وكان الهدف الذي توخاه هو

لفت نظر الرأي العام الفرنسي إلى فظائع المحتلين على الأرض الجزائرية. كما يعرفنا، في الوقت نفسه، بمواقف المتعاونين الأوائل من بورجوازية المدن، الميالة إلى التعامل مع المستعمر. وتعتب "مرآة" حمدان خوجة من حيث مقصدها، وكذلك طبيعة عرضها، في تقديرنا، نموذجا أصليا للأدبيات الصحافية للفتيان الجزائريين مستقبلا.

لا ينبغي اعتبار حركة الفتيان الجزائريين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظاهرة فريدة في الحياة السياسية لبلدان المغرب. فرغم بعض الاختلافات المبدئية التي أوجبتها خصوصية الوضع الاستعماري في الجزائر، فإن حركة الفتيان الجزائريين لم تكن منذ بدايتها صدى متميزا للكفاح السياسي "للفتيان المسلمين" في بلدان الشرق الأخرى، ومصر، وتونس بالدرجة الأولى فحسب، بل أنها تنظيميا وإيديولوجيا تطورت في فترة محددة، على شاكلة الفتيان المصريين، والتونسيين. ويثير الاهتمام في هذا الصدد الكتاب الذي وضعه عن حركة الفتيان التونسيين الشاذلي خير الله، وهو إحدى الشخصيات البارزة في حركة التحرر الوطني التونسية، وأحد مؤسسي الحزب الدستوري. ويعتمد كتاب "حركة تونس – الفتاة" (1956) على الذكريات الشخصية لمؤلفه، الذي يصف الخطوات الأولى لجمعيتي "الخلدونية"، و"الصادقية"، اللتين كانتا نموذجا للتنظيمات الأولى للفتيان الجزائريين. كما يقدم الشاذلي خير الله معلومات مثيرة للاهتمام عن الجمعيات التجارية الوطنية، ذات الرأسمال التجاري الموحد، كشكل من أشكال النشاط الاجتماعي للفتيان التونسيين.

وتتضمن المقالات المنشورة آنذاك في الصحافة الجزائرية، والتونسية، معلومات وثائقية هامة تلقى الضوء على عملية ميلاد الحركات السياسية في أوساط المسلمين الجزائريين. ففي بداية القرن العشرين احتلت جريدة (la dépêche algérienne) التي كانت تصدر في مدينة الجزائر مكانة الصدارة بين وسائل الإعلام الجماهيري الاستعمارية. وكانت تنشر دوريا على صفحاتها أخبارا عن "مسألة الأهالي".

وهكذا نشرت هذه الجريدة سنة 1912 مقالات ضافية للكاتب الاستعماري المعروف رواني، الذي يعلن بعد انتقاده لتصريحات الفرنسيين "المحبين للعرب" في جريدة Le Temps الباريسية" أن مواقفهم تلحق ضررا كبيرا بالمشروع الكولونيالي الفرنسي في الجزائر، لأن

"النخبة المحلية الموالية للأتراك" يمكن حسب رأيه، أن تستخدمها لإذكاء روح التذمر في الجماهير الإسلامية. ويعتبر الكاتب أن هذه النخبة خطيرة جدا، كما يمكنها في الوقت ذاته أن تصبح "راع طيبا" للمسلمين الجزائريين، و"عونا ثمينا" لفرنسا، في قضية تطويرهم المعنوي والفكري.

وتحتوي الصحافة الكولونيالية الجزائرية التي درسناها (La dépêche algérienne L écho- Alger Chronique algérienne-) على معلومات عديدة، حول عمل الجمعيات الاستعمارية المحلية، والباريسية المنتخبة (بروتوكولات، نصوص خطب الخ...)، وحول الوضع السياسي في الجزائر، والمناطق المغاربية الأخرى. وقد تناولت هذه الصحافة بالتفصيل، وبصفة خاصة رحلة وفد الفتيان الجزائريين إلى باريس في صائفة سنة 1912 . كما نشرت في الكثير من الأحيان على صفحاتها أخبارا عن النشاطات المختلفة لنوادي الفتيان الجزائريين.

ولعبت الصحافة الباريسية، وبالدرجة الأولى، النشرات البورجوازية الليبرالية الكبرى مثل Le Temps – Revue de Paris – Revue des Deux mondes الخ... دورا لا يستهان به، في توجيه الرأي العام الواسع في المتروبول، بشأن المسألة الجزائرية.

وشاركت جريدة Le Temps مشاركة نشيطة في الحملة من أجل الإصلاحات في الجزائر. وكانت الكثير من الشخصيات الاجتماعية المشهورة "المحبة للعرب" تكتب على صفحاتها. فالليبرالي Bourde نشر في ماي/ جوان 1912 سلسلة مقالات، تحت عنوان عام هو: "كيف ننظم شمال أفريقيا؟" تركت صدى سياسيا واسعا. واقترح فيها المؤلف مخططا للإصلاحات السياسية في الجزائر.

وفي مجلة " Revue de Paris" نشر الصحافي المعروف Millet مقالا مطولا عن الفتيان الجزائريين. وقد اشتغل ميلي فترة طويلة معلقا على القضايا الاستعمارية في مجلة Le temps، وكان من بين الأوائل ممن أطلعوا بالتفصيل الرأي العام الفرنسي على مطالب الفتيان الجزائريين، داعيا الحكومة، والإدارة الجزائرية أن تحسب لهم ألف حساب.

أما مجلة " Revue de paris " فقد نشرت في نوفمبر 1910 مقالا لمسيمي النائب، "المحب للعرب" الذي أصبح فيما بعد وزيرا للحرب. وتناول المقال الموارد العسكرية، لشمال أفريقيا الفرنسية، وأفاق إدخال الخدمة العسكرية الإلزامية بالنسبة للسكان المحليين.

وميسيمي، بالذات، هو الذي طرح سنة 1908 للمناقشة في البرلمان مشروع قانون للخدمة العسكرية، يخص المسلمين الجزائريين. وقد أثار هذا القانون احتجاج أغلبية السكان الأصليين في المستعمرة، وحدد إلى درجة كبيرة الشعارات التكتيكية للفتيان الجزائريين .

ونشرت معلومات مفيدة عن السياسة الجزائرية في سنوات مختلفة في Revue des deux mondes نذكر منها مقالة الكاتب البارز لوروا بوليو المعنونة: "فرنسا في شمال أفريقيا والكولون" .وفى نفس المجلة نشرت 1909 سلسلة مقالات تحت عنوان "النخبة الشرقية" بقلم لوي برتران، المبشر المعروف "بالدور الحضاري لفرنسا"، يحذر فيها الحكومة من خطر تسرب "أفكار إصلاحية خطيرة" من الشرق، إلى تونس، والجزائر.

ومن المصادر الهامة التي تقدم لنا تصورا عن تشكل الرأي الرسمي في المسألة الاستعمارية Revue Politique et parlementaire ، التي ترأس قسم الوقائع الكولونيالية فيها مدة طويلة ديبانسي، مسؤول القسم الآسيوي للاتحاد الكولونيالي الفرنسي، والذي ترأس سنة 1908 المؤتمر الكولونيالي للشمال الأفريقي. وتحدث ديبانسي في أحد أعداد هذه المجلة عن مشاركة بعض ممثلي "النخبة الأهلية" في الجزائر، وتونس، في هذا المؤتمر.

أما رأي الفئات "المتطورة" من السكان الأصليين في شمال أفريقيا في "التقارب الثقافي"، والاندماج مع المستعمرين، فقد عبر عنه على صفحات المجلة السياسة والبرلمانية السيد زاوش، وهو شخصية بارزة في حركة الفتيان التونسيين، وعضو ندوة تونس الاستشارية. وأشار السيد زاوش إلى الأساس الاقتصادي لتحركات مسلمي الجزائر، وتونس. هذه التحركات التي يدفعها إليهم" وعيهم بتخلفهم الاقتصادي...".

وقد استعملنا في دراسة موضوع الفتيان الجزائريين معلومات عن استعمار الجزائر، وعن الوضع الاجتماعي، والاقتصادي الإسلامي الجزائري، نشرت بين تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، في النشرات الدورية المشار إليها آنفا.

من ضمن المصادر القيمة يمكن ذكر المجلة الإفريقيا "Revue Africaine " التي كانت تصدرها الجمعية الجزائرية للتاريخ .وكانت تنشر وثائق سياسية هامة، وخطب الشخصيات الاجتماعية حول مختلف أوجه السياسة الجزائرية، إضافة إلى دراسات في علم الآثار، والتاريخ، والاثنوغرافيا، بصورة أساسية "قبل العهد الفرنسي."

تتضمن مقالات وخطبا، ومذكرات الشخصيات السياسية الفرنسية، وممثلي الإدارة الاستعمارية، والجماعة الأوروبية في الجزائر معلومات وثائقية قيمة. وتكتسي في هذا الصدد المعلومات التي تعكس موقف الاشتراكيين الفرنسيين من القضية الجزائرية أهمية خاصة، إذ يستحيل عدم الالتفات إلى وجهة نظر جون جوريس، التي عرضها في خطبه العديدة، ومقالاته التي تجلى فيها تطور آراء زعيم الاشتراكيين الفرنسيين، بشأن المسألة الاستعمارية (انظر: جون جوريس. نصوص مختارة ضد الحرب والسياسة الاستعمارية . باريس 1919)

كما توجد معطيات رسمية عن تطور الاستعمار، ومختلف جوانب نشاط الإدارة المحلية في "نشرة ديوان الحاكم العام للجزائر (1902-1914)، وفي عرض الوضع العام للجزائر (1918-1928). وهناك مجموعة معينة من المصادر؛ هي عبارة عن مذكرات لبعض الحكام العامين للجزائر، تتضمن معطيات واقعية عن دور الإدارة الفرنسية في حياة المستعمرة.

وتجدر الإشارة في هذا المجال على الخصوص، إلى العمل الذي نشر سنة 1918 لكومبون "الحكومة العامة للجزائر" (1891-1897) ، "وقد ساهم كومبون شخصيا إلى حد ما في نهوض النشاط الاجتماعي للنخبة الإسلامية، وكذلك كتاب خطب ش. ليطو، التي ألقاها في مجلس النواب خلال مناقشة "السياسة الأهلية" في شمال أفريقيا، ومذكرات ستيغ "السلم الفرنسي في شمال أفريقيا"، وفيوليت "هل تحيا الجزائر؟" "

وتقدم كتب الانطباعات التي نشرها أصحابها بعد قيامهم برحلات داخل البلاد في بداية القرن العشرين تصورا متعدد الجوانب، عن الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية للجزائر. ونذكر منها" :رسائل عن الجزائر" (1907 - 1908)" للجنرال دونوب، و"الجزائر اليوم" لغاي، و"في فرنسا الأفريقية" لروندي سان، و"الجزائر الحقيقية" لستوت، و"حول الجزائر" لتوماس ستانفورد.

كما نشر النائب اليميني الفرنسي أجام كتاب "مشاكل جزائرية" في شكل انطباعات رحلة بعد زيارته الجزائر سنة1913 ، وقدم فيه تقييما سلبيا حادا، ووصفا استعماريا لحركة الفتيان الجزائريين.

وكان المستعرب الروسي البارز لوتسكي أول من أثار في روسيا مشكلة ظهور الحركات الوطنية في الجزائر، وأول من استعمل في الأدبيات الروسية مصطلح المسلمون-الفرنسيون" للدلالة على ممثلي الانتيليجنسيا الجزائرية المتفرنسة، والبورجوازية التي كانت تؤيد الاندماج بالمستعمر. ونجد استعراضا مستفيضا للحياة الاجتماعية والسياسية في الجزائر، بعد الحرب العالمية الأولى في المقالة التي كتبها لوتسكي، بالاشتراك مع نرسيسوف، والتي أدرجت في كتاب "تاريخ أفريقيا الحديث".

ونشرت في روسيا سنة 1976 أول دراسة تحتوي على تحليل مستند إلى مراجع كثيرة، تخص التأثيرات المتبادلة بين المجموعتين الرئيسيتين لسكان الجزائر في العهد الاستعماري. وتحمل هذه الدراسة عنوان: "كفاح الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي" (1830-1918). ويرى مؤلفها روبرت لاندا، أن الموضوع الأساسي لعمله هو "التطور الموازي للاستعمار، والحركة المناهضة له حتى 1918". وخصص جزءا من الكتاب مباشرة لصحوة "الأهالي"، وتطور الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار بفرعيها: الوطنية الإسلامية للتقليديين، واندماجية الفتيان الجزائريين. ويبين لاندا السببية التاريخية لوجود هذين التيارين، معتبرا أن لكل تيار" جوانبه الإيجابية والسلبية."

كتاب "تنامي الحركة المناهضة للاستعمار في الجزائر 1918-1931" لنفس المؤلف، هو الاستمرار المنطقي للموضوع نفسه، حيث يقدم لاندا صورة للحياة الاجتماعية، والسياسية في الجزائر، بعد الحرب العالمية الأولى. ويكتسي أهمية خاصة بالنسبة لموضوعنا، في هذا الكتاب وصف نشاط المجموعات الأولى من خلفاء الفتيان الجزائريين في ظروف تاريخية جديدة. وهؤلاء كانوا من جهة الأمير خالد وأتباعه، الذين كانوا يطمحون "إلى توحيد كل الاتجاهات السليمة والثابتة المبادئ في الحركة الوطنية"، ومن جهة ثانية، أتباع الاندماج الذي

"ظل اتجاها عقيما وعديم الأفق في الوطنية الجزائرية، واتخذ الآن طابعا معاديا للوطنية لا غبار عليه."

كما قدم روبرت لاندا في مقالته التعميمية "أشكال الكفاح المناهض للاستعمار في الجزائر "المنشورة في مجلة "شعوب آسيا وإفريقيا"، وصفا موجزا للأشكال الرئيسية في الكفاح المناهض للاستعمار في الجزائر، بين تخوم القرنين التاسع عشر، والعشرين.

واستعملنا كذلك بحوثا لعلماء روس آخرين، خصصت للحركة الوطنية التحريرية في الجزائر. ومنها دراسة خميلوفا" دولة الأمير عبد القادر الجزائري، "وكتاب داتلين "شعوب تونس والجزائر والمغرب وكفاحها من أجل الاستقلال"، ودراسة باتيومكين "سياسة فرنسا الاقتصادية في بلدان المغرب"، وأعمال تراسكونوفا عن تاريخ الصحافة الوطنية الجزائرية، وبحث غولدوبينيم، الذي تعرض فيه لمسائل نشوء حركة الفتيان الجزائريين في القسم الخاص بالجزائر، من كتاب "التاريخ الحديث لبلدان آسيا وإفريقيا."

في سنة 1980 صدرت دراسة مرتبطة مباشرة بموضوع بحثنا تحمل عنوان "الانتليجنتسيا في بلدان المغرب، لصاحبها فلاديمير ماكسيمنكو، الذي قام بأول محاولة في علم التاريخ الروسي، لتقديم تحليل عام لنشوء الانتليجنتسيا الجديدة في بلدان المغرب، والاتجاهات الأساسية لتطورها الفكري والسياسي، في مختلف مراحل الحركة المناهضة للاستعمار، وثورة التحرير الوطني.

وينمو الاهتمام كل سنة بتاريخ حركة التحرر الوطني الجزائرية، في أوساط علماء أوروبا الشرقية. يمكن الإشارة بصفة خاصة إلى بحث المؤرخ الألماني ماينيكي كلينت المعنون Algérien marokko Tunesien unterjochung und befreiung الذي يحتوي على تحليل واف لحصيلة السيطرة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وكذلك المراحل الرئيسية للكفاح التحرري في هذا البلد. كما يمكن استخلاص معلومات نظرية مفيدة، من المقالة المطولة التي كتبها الباحث المجري شلغو بعنوان "عن دور العوامل الاقتصادية والسياسية للسياسة الاستعمارية الفرنسية في فترة ما بعد 1871"، والتي يشير المؤلف فيها إلى أن دور العوامل الاقتصادية وغير الاقتصادية في تاريخ التوسع الاستعماري الفرنسي يمكن تقييمها، فقط

بالنظر إلى "علاقاتها المتبادلة، والأخذ بعين الاعتبار للنتائج التاريخية، التي مازالت ماثلة إلى اليوم".

أما في التدوين التاريخي الجزائري فقد كان أبو القاسم سعد الله أفضل من ألقى الضوء على نشاط الفتيان الجزائريين في كتابه "الحركة الوطنية الجزائرية"، حيث درس بالتفصيل تطور كل التيارات المناهضة للاستعمار، من الأمير عبد القادر إلى العلماء المصلحين، وكذلك التأثيرات المتبادلة بينها. ويحلل المؤلف أسباب فشل انتفاضات القبائل المسلحة، وانتقال الجزائريين إلى أشكال النضال السياسي، معرفا حركة الفتيان الجزائريين، وايديولوجية الوطنية الاسلامية بصفة عامة. وقد حلل سعد الله الطابع الوطني لتحركات الفتيان الجزائريين، مشيرا إلى أن من بين "أهدافهم الأساسية؛ النضال ضد الإيديولوجية العنصرية، بوسائل سياسية شرعية". وبفضل هذا البحث احتل علم التاريخ الجزائري مكانته الشرعية، في التدوين التاريخي المناهض للاستعمار في الجزائر .

وخصص المؤرخان الجزائريان المعروفان محفوظ قداش، وعلي مراد، أعمالهما لوصف الوضعية السياسية في الجزائر، ما بين الحربين العالميتين. ففي أطروحته "الحياة السياسية في الجزائر في 1939 – 1919 "؛ بين قداش كيف أن الحياة السياسية في المدينة الرئيسية في المستعمرة تطورت بشكل غريب، على مستويين غير مرتبطين، تقريبا ببعضهما البعض. فمن جهة عاشت مدينة الجزائر سياسيا كمدينة فرنسية، ومن جهة ثانية؛ كانت تصطدم بمشكلتها الجزائرية، المنفصلة تماما أو إلى حد ما عن السياق السياسي الفرنسي". وتتضمن مقالات محفوظ قداش معلومات مفيدة، عن دور المجموعات الشيوعية الأولى في صياغة بعض الشعارات الوطنية للشعب الجزائري، وعن النشاط السياسي للأمير خالد.

وقدم علي مراد شرحا مفصلا لحركة الفتيان الجزائريين، في الفترة ما بين الحربين العالميتين، في كتابه الأساسي "النزعة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940". ويعتبر على مرّاد أن "الفتيان الجزائريين بالذات؛ قاموا في هذه السنوات بدور بارز في صياغة الرأي العام الإسلامي، وأدوا وظيفة المعبرين عن المطالب إزاء السلطات والرأي العام الفرنسي". وبغض النظر عما يثيره هذا التأكيد الجازم الذي يسوقه المؤلف بوضوح،

على حساب القوى الوطنية الأخرى، فإن كتابه يساعد على تشكيل صورة كاملة عن هذه الظاهرة الاجتماعية، السياسية المعقدة، ألا وهي حركة الفتيان الجزائريين.

ويعد كتاب مصطفى الأشرف "الجزائر الأمة والمجتمع" بحثا اجتماعيا، وسياسيا عميقا، عن تكوّن الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار. ويثير الانتباه هنا رأي المؤلف في مكانة البورجوازية الوطنية في الحركة التحررية، ويقود تحليل تحركات بورجوازية في المدن، في الجزائر، المؤلف إلى استنتاج عدم فعالية أية حركة ذات أصل بورجوازي، معزولة عن الشعب، وحاملة لطابع إصلاحي بحت.

ويوجب الاهتمام كتاب صغير الحجم، للمؤرخ الجزائري محمود بوعياد بعنوان "التاريخ على شريط"، يضم شهادات شهود عيان، ومشاركين مباشرين في بعض الأحداث الهامة في تاريخ الجزائر، في العهد الاستعماري، في النصف الأول من القرن العشرين. وقد سجل نصوص هذه الشهادات على شريط مغناطيسي عمال المكتبة الوطنية في الجزائر، التي كان محمود بوعياد مديرا لها. وتكتسي بالنسبة لموضوع بحثنا رواية جمال الدين سفنجة قيمة خاصة، وهو متحدر من عائلة بورجوازية عريقة، ويتحدث في هذا الشريط عن الحياة في مدينة الجزائر، في بداية القرن العشرين، وعن نشاط الوطنيين المسلمين الأوائل، بمن فيهم الفنان الجزائري الكبير عمر راسم.

وتكشف الشخصية السياسية البارزة للجزائر الاستعمارية نارون في بحثها "فرحات عباس أو طريق السيادة"، عن دور الاندماجية في نضال الشعب الجزائري، وقد وصف نارون الفترة "الاندماجية" من نشاط فرحات عباس بـــ "عهد الأوهام."

وفي السنوات الأخيرة ظهرت مجموعة هامة من الأبحاث، لمؤلفين جزائريين من الجيل الجديد. ففي سنة 1978 ناقش زهير احدادن في جامعة باريس أطروحة بعنوان: "تاريخ الصحافة الأهلية في الجزائر منذ نشأتها حتى 1930". وهذا العمل يقدم لأول مرة تحليلا عميقا عن نشاط ما يسمى في العهد الاستعماري بصحافة "الأهالي". ويشرح زهير احدادن ويصنف النشرات "الأهلية"، ويرصد تطورها، مبرزا فيها مراحل معينة متعلقة بظروف تاريخية

وسياسية ملموسة. وهذا البحث غني بمعلومات واقعية، وشهادات مستفيضة للمشاركين في حركة الفتيان الجزائريين، وكذلك معلومات عن صحافتهم ونواديهم.

ويرى المؤلف؛ أن المغزى السياسي الرئيسي لصحافة "الأهالي" يتمثل في كونها "استطاعت أن تضفي على كفاح الشعب الجزائري طابعا سياسيا"، وهذه الدراسة في رأينا حدث كبير في علم تدوين التاريخ الجزائري للحركة المناهضة للاستعمار، وفي تحريره من إرث التاريخ الاستعماري.

خصص الأستاذ بن أشنهو في كتابه "تكوّن التخلف في الجزائر 1830-1962" لظهور الرأسمالية في الجزائر وتطورها، وما ارتبط بها من إعادة بناء البنية الاجتماعية للمجتمع الإسلامي على امتداد الفترة الاستعمارية كلها. ويلاحظ المؤلف أن مجال نشاط البورجوازية الوطنية الجزائرية كان محدودا سياسيا، واقتصاديا، وخلقت هذه الوضعية تبرما في أوساط البورجوازية المحلية، وأصبحت سببا من أسباب انتشار الوطنية في الجزائر. وكتب بن أشنهو أن"البورجوازية وفقراء الفلاحين والنخبة المثقفة المضطهدة على المستوى الاجتماعي، شكلوا جميعهم القاعدة الاجتماعية لثورة التحرير الوطني (1954-1962). وقيمة هذا الكتاب التي لا مراء فيها، تكمن في احتوائه على تحليل اجتماعي، واقتصادي شامل، لعملية تراكم رأس المال، وتكوّن البورجوازية الوطنية الجزائرية، على امتداد فترة الهيمنة الاستعمارية الفرنسية .

وتفيد بحثنا المعلومات النظرية والوقائعية التي استخلصناها من أعمال باحثين جزائريين آخرين، وهي بالدرجة الأولى، "تاريخ الجزائر" للشخصية الاجتماعية والدينية المعروفة مبارك الميلي، و"الجزائر في مرآة التاريخ" لعبد الله شريط ومحمد الميلي، و"أضواء على الاستعمار الفرنسي في الجزائر" و"الجزائر عبر الأجيال" لمحمد الجزائري، و"التطور السياسي في الجزائر" لبلحاج، و "سلب الفلاحين" لجيلالي صاري، و"المقاومة الجزائرية" لعكاش، و"مدخل إلى تاريخ الجزائر" لجندر.

أما الأدبيات التي صدرت في البلدان العربية الأخرى، والمتعلقة بتاريخ الجزائر فتحمل، كقاعدة عامة، طابعا سطحيا، ماعدا أعمال العالم المصري الكبير صلاح العقاد

"المغرب العربي"، و"محاضرات عن تطور السياسة الفرنسية في الجزائر". فرغم العيوب المتميزة لعلم التاريخ البورجوازي، فهي تحتوي على معلومات متعلقة مباشرة بالفتيان الجزائريين، وسياسة فرنسا" الأهلية" في الجزائر، التي كانت تهدف، حسب رأي صلاح العقاد، إلى فرض الهيمنة الإدارية، والاجتماعية، والثقافية، للعرق الفرنسي.

وخصص يحي جلال، وهو أستاذ في جامعة القاهرة، كتابه "السياسة الفرنسية في الجزائر" لعلاقة عملية نشوء الحركات الوطنية في الجزائر، بالظواهر الجديدة في الحياة الاجتماعية والسياسية في المشرق، وأوروبا. وقد حددت هذه العلاقة في رأيه السمات المميزة للحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار وأشكالها.

وأبرز علال الفاسي، زعيم ومؤسس حزب "الاستقلال" المغربي، في كتابه "الحركة الاستقلالية في المغرب العربي" بصفة خاصة، دور الفتيان الجزائريين، في دعم استقلال المغرب، وتنديدهم بالعدوان الفرنسي على هذا البلد.

غير أن القسم الأساسي من الأدبيات العلمية لدراسة هذه المسألة تمثله أعمال المؤلفين الفرنسيين. وتحتل أبحاث ومقالات شارل روبير أجيرون، المختص في القضايا المغاربية، مكان الصدارة بينها .ويستحيل إلى حد الآن التفوق على أطروحته التي نشرها سنة 1968 "المسلمون الجزائريون وفرنسا (1871-1919)"، والتي تقع في 1300 صفحة، سواء من حيث سعة المراجع المستعملة، أم من حيث المعلومات الوقائعية التي تضمنتها. فبعد تناوله عمليا لكل جوانب حياة المستعمر، بين تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، يحلل المؤلف مقدمات صحوة المسلمين الجزائريين. وأفرد فصلا خاصا للرأي العام الإسلامي، وتطور حركة الفتيان الجزائريين قبيل الحرب العالمية الأولى. ويبين المؤلف كيف بدأ الجزائريون الذين سحقتهم وأهانتهم الهيمنة الاستعمارية، يرفعون شيئا فشيئا أصواتهم، معبرين عن "رغبتهم في المشاركة في كل مجالات حياة البلاد."

ويقدم المؤلف تحليلا على جانب كبير من الأهمية، عن التأثيرات المتبادلة للاتجاهين الأساسيين في الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار، وهما حركة الفتيان الجزائريين، والتقليديون أو "العمائم القديمة". ويؤكد أجيرون عدم جواز الاستهانة بهما، مشيرا إلى أن

"التيارين كانا عمليا متناقضين طورا، ومتفقين في الاتجاه طورا آخر، ونتيجة ذلك؛ اتخذ ذلك المدى غير المتوقع، الذي كان يدل عن صحوة المسلمين الجزائريين."

وسبقت ظهور هذا العمل الأساسي لأجيرون مجموعة من المقالات، عن جوانب من الموضوع، قائمة بذاتها. وتضمنت ،بصفة خاصة، مقالته "حركة الفتيان الجزائريين 1900-1923 تعريفا أشمل للفتيان الجزائريين، حيث يلقى مؤلفها الضوء على مرحلة تنامي نشاطهم إلى غاية 1923، حين نفت السلطات من الجزائر الأمير خالد، وهو الشخصية المركزية للجزائر المسلمة آنذاك، فأصبحت حركة الفتيان الجزائريين نتيجة ذلك "معطلة على الأقل في الجزائر نفسها."

وتحتوي هذه المقالة، إضافة إلى ذلك، وقائع هامة عن نشاط جمعيات الفتيان الجزائريين، وكذلك استنتاجات مهمة عن دور الفتيان الجزائريين في تشكل الوطنية التي نمت، حسب كلمات أجيرون، من" الانتليجنتسيا" المصابة بخيبة أمل في ليبيرالية المتربول."

وتجدر الإشارة حين نتحدث عن عمل أجيرون "السياسة الاستعمارية في بلدان المغرب" الصادر سنة 1972، إلى الأهمية الخاصة التي تكتسيها أقسام من هذا العمل، متعلقة بعلاقة الاشتراكيين، والشيوعيين الفرنسيين، بالمشكلة الجزائرية، وكذلك الجزء الخاص بنشاط الأمير خالد.

ويحمل رد فعل المؤرخ البورجوازي ومؤيد الاستعمار "ياكونو" على دراسة أجيرون "المسلمون الجزائريون وفرنسا" أكثر من دلالة. فقد نشر ياكونو سنة 1970 عرضا للكتاب في "المجلة التاريخية" وكان نقده موجها، بالدرجة الأولى، إلى مواقف أجيرون من الأوروبيين الجزائريين، الذين يعتبرهم أجيرون السبب الرئيسي للإفقار المدمر للفلاحين. واتهم ياكونو أجيرون بأنه لم يول في كتابه اهتماما كافيا "للجوانب الإيجابية" للاستعمار مثل: مكافحة الملاريا، ونشر التعليم... الخ.. وفي تبريره لموقف المعمرين من "مسألة الأهالي" يتذرع ياكونو بأنهم كانوا "أقلية، وكانوا يرغبون في الحفاظ على المواقع المكتسبة، "لذلك كانوا "يتخوفون من أية تغييرات يمكن أن تؤدي إلى تفوق جماهير" الأهالي."

وأثار الاتجاه المعادي للاستعمار لكتاب أجيرون هجومات مجموعة أخرى من المدافعين الواضحين، والمتخفين وراء قناع الموضوعية الكاذبة من حماة الاستعمار الفرنسي، وفي نفس الوقت لقي الكتاب صدى إيجابيا من جانب العلماء التقدميين، ومنهم مؤرخو الجزائر المستقلة. فقد قيم محمود بوعياد ومحفوظ قداش، مثلا ، في حديثهما معنا تقييما عاليا أعمال أجيرون، وأشارا إلى المغزى الكبير لأبحاث أجيرون المتسمة بالموضوعية في معاداة الاستعمار، وبثبات مبادئها.

كما أسهم بعض المؤرخين الفرنسيين إسهاما ثمينا في المعالجة الموضوعية لمختلف مراحل الحركة الوطنية التحررية في الجزائر. فالمؤرخ (نوشي) يصل في بحثه "ميلاد الوطنية الجزائرية" إلى استنتاج هام، وهو أن الجزائريين المتطورين سياسيا اضطروا بعد انتفاضة المقراني في 1871، وتحرك بعض القبائل في 1916، إلى التكيف مع السيطرة الاستعمارية، والسعي إلى الحصول إن لم تكن المساواة الكاملة في الحقوق المدنية لكل الجزائريين، فعلى الأقل التمثيل المناسب لوزنهم في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، وتخفيف "قانون الأهالي" في كل أشكاله. وتتضمن المؤلفات الأخرى لنوشي شرحا متعدد الجوانب، للوضع الاجتماعي، والسياسي في الجزائر، بين تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين. ومن هذه الزاوية يكتسي الكتاب الذي وضعه نوشي بالاشتراك مع لاكوست وبرينان "الجزائر ماضيا وحاضرا" أهمية كبيرة. فهذا العمل يحيط بتاريخ الجزائر منذ الأزمنة القديمة، إلى غاية "انتصار الاستعمار" في بداية القرن العشرين.

وأصدر المؤرخون الفرنسيون التقدميون مجموعة من الكتب، شجبوا فيها الجوهر الرجعي للسياسة الاستعمارية الفرنسية، ووقفوا بذلك في وجه العلم والدعاية البورجوازيين، مدافعين عن حق الشعب الجزائري في الاستقلال. وينبغي التذكير في هذا الصدد؛ بالدراسة التي صدرت مترجمة إلى اللغة الروسية سنة 1958 "الأمة الجزائرية موجودة" لإغريتو، والتي تتضمن في عنوانها ردا عنيفا على أوهام المستعمرين، حول غياب المقدمات التاريخية للوحدة الوطنية، وأسس الدولة عند الجزائريين، وكذلك العمل المشترك (لدريش وجوليان ومارو) "القضية الجزائرية"، وكتاب جونسون "الجزائر خارج القانون"، ودراسات أخرى...

والأعمال المذكورة – أعلاه – كتبت في أوقات مختلفة، بأقلام الأصدقاء الحقيقيين للشعب الجزائري، بعضها صدر في معمعة الكفاح التحرري ضد المستعمر الفرنسي، وأصبح سندا روحيا، وسياسيا هاما للجزائر المكافحة، وحظي بالاعتراف الصادق للوطنيين .

وفى 1981 صدر عن دار النشر الباريسية "Temps Actuel" المجلد الأول من "حرب الجزائر"، وهي دراسة تاريخية واسعة، مكرسة لتاريخ الحركة المناهضة للاستعمار في الجزائر. وأشرف على مجموعة مؤلفي هذه الدراسة الكاتب والصحافي التقدمي الفرنسي هنري علاق، الذي سبق له أن شارك مباشرة في ثورة التحرير الوطني، وألف كتابا مشهورا بعنوان" السؤال". وبعد أن يقدم المؤلفون للقارئ صورة شاملة للتاريخ العام للجزائر، وكفاح شعبها ضد الغزاة في كل الحقب، وبالدرجة الأولى ضد المستعمر الفرنسي، يخرجون عن أطر العرض الأكاديمي الصرف، فيخرقون مرارا التعاقب الكرونولوجي للأحداث. ورغم ذلك تكتسب الدراسة طابعا جدليا حادا، وهي غنية وممتعة، بفضل معلوماتها الوقائعية والإيضاحية، المستمدة في أغلبها من الصحافة الفرنسية، والجزائرية، الكولونيالية، ومن الأحاديث المباشرة مع من عاصروا تلك الأحداث الهامة. وتكتسي أهمية خاصة بالنسبة لنا شهادات شخصيات الجناح الاندماجي في الحركة الوطنية. ويشير هنري علاق حين يقيم نشاط الفتيان الجزائريين؛ إلى أنه بصرف النظر عن كون تحركاتهم جرت باسم نخبة متفرنسة محدودة العدد، إلا أن شعاراتهم ومطالبهم كانت تعبر في نهاية المطاف عن "الآمال العريضة للشعب الجزائري."

واحتلت مشاكل نشأة الوطنية الجزائرية مكانة معتبرة في أعمال المؤرخ الاشتراكي الفرنسي الكبير شارل أندري جوليان. ففي كتابه: "أفريقيا الشمالية تسير" يدرس عملية تنامي الحركة المناهضة للاستعمار، في الممتلكات الفرنسية في شمال أفريقيا. ويشير إلى عدم جدوى محاولات فرنسا، لإنقاذ إمبراطوريتها الاستعمارية.

وكتب أندري جوليان محددا دور البورجوازية الوطنية في الكفاح التحرري لشعوب المغرب، "إن هذه الطبقة الصاعدة التي كانت تتألم من الحيف السياسي وعدم المساواة،

اقتصرت على المطالبة بالإصلاحات مدة من الزمن. وعندما خابت آمالها أصبحت متأهلة لاعتناق الوطنية وتزويدها بالإطارات اللازمة ".

انتقد جون كلود فاتان "العلم التاريخي الكولونيالي" في دراسته التي نشرت سنة 1974 تحت عنوان: "الجزائر السياسية التاريخ والمجتمع"، والمخصصة للتطور السياسي للسكان الأصليين للجزائر في العهد الاستعماري. ويثير الاهتمام هنا تقييم المؤلف لدور الفئات الوسطى، التي ولدت في أوساطها "أول حركة سياسية منظمة وقادرة على معارضة السياسة الفرنسية..."، ويرى فاتان "أن اندماجية الفتيان الجزائريين كانت تهدف إلى بلوغ المساواة الاجتماعية والسياسية بين الأوروبيين، والمسلمين". إن كتاب فاتان "الجزائر السياسية التاريخ والمجتمع" يعتبر عملا من الأعمال القليلة، التي تقدم شرحا مفصلا لنشاط الفتيان الجزائريين.

وكرست الباحثة الفرنسية(ف. كولونا) التي اشتغلت فترة من الزمن في الجزائر كتابها "المعلمون الجزائريون" 1883-1939، لتكوّن إحدى المجموعات الأساسية من الانتيليجنسيا الجزائرية المفرنسة .وهم الإطارات التعليمية للمدارس الكولونيالية ودروهم الاجتماعي. وبعد تحليلها للمغزى السياسي للنظام الفرنسي لتعليم "الأهالي"، تصل المؤلفة إلى استنتاج مفاده "أن أحد الاتجاهات في الحركة الوطنية (في الجزائر) تأثر بوضوح بتلك القيم التي ظهرت بفضل المدرسة الفرنسية "...

وقد انتقد بحدة الموظف السياسي لدى الحاكم العام السيد ديبون أنصار إصلاح وضع المسلمين الجزائريين الاجتماعي، والسياسي، وخصص بحثه "جزائر الذكرى المئوية" بصورة رئيسية لمدح "جهود فرنسا" الموجهة لتحرير الأهالي، وكسبهم معنويا، وتطويرهم اجتماعيا"، وكتب بعصبية بيّنة عن نشاط الفتيان الجزائريين و"محاميهم العظيم" ألبين روزي: هذا النشاط الذي أضر "بسمعة وهيبة ممثلي فرنسا "

ويحتوي كتاب ديبون وكذلك الأعمال المذكورة آنفا لفوريي وميلي وشخصيات سياسية واجتماعية بارزة أخرى من ممثلي الإدارة الاستعمارية، الذين تعرفوا عن كثب على الحياة الجزائرية، على عناصر شهادات عيانية مباشرة عن الأحداث الموصوفة. وثمة أيضا معلومات مهمة عن الوضع السياسي للمسلمين الجزائريين، في ظروف الاستعمار الفرنسي،

تضمنتها أعمال المفتش العام السابق للجيوش الاستعمارية السيد "V.PIQUET" الجزائر الفرنسية قرن من الاستعمار"، و"الاستعمار في شمال أفريقيا"، و"الإصلاحات في الجزائر" و"وضع الأهالي". وكتاب رجل القانون الفرنسي-الجزائري المعروف والنائب الكاثوليكي في الجزائر" VIARD ،الحقوق السياسية لأهالي الجزائر"، وكتاب المستشار العام لقسنطينة وعضو المجلس الأعلى للجزائر السيد" E.MERCIER مسألة الأهالي والجزائر في مطلع القرن العشرين."

أما "التطور السياسي لشمال أفريقيا الإسلامية" للخبير الكبير في الشؤون المغاربية السيد لوتورنو الذي اشتغل أكثر من عشرين سنة في بلدان المغرب، فهو تقييم لحصيلة الهيمنة الفرنسية في الجزائر، وتونس، والمغرب. لكن لوتورنو يتجنب حين يتطرق إلى السبل المؤدية لاستقلال أفريقيا الشمالية، الحديث عن الأسباب الحقيقية للصعود الثوري الفاجعة، عن تطور الامبريالية نفسها، في مرحلة أزمتها العامة. ويكتب فقط عن "أزمة الالتحاق بركب العالم الجديد"، التي تعانيها بلدان المغرب. أن قيمة هذا الكتاب تكمن في رأينا بلا ريب؛ في كونه يسمح بتتبع ومقارنة تطور الحركة المناهضة للاستعمار، في الممتلكات الفرنسية الثلاث في شمال أفريقيا.

وتتضمن مؤلفات بورديو "BOURDIEU سوسيولوجية الجزائر"، وجاك بيرك"BERQUE المغرب:تاريخ ومجتمعات"، وشارني "الحياة الإسلامية في الجزائر"، تحاليل سوسيولوجية للمجتمع الجزائري أثناء الفترة الاستعمارية. وهناك أعمال ذات طابع تاريخي عام على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لموضوعنا، مثل المؤلفات الخاصة بتاريخ الجزائر لـــ ESQUER "تاريخ الجزائر"، ومارتن "تاريخ الجزائر الفرنسية"، واسنار" ISNARD المغرب". كما درست مراحل معينة من الهيمنة الفرنسية في الجزائر في بحوث" K. VIGNES الحاكم العام تيرمان، ونظام الإلحاق" ودومينيك" L.C.DOMINIQUE الحاكم العام للجزائر" "الأميرال غيدون."

ويلفت الانتباه في علم التاريخ الغربي في رأينا كتاب France Algeria.The problem of civil and political reform 1870-1920 للمؤرخ الأمريكي كونفير V.CONFER والمخصص للكفاح من أجل إصلاح "السياسة الأهلية" الفرنسية في عهد الجمهورية الثالثة. وهذا البحث

متحرر من الكثير من مواطن الضعف المميزة لأعمال المؤرخين البورجوازيين الفرنسيين، الذين يتحيزون بوضوح، حين يتناولون المسائل الاستعمارية وخاصة المشكلة الجزائرية. ويصف كونفير بإسهاب حركة الفتيان الجزائريين، ويشير إلى أنه بين 1890 و1914 ولد "جيل جديد من الجزائريين، وهو الجيل الأول بعد الاحتلال، وإخضاع البلاد الذي خرج منه "ممثلو نخبة شبه أوروبية، ميالة إلى التعاون مع الاستعماريين."

ويتناول المؤرخ الألماني W.Ohneck في كتابه "سياسة فرنسا الجزائرية بين 1919-1939" الكفاح السياسي حول المسألة الجزائرية، ويقدم وصفا مفصلا لمعسكر الفرنسيين "المحبين للعرب"، ويتوقف بشكل خاص عند موقف الاشتراكيين، وعلى رأسهم جون جوريس من الإصلاحات السياسية والإدارية في الجزائر.

ويمكن الإشارة في علم التاريخ الانجليزي المخصص لهذه المشكلة، إلى مقالة باربور، N.Barbour NORTH-WEST Africa : Independance and Nationalism والمنشورة في مجموعة أعمال ملتقى الدراسات الإفريقية. ويبدو لنا أن آراءه تثير الكثير من الجدل، خاصة حين يؤكد "أن الاندماجية وجدت تربة خصبة لها وسط المسلمين الجزائريين، لأنهم ليس لهم "ماض إسلامي مستقل، يمكن أن يحلموا بأحيائه، لذلك اتجهوا في البداية إلى فكرة الاندماج، وكانوا يعولون الحصول على وضع مدني مساو لوضع الأوروبيين في البلاد، التي يشكلون أغلبيتها". إن سطحية مثل هذه النظرة الحالمة تبدو واضحة.

وهكذا فان التعرف على علم تدوين التاريخ الخاص بالفتيان الجزائريين، يبين أن هذه المشكلة لم تكن موضوع دراسة خاصة لحد الآن. كما أن توفر معلومات وحقائق كافية، وتحليل الاتجاهات الرئيسية في تطور الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار في العصر الحديث، وكذلك تحليل جوانب معينة في حركة الفتيان الجزائريين، بحصر المعنى، والذي تم في الفترة الأخيرة في علم التاريخ الروسي، والأجنبي، يشهد على إمكانية تناول هذه المشكلة تناولا خاصا، وعلى أهميتها أيضا. وهو ما يساعد في رأينا على الكشف عن نقطة التحول الهامة في تطور حركة التحرر الوطني للشعب الجزائري، التي بينت أحداثها، بأنه إلى جانب

"صحوة أسيا" في بداية هذا القرن، كانت هناك عملية عاصفة "لصحوة أفريقيا"، ساعدت الفتيان الجزائريين بدرجة كبيرة على نشرها.

دعـــــوة للمساهمة:

تتشرف هيئة تحرير مجلة "معالم" بدعوة المترجمين، مغاربيا وعربيا ودوليا، إلى المشاركة في إثراء هذه المجلة بترجمة مستجدات الفكر والإبداع العالمي من كافة اللغات.

طبعة هذه المجلة عل مطابع :

المطبعة الشمسية

للطباعة و النشر و التوزيع و الإعملام

العنوان : حي بوسحاقي 113" د" باب الزوار, الجزائر

الهاتف / الفاكس : 021.24.59.51

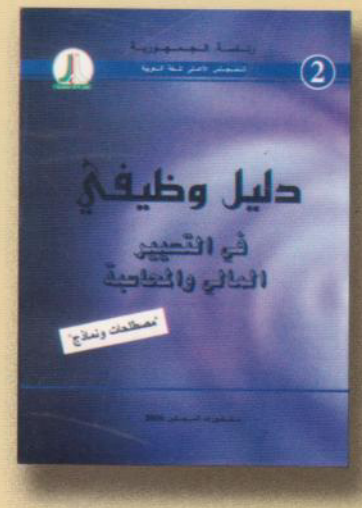

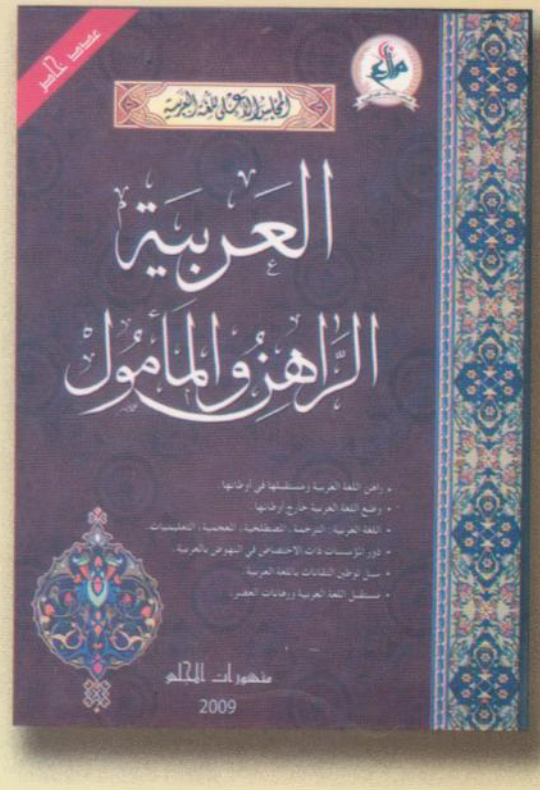

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرنكلين روزفلت.. الجزائر
الهاتف : 25/24 07 23 021 الفاكس : 07 07 23 021
ص.ب : 575 الجزائر ،ديدوش مراد
البريد الإلكتروني : maalem.csla@gmail.com